مئة عام من العزلة



جابرييل غارسيا ماركيز

الحائز على جائزة نوبل للآداب

مئة عام من العزلة

الطبعة الأولى
١٩٩١

دمشق - بيروت

بيروت : شارع الحمراء - ص.ب ١١٣/٥٧٢٠
دمشق : الحجاز - ص.ب ٦٢٠٨
هاتف ٢٢٥٢٢٦ - سجل تجاري ٤٩٨٥٧

مقدمة

لئن كانت هذه الرواية هي الثالثة في ما نقدمه في روايات من أعمال الكاتب الكولومبي الاشهر جابرييل جارسيا ماركيز الحائز على جائزة نوبل في الادب «١٩٨٢» بعد روايتي «الضحية» و «ليالي الحب والرعب» المنشورتين في ابريل ونوفمبر ١٩٨٣، الا أنها معدودة على النطاق الأدبي العالمي قمة أعماله التي نيفت على العشرة، حتى اصبحت احدى الشوامخ في الفن الروائي قديمه وحديثه، وجلبت له من الشهرة واليسر ما عوضه عن كفاحه الطويل لتحقيق هدفه كواحد من أبرز اعلام الادب المعاصر، ومن ثم كان الاجدر ان نستهل بها رواياته في ما ننقله منها الى العربية لأول مرة، لولا أن آثرنا إرجاءها الى ما بعد نشر روايتيه آنفتي الذكر، ليكون القارىء بعد تذوقهما أكثر توقاً الى هذه الرائعة بصفة خاصة، وأشد إقبالاً عليها، وأوفر قسطاً من المتاع بها. والواقع ان القارىء لا يملك الا أن يلهث طوال قراءتها وأن يستبق صحائفها حتى يشفى منها على النهاية بغير انقطاع ولا يلبث وهو متأثر أشد التأثر مبهور غاية البهر بما يجليه المؤلف من غرائب الاحداث وخوارق الوقائع ودخائل المشاعر ودقائق التحليلات وعظائم المفاجآت. حشدها جميعاً على صعيد واحد وعلى مدار عشرة عقود من الزمان لأسرة لعله لم يخلق مثلها في التفرد والغرابة، وكل ذلك في اقتدار وبراعة بالغين، وفي شمول جامع لا تند منه هنة من الهنات، وفي إحكام

وثيق لا تشرد فيه من أوله الى آخره شاردة، متفرداً في كل أولئك بما لم يضارعه فيه سوى قلة قليلة من أساطين الفن الروائي من طراز هوجو وبلزاك ودوستويفسكي وتولستوي وتوماس مان وديكنز وأضرابهم. . . وإذا كان لا يسوغ في هذه العجالة ان نعرض لصلب الرواية ببيان قد ينال من متاع القارىء بها، فإن هذا لا يمنع من ازجاء بعض اللمحات الطائرة من وقائعها وشخوصها ومناحيها الفكرية والنفسية والحسية، لتكون مدخلاً الى هذا الحشد القصصي الضخم، وللقارىء بعد ذلك أن يستأثر وحده بالسياق الخصب والمتعة السائغة غير منقوصين، منوهين فحسب بأن الغواية كانت هي السمة المشتركة في ما تعاقب على أبطالها من احداث وما اضطرم فيهم من نوازع، وهي آفة ظلت لعنتها تطاردهم حتى آخر فرد من سلالتهم . . فاشهد معي على هذه اللمحات :

« . . . لم يكن يعرف سر مولده قط، ولكن تلك المرأة كانت تضرم النيران حامية في عروقه كلما اقتربت منه. . . كانت تذكي مشاعره بقوة خارقة مثلما كانت بالنسبة لابن المارد الهمجي ومن بعده عمه المحارب، وعندما واتته الفرصة للانفراد بها اشتد هلعها وإن عجزت عن مكاشفته بأمومتها له، ولم يتركها الا على موعد ليلي، ولكنه ظل طول ليله يتقلب على جمر من سعير عواطفه الى أن. . ».

***

« . . . ولقد ظل على عزلته وانطوائه الى أن حدث ما جعله يواجه واقع الدنيا بمقدم تلك المرأة التي حيته بمعرفة اكيدة لم تثر دهشته اذ كثيراً ما خلط الناس بينه وبين أخيه التوأم، بيد أنه لم يعمل على توضيح هذا الخلط، وانتهى اللقاء بأن منحته حبها. . وبعد انقضاء أسابيع تحقق أن المرأة كانت تعاشره مع أخيه التوأم معتقدة أنهما شخص واحد. . . »

***

«. . وكادت الجدة تفقد عقلها بشذوذ أطوار ذريتها، حتى لكأن نقائص الأسرة دون ما شيء من محامدها قد تركزت فيهم، ولهذا نذرت في نفسها أن تتولى بنفسها تربية وصياغة هذا الحفيد ليكون الرجل الفاضل الذي يعيد للأسرة مكانتها الذاهبة : الرجل الذي لا يغامر في الحروب، والذي لا يحترف مصارعة الديوك، والذي لا يعاشر النساء الساقطات. . وهي العوامل التي عدتها هادمة لكيان الأسرة على مدار المائة عام من تسلسلها. . الى أن روعت به في النهاية وقد استحال الى . . . »

* * *

«. . . والحق أن هذه الفتاة التي لقبوها بالجميلة لم تكن مخلوقة لهذه الدنيا. . كانت الجدة الكبرى تحمد الله أن منح الأسرة فتاة لها مثل هذا الطهر الخارق، وإن كان يقلقها في نفس الوقت مثل هذا الجمال الذي عدته شركاً شيطانياً تحت طابع البراءة. . كانت الفتاة تؤثر البساطة في كل شيء، ولهذا داست على الازياء النسائية وخاطت لنفسها ثوباً فضفاضاً كالجلباب غير مبالية بأنها تبدو فيه شبه عارية. . وحلقت شعرها بعد أن رأتهم يؤنبونها لتركه مرسلاً حتى الفخذين. . وكان الشيء المروع في هذا كله أنها كلما تجاوزت عن العرف والتقاليد استجابة لبساطتها وعفويتها، كلما بدا جمالها الصارخ أشد اثارة، وإغراؤها للرجال أعنف وأفدح، ولم تدر أن قدرها الذي لا تبديل له كامرأة مذكية للمشاعر مثيرة للاضطراب هو كارثة يومية محققة، الى أن تحققت الكارثة و. . . ».

* * *

«. . . ولقد بلغت البلية ذروتها عندما جيء بالمولود الى البيت الكبير. . . فاضطرت هذه التي اصبحت جدة قبل الاوان الى اخفائه عن العيان حتى تتدبر الامر، بعد أن أعوزتها الشجاعة لإغراقه في الصهريج

تخلصاً من العار، ثم زعمت في ما بعد أنهم وجدوه في سلة طافية في النهر. . ».

* * *

«. . . نشأت هي وهو في رحاب البيت الكبير يلعبان ويلهوان طوال سني الطفولة. . . وبعد عودتها الى البيت بعد طول السنين بصحبة زوجها المطواع الذي طوقت رقبته بحبل من حرير وجدت سليل الأسرة ورفيق الطفولة مارداً حتى لقبته بالمتوحش مداعبة. . وأصبح ثلاثتهم كل الباقين في البيت المهجور. . . ولم تلاحظ أول الامر هذا التغيير الكبير الذي طرأ عليه منذ عودتها. . كان لا يزال على انطوائه وحيائه عندما عانقته كأخت وتركته لاهث الانفاس، يهرب ما استطاع من مداعبات تلك الخالة الفتية التي اصبحت تقض مضجعه وتسمم لياليه. . الى أن جاء ذلك اليوم المستطير الذي أبصرها فيه برداء الحمام، فتبعها على أطراف أصابعه و. . . ».

* * *

«. . . وشد ما كان ارتياعهما عندما اكتشفت القابلة ان آخر سلالة الاسرة هذا! الذي تلقفته لتوها من بطن أمه له ذيل خنزير. . إذن فقد صدقت الاسطورة التي توارثتها الاسرة جيلا بعد جيل : من أن تزاوج الاقارب يثمر هذا المسخ الشيطاني. . . »

* * *

«. . . ومضى رغم ذلك في حياته الماجنة العابثة معرضاً عن زوجته، فقد عد ان ما ناله من ثراء موفور انما كان وليد علاقته بتلك العشيقة، منذ كانت الافراس تلد ثلاثاً كل مرة، والدجاج يبيض مرتين في اليوم، والخنازير تسمن بسرعة غريبة، الى درجة أن أحداً لم يصدق هذه الخصوبة الغريبة الا اذا كانت من قبيل السحر الاسود. . . ».

* * *

هكذا ترى أن الغواية كانت هي القاسم المشترك في حياة هذه الاسرة الغريبة نساء ورجالاً حتى امتدت لعنتها الى آخر سليل منهم . وإنما أروع ما في هذا كله هو قدرة هذا المؤلف القدير على حشد أجيال الاسرة جميعاً بين دفتي روايته، وربط أحداث حيواتهم برباط وثيق لا تفكك فيه، وتحليل نزعاتهم ومشاعرهم، ذلك التحليل النافذ العمق الى الدخائل، وإن اقتضى ذلك تعرية شتى منازعهم على حقيقتها بغير مداراة ولا تزويق، حتى تجدك تتقلب في عالم مائج صاخب فوار، ولكنه يمتع عقلك، ويذكي خيالك، ويستأثر بإعجابك بالكاتب الذي نوهت لجنة جائزة نوبل بأن من أسباب استحقاقه للجائزة العالمية أسلوبه الفذ الذي يجمع بين الخيال والواقع، وهو الكاتب الذي ظل مدى ستة عشر عاما يفكر في هذه الرواية وهي تختمر في ذهنه وتعتمل في وجدانه حتى اكتملت لديه عناصرها، فتوفر على تأليفها قرابة عامين متخلياً عن كافة شؤون أسرته الى زوجته على الرغم من ثقل اعبائه، حتى اذا اتسقت له عملاً سوياً ناضجاً وتم نشرها أكسبته شهرة مستفيضة، ودرت عليه يسراً عوضه عن بأساء حياته الفانية، وتربعت عملاً مجيداً في عداد التراث الادبي العالمي . .

* * *

وبعد، فما أحسبني، والقارىء مشوق الى الرواية ذاتها دون مزيد من الإفاضة، بحاجة الى التحدث عن سيرة المؤلف تفصيلاً وقد اوردتها بإسهاب في روايتيه سالفتي الذكر، وانما اجتزىء هنا ببيان أهم أعماله وهي حسب تسلسل صدورها منذ عام ١٩٥٣ حتى الآن : (عيون الكلب الأزرق)، (الأوراق الذابلة)، (أرينديرا وجدتها القاسية) ، وقد صدرت بعنوان (الضحية) ، (مأتم الأم الكبرى) ، (ساعة النحس) ، وقد صدرت بعنوان : (ليالي الحب والرعب) ، (لا أحد يكتب الى الكولونيل) ، (مائة

عـام من العزلـة) ، الروايـة الحاليـة بعنوان : (لعنـة الغوايـة) ، (خريف البطريرك) ، (وقائع موت معلن عنه) .

والى اللقاء في التحفة الرابعة من روائع هذا الكاتب المبرز، نجلوها الى القارىء في عدد قادم من روايات الهلال بعون من الله وهو ولي التوفيق.

محمود مسعود

الفصل الأول

كان على الكولونيل (أوريليانو بوينديا) ان يتذكر بعد طول السنين وهو يواجه فريق الرماة بالرصاص، عصر ذلك اليوم البعيد عندما صحبه أبوه لاكتشاف الثلج . . . في ذلك العهد كانت (ماكوندو) قرية مؤلفة من عشرين بيتاً من الطوب النيء، بنيت على ضفة نهر صافي المياه تبدو في قاعه احجار مصقولة أشبه في بياضها وضخامتها ببيض حيوانات ما قبل التاريخ . . . وكانت الدنيا غضة الى حد أن كثيراً من الأشياء كانت تنقصها المسميات، فيستعان على وصفها بالإشارة . . . وفي كل عام كانت تفد على القرية في شهر مارس اسرة من (الغجر) المهلهلين، تنصب خيامها خارج القرية، وبين لعلعة المزامير ودق الطبول المدوية تأخذ في عرض العديد من المخترعات . . وكان أول ما جاءوا به هو المغناطيس . . ووقتهـا قام «غجري» منهم متين البنيان منفوش اللحية قدم نفسه باسم (مالكويداس) بعرض جريء سماه العجيبة الثامنة لعلماء الكيمياء المتنورين في مقدونيا . . ومن بيت الى بيت راح يجر كتلتين معدنيتين، فيثير ذهول الناس اذ يبصرون أوانيهم المعدنية وهي تتهاوى من مواضعها، وإذ يسمعون الالواح الخشبية وهي تصر صريراً بتأثير حركة المسامير وهي تكاد تنتزع من أماكنها، بل وإذ يرون كثيراً من الاشياء التي كانت مفقودة بعد طول بحث وتفتيش تظهر من مخابئها وتسحب سحباً في اثر كتلتي مالكويداس السحريتين . . وفي ذلك كان مالكويداس يقول للناس المذهولين بصوته الأجش : «لكل شيء من الاشياء حياته الخاصة . . والمسألة ببساطة هي بعث اليقظة في أرواحها» . . . وعندئذ فكر (جوزيه أركاديو بوينديا) الواسع الخيال في أنه من

الممكن الانتفاع بهذا الاختراع العديم الجدوى في استخراج الذهب من باطن الارض. . . ولكن مالكويداس الذي كان رجلاً قويماً قال له : «إن الاختراع لا يتمشى مع هذا ». . بيد أن جوزيه لم يكن يؤمن في ذلك الحين باستقامة (الغجر)؛ وهكذا قايض على كتلتي المغناطيس ببغلته وعنزتين. . ولم تستطع زوجته (أورسولا اجواران) التي كانت تعتمد على هذه الحيوانات في زيادة دخلهما المتواضع ان تثنيه عن عزمه، اذ قال لها : «عما قريب سيكون عندنا من الذهب ما يكفي لتبليط أرضية البيت ». . وقد ظل شهورا طويلة يعمل دائباً لإثبات صحة فكرته. . فراح يستكشف كل شبر في المنطقة، حتى قاع النهر، ساحباً كتلتي المغناطيس ومردداً تعاويذ مالكويداس بصوت مسموع. . وكان الشيء الوحيد الذي افلح فيه هو استخراج جسم مدرع من القرن الخامس عشر تصلبت اجزاؤه بفعل الصدأ. . وعندما تمكن جوزيه وأفراد بعثته الاربعة من تفكيك الجسم، لم يجدوا بداخله سوى هيكل عظمي متكلس تدلت حول عنقه ايقونة نحاسية بها شعر امرأة !. .

وفي مارس من كل عام كان (الغجر) يعودون الى القرية وفي جعبتهم اختراع جديد. . جاءوا مرة بتلسكوب وعدسة مكبرة بحجم طبلة، فجعلوا امرأة منهم عند طرف القرية ووضعوا التلسكوب في مدخل خيمة، وبثمن قدره خمسة سنتات بالعملة المحلية.كان في مقدور من يدفع ان ينظر من التلسكوب فيبصر المرأة (الغجرية) على قيد ذراع منه، لا أكثر. . وكان مالكويداس يقول في هذا : «إن العلم قد ألغى المسافات. . . وبعد زمن قصير سيكون في قدرة الانسان أن يرى ما يحدث في أي مكان في العالم دون ان يغادر بيته »!. .

وفي عرض مثير آخر وقت الظهيرة سلطوا العدسة المكبرة الضخمة على كوم قش في وسط الشارع، فاشتعلت نار حامية أتت عليه عن آخره. . .

وسرعان ما أوحى ذلك بفكرة جريئة الى (جوزيه اركاديو بوينديا) تعزيه عن الفشل في استغلال المغناطيس لاستخراج الذهب، وهي استخدام هذا الاختراع كسلاح حربي. . . وهكذا قايض مالكويداس على اقتناء العدسة مقابل كتلتي المغناطيس وثلاث قطع من العملة الذهبية مما ورثته زوجته عن أبيها، وكانت تخفيها في الارض تحت الفراش انتظاراً لاستغلال القطع كلها استغلالاً نافعاً في المستقبل، غير عابىء ببكائها وحزنها. . . وإثباتاً لآثار العدسة المحرقة على جنود العدو، فقد عرض جسده لأشعة الشمس المركزة من خلال العدسة الضخمة، وكانت النتيجة اصابته بحروق خطيرة كادت تودي بحياته واستغرق وقتا طويلا للشفاء منها، بل لقد تعرض البيت كله للحريق ! . . ومع ذلك سرعان ما نشط جوزيه لإعداد تقرير مفصل عن اختراعه الخطير الذي سماه (الحرب الشمسية) وبعث به مع رسول خاص الى الحكومة مبديا تمام استعداده للسفر وشرح كافة التفاصيل وتدريب الجنود على استخدام السلاح الفتاك متى جاءته الموافقة. . ولكن الرسول كاد يهلك في الطريق الى العاصمة بين الجبال والمستنقعات والقفار. . وظل جوزيه ينتظر سنوات عديدة حتى يئس من وصول الرد. . ولما عاد مالكويداس في رحلة (الغجر) السنوية واستمع الى شكوى جوزيه المحزونة بسبب فشل مشروعه الحربي، طيب خاطره ورد اليه القطع الذهبية مقابل استعادة العدسة المكبرة، ثم أتحفه هذه المرة ـ تدليلاً على اخلاصه ومودته ـ بخرائط جغرافية وادوات ملاحية وفلكية، أفرد لها جوزيه غرفة صغيرة خلف البيت وعكف على اجراء تجاربه العلمية، مهملا شؤون اسرته، تاركا زوجته ولديه يقصمون ظهورهم في فلاحة الارض لاستنبات ما يأكلون. . وكم روع أفراد الأسرة كلها ذات يوم من شهر ديسمبر عندما جمعهم وقال لهم برصانة وجد بالغين : «لقد اكتشفت من أبحاثي العلمية والفلكية ان الارض مستديرة، مثل برتقالة. . ».

عندئذ لم تتمالك زوجته أورسولا ان صرخت فيه : «اذا كان لا بد أن

تجن، فلتجن وحدك !.. لكن لا تحاول أن تبث ترهات الغجر في عقول أطفالك ! »...

بيد أن جوزيه لم يتأثر بما ابدته زوجته من جزع ويأس، فقد جمع رجال القرية وشرح لهم نظريته بأن الانسان يستطيع ان يعود الى المكان الذي يبدأ منه رحلته اذا واصل الإبحار شرقاً. . ولكنه زادهم اقتناعاً بأنه فقد عقله، وظل الحال كذلك الى أن عاد مالكويداس وأثنى بينهم علناً على ذكاء رجل منهم استطاع باستدلالاته المحضة اثبات النظرية التي تم اثباتها فعلا وعملا في العالم الخارجي، وإن لم تكن معروفة من قبل في القرية، وتأكيدا لفرط اعجابه بهذا الرجل القدير فقد اهداه شيئاً كان مقدراً ان يكون له تأثير عميق على مستقبل ماكوندو : ألا وهو (معمل كيميائي) . .

كان المعمل البدائي يشتمل على مجموعة كاملة من الانابيب والقناني والاواني الزجاجية العجيبة، الى جانب مختلف الاحماض والمساحيق والمعادن التي قيل ان بينها المعادن السبعة الرامزة الى الكواكب السبعة. . . ولما كان جوزيه قد استهوته سهولة الوصفات التي اطلع عليها لمضاعفة اية كمية من الذهب، فقد راح يتودد الى أورسولا مدى أسابيع لكي تسمح بإخراج جنيهاتها الذهبية المدفونة تحت السرير، حتى يعمل على مضاعفتها لها أضعافا كثيرة. . وفي النهاية لم تستطع أورسولا سوى النزول عند رغبة زوجها إزاء إلحاحه وإصراره. . . وعندئذ ألقى جوزيه الجنيهات في اناء وخلط بها مقادير من النحاس والكبريت وكبريتور الزرنيخ والرصاص، ثم جعلها تغلي في وعاء به زيت الخروع حتى استحالت الى سائل كثيف بدا في شكله اقرب الى (الكراملة) العادية منه الى الذهب الثمين. . وبعد عمليات خطرة للتقطير ثم الخلط بالمعادن الكوكبية السبعة والزئبق ثم التبريد في النهاية ، إذ بميراث أورسولا المسكينة يتحول الى كتلة محترقة التصقت في قاع الإناء التصاقاً لا فكاك منه !.

كانت هذه التجربة المريرة باعثة على حزن جوزيه حتى نفض يديه بين عشية وضحاها من القيام بمزيد من التجارب في عالم الكيمياء. . وانصرف عن كل شيء حتى الاكل، وراح يدور في أرجاء البيت مغموما، ولكنه كان يقول لزوجته أورسولا : «هناك أشياء لا تصدق تحدث في الدنيا. .في ما وراء النهر الذي يحد قريتنا، هناك كل أنواع الادوات السحرية العجيبة، ونحن نعيش هنا كالحمير»! . .

•

والحق ان (جوزيه اركاديو بويندیا) كان طوال شبابه مجدا مكافحا متفانيا في رعاية أسرته ومتعاونا مع جيرانه في العمل على رفاهية القرية، واليه يرجع الفضل في تخطيط ماكوندو على نظام منسق بديع حتى أضحت بسكانها الثلاثمائة افضل من كل قرية اخرى معروفة في ذلك العهد، لا يزيد عمر كل فرد من أبنائها عن الثلاثين، ولم تحدث فيها وفاة واحدة. . .

بيد أن هذه الروح الاجتماعية الوثابة ما لبثت ان اختفت بعد ظهور حمى المغناطيسات، والادوات والحسابات الفلكية، وأحلام تحويل المعادن الى ذهب، ومضاعفة مقاديره، وشهوة اكتشاف عجائب العالم. . وهكذا إستحال جوزيه من إنسان نظيف نشط الى شخص كسول في مظهره مهمل في ملابسه اشعث اللحية حتى اضطرت أورسولا الى تقليمها له بعد جهد كبير مستعينة بسكين المطبخ. . وكثيرون هم الذين اعتقدوا انه أصبح ضحية لون من السحر غامض خفي. . .

وفي هذا قالت له أورسولا ذات يوم :

ـ بدلا من أن تنهمك هكذا في اختراعاتك الجنونية ومشروعاتك المتهوسة، يجب ان تنشغل بتربية اولادك. . . انظر الى الحالة التي وصلوا اليها، وهم يجرون في كل مكان شاردين مثل الحمير ! . .

وفعلا نظر جوزيه من النافذة، فشاهد ولديه يلعبان في الحديقة

حافيين، وبدا له انه لم يشعر بوجودهما الا في هذه اللحظة... وظل يتأملهما حتى تندت عيناه بالدموع، وما لبث ان جففهما بظهر يده، وقال وهو يتنهد ممتثلا :

ـ لا بأس... قولي للولدين أن يأتيا لمساعدتي في جمع ادواتي..

كان (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر في الرابعة عشرة.. وكان مربع الرأس، كثيف الشعر، يماثل أباه في متانة البنية، ولكن يقصر عنه في التفكير وقوة التخيل.. وكان مولده اثناء رحلة الاسرة بين الجبال، قبل تأسيس قرية ماكوندو، وقد حمد ابواه ربهما اذ لم يولد بملامح حيوانية... وكان (أوريليانو) أول مخلوق بشري ولد في ماكوندو، يناهز السادسة من عمره، وكان أميل الى الصمت والعزلة والانطواء.. لقد سمع بكاؤه وهو لا يزال في رحم أمه، وولد وهو مفتوح العينين... وعندما قطعوا الحبل السري جعل يدير رأسه من جانب لجانب متطلعا الى ما في الغرفة من أشياء ومتفحصا الوجوه من حوله بفضول لا يخالطه أي خوف... وبعدها لم يعبأ بمن اقتربوا منه للنظر اليه، وركز نظراته في السقف المصنوع من النخيل والذي بدا كأنما يوشك ان يخر تحت وطأة المطر الدافق المنهمر..

ومنذ تلك اللحظة التي استرعت فيها اورسولا نظر الاب الى ولديه، عكف جوزيه على تعليمهما القراءة والكتابة ومبادىء الحساب، ولم يفته ان يحدثهما عما في العالم الخارجي من عجائب، مضيفا اليها حصيلته الذاتية من التخيلات والاحلام، بل والتخرصات والاوهام..

والواقع ان هذه (الهلوسة) ظلت محفورة في ذاكرة الصبيين الى حد بعيد حتى أن (الكولونيل اوريليانو) لم ينس بعد طول السنين (وهو واقف امام فريق الرماة ينتظر اشارة الضابط لإطلاق النار) مشهد أبيه عصر ذلك اليوم الحار من شهر مارس، اذ قطع درس الفيزياء الذي كان يلقنه لولديه ،

ووقف مبهورا رافع اليد جامد العينين ، مرهفا سمعه الى الأصوات البعيدة المتدانية الصادرة عن زمور وطبول «الغجر» القادمين الى القرية مرة اخرى، ليتحفوا أهلها بمزيد من أعاجيب العالم الخارجي . . .

كانوا في الحق طرازا جديداً من (الغجر)، شبانا ونساء لا يتكلمون سوى لغتهم، لهم بشرة زيتية وأيد بارعة، بثت رقصاتهم وموسيقاهم البهجة والروع في الشوارع، ومعهم ببغاوات من كل الالوان ترطن الايطالية، ودجاجة تضع مائة بيضة ذهبية على دق الدفوف، وقرد مدرب يقرأ الطالع، وجهاز متعدد الفوائد التي تشمل الشفاء من الحميات ومساعدة الانسان على نسيان ذكرياته الاليمة، وعشرات اخرى من (المخترعات) المبتكرة الفريدة، حتى أن (جوزيه اركاديو بويندیا) ود لو استطاع ان يخترع هو نفسه جهازا للذاكرة يمكنه من استيعاب كل هذه العجائب واختزانها جميعا في وعيه ! . .

في لحظة واحدة سحر (الغجر) القرية كلها . . وألفى سكان ماكوندو انفسهم تائهين في شوارع قريتهم، مذهولين من فرط ما يرون من الأعاجيب . . .

وراح (جوزيه اركاديو بويندیا) وهو ممسك بولديه حتى لا يضيعا في غمار الزحام يشق طريقه بين بهلوانات ذوي أسنان مذهبة وحواة ذوي ستة أذرع وروائح خانقة من السباخ والاتربة، باحثا عن مالكويداس لكي يكشف له عن مزيد من الاسرار. . وفي هذا سأل عديد (الغجر) الذين لم يفهموا لغته، الى أن وصل في النهاية الى الموضع الذي اعتاد مالكويداس أن ينصب فيه خيمته. . فوجد ارمنيا كان يعلن بالاسبانية عن شراب يجعل الانسان مخفيا عن العيان . . فقد شرب كأسا من مادة عنبرية بجرعة واحدة عندما اقترب منه جوزيه مع ولديه بين الجمع المنبهر لمشاهدة هذه الخوارق، واستطاع جوزيه ان يتجه اليه بسؤاله . . . واذا (الغجري) يرميه بنظرة شاملة

مخيفة قبلما تحول الى بركة دخانية خانقة تردد من فوقها صوته وهو يقول : « إن مالكويداس قد مات » . . .

لقد حزن جوزيه لهذا النبأ الاليم وجمد في مكانه برهة الى ان تفرق الجمع منجذبين الى فنون الألعاب السحرية الأخرى بينما تبخرت في خلال ذلك بركة الأرمني الدخانية. . . وتحت اصرار ولديه لرؤية اعجوبة الأعاجيب المعلن عنها انتقل معهما الى خيمة اخرى دخلوا اليها بعد دفع ثلاثين سنتا، فشاهدوا مارداً اشعر الجسد حليق الرأس تتدلى من أنفه حلقة نحاسية وتلتف حول كاحله سلسلة حديدية ثقيلة وأمامه صندوق قرصاني كبير. . وعندما فتح المارد الصندوق انبعثت منه رائحة ثلجية. . . ولم يكن بداخله سوى كتلة شفافة ضخمة بداخلها ابر لا عداد لها وقد تكسر عليها ضوء الغروب بنجوم ملونة. . واجتزأ جوزيه ان يغمغم لولديه بتفسير لا بد منه :

ـ هي أكبر ماسة في الدنيا . . .

ولكن المارد رد عليه مناقضا :

ـ لا . . . انها ثلج . . .

لم يفهم جوزيه، ومد يده في اتجاه الكتلة الكعكية، بيد أن المارد ردها قائلا :

ـ خمسة سنتات اخرى نظير اللمس. . .

فدفع جوزيه، ووضع يده على كتلة الثلج، وأبقاها بضع دقائق وقد امتلأ قلبه بالخوف والبهجة معا لملمس هذا الجسم الخفي. . وما لبث أن دفع عشر سنتات اخرى تمكينا لولديه من ملامسة هذه الخارقة دون أن يحير قولا. . فأما (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر فقد رفض اللمس. . وأما (أوريليانو) فقد تقدم خطوة ووضع يده عليها ثم سحبها في الحال هاتفا :

«إنها تغلي ! »... ولكن جوزيه الأب الذي اسكرته هذه المعجزة فقد نسي مشروعاته المحمومة وحزنه لفقد مالكويداس معلمه ومشيره الحكيم ودفع خمسة سنتات اخرى ووضع يده من جديد على الكتلة المتلألئة بخشوع وقداسة، وهتف قائلا :

- هذا اعظم اختراع في زماننا ! . .

الفصل الثاني

كان سر اهتمام (جوزيه اركاديو بويندايا) بالثلج هو حلم تراءى له في منامه ذات ليلة وهو في الطريق الى ماكوندو لاول مرة، عن مدينة جدرانها من المرايا. . : ولم يستطع ان يفسر هذا الحلم الا يوم اكتشف الثلج عند (الغجر). . . وقد بدا له أنه سوف يستطاع في المستقبل القريب صنع كتل هائلة من الثلج على نطاق واسع من مادة عادية كالماء، ومن الكتل تبنى بيوت جديدة للقرية، وهكذا لا تبقى ماكوندو مكاناً يتلظى بالحرارة. بل تتحول الى مدينة تحتمل الحياة فيها. . وإذا كان لم يثابر في محاولاته لإقامة مصنع ثلج، فذلك لأنه كان في ذلك الحين منهمكا أشد الانهماك في تعليم ولديه، خصوصاً أوريليانو، الذي تعلق منذ البداية بالكيمياء. . وقد عكف الاثنان فعلا على محاولة فصل بقايا ثروة أورسولا الذهبية الملتصقة بقاع الإناء واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها. . أما (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر فقد عزف عن المشاركة في هذه المحاولة. والواقع ان هذا الابن كان ذا ارادة وعزم، وقد نما جسمه بصورة مفرطة، حتى اذا بلغ سن المراهقة كان أقرب الى صورة مارد. . وفي تلك الايام ترددت على البيت امرأة عرفت بالمرح والإثارة وطلاقة اللسان للمساعدة في أعمال المنزل، وكانت تعرف قراءة الطالع بأوراق اللعب. . . وقد حدثتها أورسولا عن ولدها وعن خشيتها من حجمه المجاوز لسنه، فأطلقت المرأة ضحكة رنانة وقالت لها : «بل بالعكس، انه سوف يكون سعيد الطالع». . . ولكي تثبت المرأة نبوءتها جاءت الى البيت بعد ايام قلائل ومعها اوراق كشف الطالع وأغلقت على نفسها الباب مع الفتى في غرفة خلفية. . . فكانت هذه الخلوة ايذاناً بانقلاب

خطير في اطواره واذكاء مشاعره العاطفية. . .

كانت هذه المرأة تدعى (بيلار تيرنيرا)، وكانت من أفراد الفريق الذي وفد مع جوزيه الأب لتأسيس ماكوندو، جاءت بها أسرتها عنوة للتفريق بينها وبين الرجل الذي اغواها وهي في سن الرابعة عشرة وظلت علاقتهما سراً حتى بلغت الثانية والعشرين دون أن يحسمها بالزواج. . .

فهل كان عجبا ان تجد هذه المرأة في جوزيه الابن خير عوض لها عما فقدته في ذلك العشيق الآبق ؟ . . . بل انها تمادت في هذا الى حد أنه اصبح يتسلل كل ليلة الى بيتها في غفلة من أهله وأهلها. .

وكان جوزيه الابن يجلس نهاره غارقا في ذكريات نشوته الجديدة حتى أنه لم يكد يفهم معنى لهذه الضجة التي شملت البيت كله فجأة عندما راح أبوه وأخوه الاصغر أوريليانو يعلنان في بهجة غامرة نبأ نجاحهما أخيرا في استخلاص ذهب أورسولا من قاع الإناء وتنقيته مما علق به من شوائب. . . وكانت أورسولا سعيدة غاية السعادة بهذه النتيجة، الى حد انها راحت تحمد الله من أجل اختراع الكيمياء، وذهبت تقدم الحلوى والفاكهة الى أهل القرية الذين توافدوا على الدار لمشاهدة هذه العجيبة، وكان جوزيه الاب يريهم الذهب مزهراً وكأنه استنبطه من لا شيء. . وفي النهاية وقف به أمام ابنه الاكبر الذي لم يكن يراه في المعمل الكيميائي في الايام الاخيرة الا نادراً، وسأله :

ـ كيف تراه ؟ . . .

فأجاب جوزيه الابن ببساطة :

ـ مثل براز كلاب. . .

فما كان من الاب الا أن لطمه بظهر يده لطمة أسالت دمه ودموعه. . . وفي تلك الليلة وضعت له بيلار تيرنيرا (كمادات) فوق الورم، وبذلت له من

حبها ما جعله يهمس في سمعها لئلا يسمعه أحد من أهلهـا وهما في غـرفة نومها :

- أريد أن اكون معك وحدنا . . سيأتي يوم اقول فيه للناس مـا بيننا، وبعدها لانحتاج الى هذا التستر ! . .

فقالت له دون أن تحاول صده :

- لو تم هذا لكان شيئا جميلا . . اذا اصبحنا وحدنا فسيكون بالامكان ان نترك المصباح مضـاء لكي اراك وتراني ، بـدل هذا الـظلام من حولنـا . وسيكون لي أن ارفع الصوت وأصرخ دون أن يتـدخل أحـد، وسيمكنك ان تقول لي علنا ما يخطر ببالك ! . . .

إن هذا الحوار الهامس، وغضبه لما ناله من أبيه، وتشوقه للانطلاق في غرامه هذا الى أبعد مدى . . كل هذا قد بث فيه روح الجرأة،حتى اندفع في لحظة عفوية الى مكاشفة أخيه بحـل شيء . . وأول الامر لم يفهم أوريليـانو الصغير سوى فكرة المجازفة، واحتمال الخطر الذي تعنيه مغامرة اخيه، ولم يستطع ان يفهم الإثارة التي اشتملت عليها . . وشيئا فشيئاً سرت اليه عدوى القلق، وأصبح يتساءل في نفسه عن كنه الاخطار ويتلمس تفاصيل المعانـاة والبهجة التي يتعرض لها أخوه، حتى لقـد جعل يسهـر انتظارا لعـودته حتى الفجر . . . ولم يطل بهما الوقت حتى اصبحا يكابدان آثار السهر، ويشتركان في العزوف عن الكيمياء وما يبثه فيهما الاب من تعاليم وحكمة، ولم يجدا ملاذا الا في العزلة والأنطواء . . . وعندما فطنت أورسولا الى حالهما قالت :

- إن الولدين قد اختل عقلهما . . لا بد أن عندهما ديدانا . . .

وبادرت فأعدت لهما (شربة) كريهة ارغمتهما على تناولها حتى لقد تبرز كلاهما احدى عشرة مرة في يوم واحد، مفرزين طفيليات ورديـة اللون أبهجهما أن يرياها للجميع، اذ هيأ لهما ذلك خداع أورسولا وتحويل نظرها

عن المصدر الحقيقي لاضطراب احوالهما . .

وفي الساعة الثانية من صباح يوم خميس في يناير وضعت أورسولا الحامل في شهرها التاسع ابنتها (امارانتا) . . وعندما فحصتها الام وهي وحدها وجدتها خفيفة مائية مثل ورل صغير، ولكنها حمدت الله اذ كانت كل اعضائها بشرية (كان هذا الخوف المتكرر من جانب الام عقب كل ولادة مرجعه الى اسطورة مؤداها أن زواجا بين اثنين من أسلاف أسرتها وأسرة زوجها من الاقارب قد انجب ولدا له ذيل خنزير وقد عاش متخفيا حتى سن الاربعين في ملابس فضفاضة الى أن قطع قصاب ذيله بسكين فنزف حتى الموت) . . .

ومهما يكن فإن أوريليانو لم يلاحظ هذا الحدث الجديد الا عندما امتلأ البيت بالناس فانتهز فرصة الهرج وخرج للبحث عن أخيه الذي لم يبت معه في الفراش منذ الساعة الحادية عشرة، وكانت هذه الفكرة مفاجئة اذ لم يخطر بباله كيف يمكنه استدراج اخيه من غرفة بيلار تيرنيرا في بيت أهلها، لقد راح يدور حول البيت مدى ساعات، مصفرا بنداءات خاصة بهما، الى أن اضطره اقتراب الفجر الى العودة الى داره . . وفي غرفة النوم وجد (جوزيه اركاديو) يلعب بأخته الوليدة وعلى وجهه دلائل التظاهر بالبراءة ! . .

وما أن جاوزت أورسولا فترة (أربعينها) حتى عاد (الغجر) الى القرية في دورتهم السنوية . . وكانوا هم نفس المشعوذين والحواة الذين جاءوا معهم بالثلج من قبل . . وقد اظهروا منذ البداية انهم على عكس قبيلة مالكويداس ليسوا رسل تقدم وإنما أعوان ترفيه وتسلية، وكانت كل معروضاتهم وأدواتهم من هذا الطراز . . .

ولقد امضى «جوزيه اركاديو» الابن وبيلار تيرنيرا اوقاتاً بهيجة وهما يتفرجان على ألعاب (الغجر)، الى أن فاجأته بيلار ذات مرة بنبأ قلب الدنيا

فوق رأسه، اذ قالت له :

- الآن انت رجل فعلا. . .

ولما لم يفهم قصدها، عاجلته قائلة :

- سوف تصبح أبا. .

لم يجسر (جوزيه اركاديو) الابن على مغادرة بيته مدى أيام. . وكان يكفي ان يسمع ضحكات بيلار الرنانة في المطبخ لكي يهرب ويلجأ الى المعمل الكيميائي، حيث كانت تجارب ابيه تجري الان على قدم وساق بمباركة من أورسولا. . والواقع أن «جوزيه أركاديو بويندبا» الاب تلقى ابنه الأبق بالبهجة وأشركه معه في البحث عن «حجر الفلاسفة» وهي احدث محاولاته. . ولكن على الرغم من تظاهر الابن بالاهتمام، فإنه لم يفلح في الهروب من عنائه. . وأفضى به الامر الى فقد الشهية ومجافاة النوم. . وانحاز الى الاكتئاب والغم، حتى أعفاه أبوه من المساعدة في المعمل الكيميائي ظناً بأنه لا يجد القابلية لذلك. . . وقد فهم أوريليانو بالطبع أن اكتئاب أخيه لا علاقة له بالبحث عن «حجر الفلاسفة» وإن كان لم يستطع أن ينفذ الى دخائله بعد أن آنس منه الصمت والأنطواء والبعد عن كل تبسط كما كان حاله في الماضي. . .

وذات ليلة عندما ثقلت عليه الوحدة التي أصبح (جوزيه اركاديو) الابن يعانيها واشتدت نقمته على الدنيا ومن فيها، ترك فراشه كالمعتاد، بيد أنه لم يذهب الى بيت بيلار تيرنيرا، وإنما يمم شطر ملعب (الغجر)، حيث راح يتفرج على العروض ويطوف بأرجاء الملعب على غير هدى. . الى أن استرعت نظره فتاة (غجرية) صغيرة السن كانت مثقلة بالعقود وبدت في نظره اجمل امرأة في الدنيا، وقد وقفت بين الجمع الذي كان يشاهد الرجل الذي تحول الى أفعى لأنه عصى أبويه. .

لم يعبأ (جوزيه اركاديو) بالعرض، وشق طريقه الى حيث وقفت الفتاة في الصف الاول، فوقف عن كثب منها، وأخذ يقترب منهـا الى أن شعرت الفتاة باهتمامه بها وتبسـمت له. . وفي النهاية صحبته الى خيمتها حيث تبادلا القبلات والعناق. . .

كـان ذلك يـوم الخميس. . وفي ليلة السبت لف (جوزيـه اركاديـو) الابن منديلا أحمر حول رأسه وارتجل مع (الغجر). . .

وعندما اكتشفت أورسولا غيابه بحثت عنه في كـل انحاء القـرية. . . ولـم يبق في الساحة التي أقام فيها (الغجر) سوى بقايا النيـران الخابيـة. . وتطوع واحد من أهل القرية فقال لها إنه كان هناك في الليلة الماضية وشاهد ابنها في الزحام يدفع العربة التي تحمل قفص الرجل الأفعى. . وصـرخت الام لزوجها :

ـ لقد اصبح واحدا من (الغجر) ! . .

فقال الاب الذي لم ينزعج لاختفاء ابنه وهو يطحن في الهـاون مواده الكيميائية للمرة الألف :

ـ يا ليت هذا يكون صحيحاً . . بهذه الطريقة سوف يتعلم كيف يصبح رجلًا ! . .

وراحت أورسولا تسأل عن الطريق الذي سلكه (الغجر) في رحيلهم، ظنا منها بأنها تستطيع اللحاق بهم. . وتبعت هذا الطريق الى أن ابتعدت عن القرية مساحة كبيرة لا تستطيع ازاءها العودة. . . ولـم يعرف «جوزيه أركاديو بـوينديـا» بغياب زوجتـه حتى كانت السـاعة الثـامنة ليـلا، فترك خـلائـطه الكيمياوية تبرد وذهب لرؤية أمارانتا الوليدة التي بح صوتها من الصراخ. . . وبعد ساعات جمع بضعة رجال مزودين بما يلزم وعهد بالمـولودة الى امـرأة ابدت استعدادا لرعايتها، وغاب عن الانظار مع رفـاقه في أثـر أورسولا . . .

وكان أوريليانو معهم. . . وأبلغهم بعض الصيادين الهنود بالإشارات وهم لا يفهمون لغتهم انهم لم شاهدوا احداً يمر في الطريق الذي سلكوه. . . وبعد ثلاثة أيام من البحث العقيم عادوا ادراجهم الى القرية . . .

ومضت أسابيع غير قليلة اطلق فيها جوزيه الاب العنان لجزعه. . . وفي خلال ذلك عكف على رعاية امارانتا الصغيرة كأم. . فكان يحميها ويلبسها وكان يدفع بها الى المرضعة اربع مرات في اليوم، بل جعل يغني لها في الليل الاغنيات التي لم تكن أورسولا تعرف كيف تغنيها. . .

وفي احدى المناسبات تطوعت بيلار تيرنيرا بالقيام بالاعمال البيتية الى حين عودة اورسولا. . .وقد أحس أوريليانو ببديهته التي شحذتها هذه البلوى ان هذه المرأة مسؤولة على نحو مبهم لم يستطع ادراكه عن سبب هروب اخيه وما تلاه من اختفاء امه، فبادرها بعداء صامت لا هوادة فيه حتى كفت المرأة عن الحضور الى الدار. . .

وفجأة بعد خمسة اشهر كاملة من اختفاء اورسولا ، اذا هي تعود على غير انتظار. . .

جاءت في حالة ابتهاج ونضارة، مرتدية ملابس جديدة من طراز لم يكن معهودا في القرية. . . ولم يكد جوزيه الاب يستطيع ان يقيم عوده من وطأة المفاجأة، حتى صاح قائلا :

ـ هذا هو ما كنت اعتقده ا . . كنت اعرف ان هذا سيحدث ! . .

وكان ذلك يقينه حقا. . ففي خلال عكوفه الطويل بين معادنه ومواده الكيميائية، كان يدعو في أعماق نفسه أن تكون المعجزة المنتظرة ليس اكتشاف (حجر الفلاسفة) ولا استخلاص الروح الخفية التي تجعل المعادن تتبدل كأنما دبت فيها حياة جديدة، ولا القدرة على تحويل أقفال ومفصلات

الابـواب الى ذهب. . .بـل تكون المعجزة هي ما حدث فعلاً. . . أي عـودة أورسولا !. .

بيد أن أورسولا لم تشاطره انفعاله. . . فقد منحته قبلة تقليدية، وكأنها لم تغب أكثر من ساعة، وقالت له :

ـ أنظر الى خارج الباب. . .

والحق أن جوزيه لبث فترة مديرة نهب حيرته قبلما خـرج إلى الشارع وشاهد الجمع المحتشد . . .

لم يكونوا من (الغجر)، بل كانوا رجـالا ونساء مثلهم، ذوي شعـور مستقيمة وبشرة سمراء، يتكلمون نفس اللغة ويشكون من نفس الآلام، . . وكانت معهم بغال محملة بمأكولات، وعـربات تجـرها الثيـران تحمل أثـاثاً وأدوات منزلية، وأخرى معدة للبيع يعرضها أناس ببسـاطة دون مـا جلبة ولا ضجيج . . .

لقد جاءوا مما وراء اقليم المستنقعات الشاسعة، على مبعـدة يومين لا أكثر، حيث كانت هناك بلدان تتلقى البريد كل شهر من شهور السنة، وحيث يعرفون وسائل العيش التي تجعل الحياة طيبة ميسرة. . .

إن أورسولا لم تستطع ان تلحق (بالغجر) لكنها وجدت الطريق الى الحضارة الذي عجز زوجها عن اكتشافه في بحثـه الحابط عن المكتشفـات الكبرى. . .

الفصل الثالث

جيء بابن بيلار تيرنيرا الى بيت جديه بعد اسبوعين من مولده. وقد تقبلته أورسولا كارهة، مغلوبة على أمرها مرة اخرى ازاء عناد زوجها، الذي لم يحتمل فكرة تشرد سليل من دمه، ولكنه اشترط الا يعرف الطفل بأي حال هويته الحقيقية.. وعلى الرغم من أنهم سموه (جوزيه اركاديو) الا أنهم انتهوا الى تسميته باسم اركاديو فقط، تجنباً للخلط والالتباس...

وفي ذلك الحين حدث نشاط كبير في البلدة ومشاغل كثيرة في البيت الى حد ان رعاية الاطفال عهد بها الى امرأة هندية من قبيلة جواجيرو كانت قد وفدت على البلدة مع اخ لها هرباً من مرض وبائي هو الأرق الدائم كان قد تفشى في القبيلة منذ سنوات عديدة... وقد عرف الاثنان بالوداعة والدماثة حتى لقد استعانت بهما أورسولا في المساعدة في الاعمال المنزلية.. وكان ذلك هو السبب في ان اركاديو وأماراتنا الصغيرين قد عرفا كيف يتكلمان لغة جواجيرو قبل اللغة الاسبانية، وتعلما شرب حساء السحالي وأكل بيض العناكب دون أن تعرف أورسولا هذا، اذ أنها أصبحت مشغولة الى حد كبير بعملية ناجحة تبشر بالربح هي صنع الحيوانات من الحلوى..

ذلك ان بلدة ماكوندو قد تغيرت... فان الوافدين الجدد مع اورسولا راحوا يعلنون انباء سارة عن خصوبة ارضها وعن موقعها الممتاز بالنسبة لمناطق المستنقعات المجاورة، وهكذا تحولت القرية الضيقة الى بلدة ناشطة قامت فيها المتاجر والمصانع الصغيرة، وامتد منها طريق تجاري اصبح يفد منه التجار العرب بشتى السلع... وفي خلال ذلك لم يجد (جوزيه اركاديو

بويندبا) مجالا للراحة والدعة. . . فعندما بهره الواقع الملموس كف عن تخيلاته الواسعة ونفض يديه من ترهات المعمل الكيميائي، وعاد مرة اخرى الى طبيعته السالفة كمخطط للعمران في البلدة، وأصبح حجة لدى القادمين الجدد بحيث لا توضع أسس ولا تقام جدرانِ الا بمشورته، وتقرر في النهاية أن يكون المشرف على توزيع الاراضي. . .

وفيما كان الابْ منصرفا الى تنظيم البلدة والام منهمكة في زيادة دخل الاسرة عن طريق صنع الحيوانات والاسماك من الحلوى، كان اوريليانو يمضي الساعات الطوال في المعمل المهجور يتعلم صناعة طلاء المعادن بتجاربه الخاصة حتى برع في ذلك. . . ومع أن انتقاله الى طور المراهقة أكسبه صلابة ورصانة وانحيازا الى الصمت والاعتكاف والعزلة، الا أنه شحذ فيه تلك الخاصة التي ولد بها وهي حدة البصر التي بلغت درجة البصيرة والقدرة على التنبؤ. . . وذات يوم أذهل أمه بقوله على غير انتظار :

ـ هناك قادم جديد سيأتي الينا. . .

وفعلا لم يحل يوم الاحد الا وقد جاءت ربيكا. . .

لم يكن سنها يجاوز احد عشر عاما. . . وقد جاء بها بعد رحلة طويلة شاقة من بلدة مانور بعض تجار الجلود الذين عهد اليهم بتسليمها الى (جوزيه اركاديو بويندبا) مصحوبة برسالة قال فيها مرسلها إنه لا يزال يكن له المحبة رغم تباعد المسافة والظروف، وإنه إخذ على عاتقه هذا الواجب الخيري الانساني وهو تسليم الطفلة اليتيمة المسكينة التي هي من سلالة أسرتي اورسولا وجوزيه اليهما، اكراما لذكرى والديها المرحومين (نيكانور اولوس) و (ربيكا مونتيل)، اللذين وضعت عظامهما في الصندوق المرافق للطفلة، توطئة لدفنها في مثوى قريب من مقامها الجديد. . .

وفي الحق أنه ما من أحد من الزوجين جوزيه وأورسولا عرف مرسل

الرسالة ولا أبوي الطفلة، تلك التي انزوت منـذ مقدمهـا في كرسيهـا الهزاز الصغير تمتص اصبعها وتتفرس فيهم جميعا بعينيها الواسعتين المجفلتين دون أن تبدي أدنى اشارة تنم عن فهم لما يقال لها. . . وكانت تبدو معتلة الصحة وعليها علائم جوع اقدم من سنها. . . وعندما قدموا اليها طعاما تركت الطبق فوق ركبتيها دون ان تتذوق منه شيئا. . بل بـدا لهم انها ربمـا كانت صمـاء بكماء، الى أن جاءت الهندية وسألتها بلغتها ان كانت تـريد مـاء، فحركت عينيها كأنما عرفتهـا، وأجابت نعم برأسها. . .

لقـد احتفظوا بـالطفلة، اذ لم يكن هنـاك ما يفعلونـه غيـر ذلـك. . . وأطلقـوا عليها اسم ربيكـا أخذا بـاسم أمها. . . ومضت فتـرة طويلة قبلمـا اندمجت ربيكا في حياة الاسرة. . . ولم يستطيعوا ان يحملوهـا على الاكل أياماً متعـاقبة، حتى عجبـوا كيف لـم تمت من الجوع وهي كـذلـك الى أن فاجأها الهنديان وهي تأكل التربة الرطبـة ومصيص الحوائط الابيض تحتفـره بأظافرها ! . .

لقد أثارت هذه الظاهرة الشاذة فزع الاسرة، بيد ان اورسولا لم تخلد الى اليأس، ولم تزل بالطفلة تارة بالترغيب وتارة بالترهيب الى حـد الضرب حتى حملتهـا على العدول عن ذلـك، وأصبحت في النهايـة تأكـل الطعـام العادي مع الصغيرين امارانتا واركاديو، وتشاطرهما النوم في نفس الحجرة. . وتبين بعد ذلك انها تتكلم الاسبانية بنفس الطلاقة التي تتكلم بها الهندية. . .

وتتعاقب الشهور .الاعوام والاسرة ماضية في حياتها. . . الاب لا يكف عن نشاطه الدائب في التخطيط والابتكار. . . والام منهمكة في صنع تماثيل الحلوى التي تدر على الأسرة دخلا وفيرا. . . والابن اوريليانو يزيد براعة في فن طلاء المعادن وصنع المشغولات الفضية والذهبية مستهدفا لعناء المراهقة ماراً بتجارب أليمة زادته انطواء واعتزالا لما يهفو اليـه اضرابـه في مثل هـذا الطور. . .

وتفتح أورسولا عينيها ذات يوم وهي تصنع تماثيلها المحلاة، فيسترعي نظرها مشهد فتاتين جميلتين في سن المراهقة جالستين في الفناء منهمكتين في شغل الإبرة حتى بدا لها لأول وهلة أنها لا تعرفهما . . .

كانت احداهما ربيكا وهي احلاهما على غير ما كان يتوقع، نضرة البشرة، واسعة العينين المفعمتين بالسكينة، بارعة اليدين في التطريز. . أما اصغرهما فكانت امارانتا، رشيقة الى حد ما، متميزة بملامح أسرتها. . وعن كثب منهما جلس اركاديو الصغير، الذي وإن كان ينحو الى سرعة النمو مثل أبيه الأبق، الا أنه بدا كطفل بجانب الفتاتين. . . وكان قد بدأ يتعلم فن المشغولات الفضية على يد عمه أوريليانو، الذي علمه القراءة والكتابة ايضا. . .

وهنا ادركت اورسولا فجأة ان البيت قد اصبح مملوءً بالابناء، وان هؤلاء الابناء سوف يتزوجون حتما وينجبون اطفالاً، وأنهم سوف يضطرون الى التفرق لضيق البيت. . . وهكذا عمدت الى نقودها التي تراكمت على مدار سني العمل الدائب، فأخرجتها للعمل على توسيع البيت، وتولت بنفسها الاشراف على هذه العملية. . .

وفي النهاية قام في مكان البيت البدائي اكبر بيت في البلدة كلها، بل وفي منطقة المستنقعات بأسرها، مشتملا على تسع غرف نوم، وحجرة استقبال كبرى للزائرين، وقاعة للطعام تسع اثني عشر مقعدا صفت حول المائدة الكبيرة، ومدخل مسقوف يقي من حرارة الشمس وتحف به أصص الازهار، و (كرار) كبير تختزن فيه المؤونة الكافية، وحمامين في الفناء احدهما للرجال والثاني للنساء، واسطبل كبير، وحظيرة للدجاج وأخرى لبقر حلب اللبن. . .

وقد اوشك بناء هذا الصرح على التمام عندما استدرجت اورسولا

زوجها من عالمه التخيلي لكي تبلغه انهـا تلقت أمرا بـطلاء الواجهـة باللون الازرق بدلا من الابيض كما كانوا يريدون. وأطلعتـه على الوثيقـة الرسميـة التي جاءت. . . وقبل ان يفهم (جوزيه اركاديو بوينديا) مـا قالته زوجته فك طلاسم التوقيع وسألها :

- من يكون هذا الشخص ؟. .

فأجابت اورسولا في مضض :

- . . . يقولون إنه من رجال السلطة وموفد من الحكومة. . .

كان دون ابولينار موسكوت، القاضي، قد وصل الى ماكوندو بهدوء، ونزل في فندق يعقوب الذي بناه احد العرب الوافـدين للتجارة، وفي اليـوم التالي استأجر غرفة صغيرة ذات بـاب يطل على الشـارع على بعد مـربعين سكنيين من بيت بوينديا. . . وقد وضع منضدة، ومقعـدا جاء بهمـا من عند يعقوب، وثبت على الحائط شعار الجمهورية الذي جاء به معه، وطلى على الباب كلمة (القاضي). . . وكان أول أمـر اصدره هـو وجوب طـلاء جميع البيوت باللون الازرق احتفالا بالذكرى السنوية للاستقلال الوطني. . .

ولما ذهب اليه «جوزيه اركاديو بوينديا» وبيده صورة من الأمر، وجده ناعساً في ارجوحة نصبها في المكتب الصغير. . . فبادره قائلا :

- هل كتبت هذه الورقة ؟. .

كان دون ابولينار موسكوت رجلا مكتملا حييا، مورد الوجه، وقد رد بالايجاب. . . فسأله جوزيه :

- بأي حق ؟. .

فالتقط دون ابولينار موسكوت ورقة من درج المنضدة وأراه اياها قائلا :

ـ انني عينت قاضيا لهذه البلدة. . .

فلم ينظر «جوزيه اركاديو بوينديا» حتى الى أمر التعيين، وقال دون أن يفقد هدوءه :

ـ نحن في هذه البلدة لا نعطى أوامر بقطع من الورق. . . ولكي تعرف للمرة الأولى والأخيرة، نحن هنا لا نحتاج الى أي قضاة: اذ لا يوجد ما يحوجنا الى التقاضي !. .

ووقف جوزيه في مواجهة دون ابولينار موسكوت وأنشأ يشرح لـه بالتفصيل ودون ان يرفع صوته حتى الان كيف أسسوا القرية، وكيف وزعوا وشقوا الطرق وأدخلوا التحسينات التي اقتضتها الضرورة دون أن يعملوا على ازعاج الحكومة ودون ان يعمل أحد على ازعاجهم. . . واستطرد يقول :

ـ نحن انـاس مسالمون جدا حتى انه لم يمت بيننا احد ولو موتا طبيعيا، ولك ان ترى أنه ليست عندنا حتى الآن مدافن. . . ولم يتذمر احد يوما ما لأن الحكومة لم تساعدنا. . بل بالعكس، كنا جميعا سعداء لأنها تركتنا نتقدم في سلام. . . والأمل معقود على ان تتركنا هكذا، لأننا لم نؤسس هذه البلدة لكي يأتي أي مدع ويقول لنا ماذا نفعل !. .

وفي خلال ذلك ارتدى دون ابولينار سترته البيضاء مثل بنطلونه دون أن يفقد في أية لحظة رشاقة حركاته. . . بينما اختتم «جوزيه اركاديو بوينديا» كلامه قائلا :

ـ وهكذا ان أردت ان تبقى هنا مثل أي مواطن عادي فعلى الرحب والسعة. . . لكن اذا كنت جئت لكي تثير المتاعب، بإجبار الناس على طلاء بيوتهم باللون الازرق، فلك ان تأخذ «عزالك» وتعود الى حيث جئت. . . ذلك لأن بيتي سوف يطلى باللون الأبيض، مثل الحمام !. . .

والحق ان دون ابولينار موسكوت شحب وجهه. . . وتراجع خطوة الى

الوراء، وقال وهو يضغط على فكيه بشيء من الأسى :

- لا بد أن احذرك أنني مسلح . . .

لم يدر (جوزيه اركاديو بوينديا) متى استردت يداه القوة التي كان يجبر بها الحصان على الركوع أرضاً . . فقد جذب دون ابولينار موسكوت من طيتي صدر السترة ورفعه الى مستوى عينيه، قائلا :

- انني افعل هذا لأنني افضل ان أحملك هكذا حيا بدلاً من أن اطوف بك ميتا، فيلازمني شبحك طول حياتي ! . .

وعلى هذه الصورة حمله الى وسط الشارع، معلقا من طيتي السترة، الى أن انزله على قدميه في الطريق المؤدي الى المستنقعات . .

وبعد اسبوع عاد دون ابولينار موسكوت برفقه ستة جنود حفاة مهلهلين ومسلحين ببنادق مزدوجة قصيرة، تصحبهم مركبة تجرها الثيران حملت زوجته وسبع بنات . . . وجاءت في ما بعد مركبتان آخريان تحملان الاثاث والامتعة والادوات المنزلية . . . وقد انزل اسرته في فندق يعقوب ريثما يجد مسكنا للأسرة، وعاد لفتح مكتبه تحت حماية الجنود . . .

إن مؤسسي ماكوندو الذين عقدوا العزم على طرد الغزاة ذهبوا مع أبنائهم الكبار لكي يضعوا أنفسهم تحت امرة «جوزيه اركاديو بوينديا» . . . بيد أنه كان ضد هذا الاتجاه . . . فقد بين لهم أنه ليس من الرجولة ان يثيروا المتاعب لأي شخص أمام أسرته، بعد أن عاد دون أبولينار موسكوت مع زوجته وبناته . . وهكذا حسم الموقف بهذا الاسلوب الحميد . . .

وذهب معهم اوريليانو . . . وفي ذلك الحين كان قد بدأ يفتل شاربه الاسود بالشمع، وغدا له صوت جهوري كان مقدرا ان يكون طابعه المميز في الحرب . . . ودخلوا الى مكتب القاضي بغير سلاح غير عابئين

بالحرس. . . فلم يفقد دون ابولينار موسكوت رباطته وهدوءه. . وقدمهم الى اثنتين من بناته كانتا موجودتين آنـذاك : أمبارو البـالغة من العمـر ستة عشـر عاما، السمراء مثل امها، وريميديوس التي لم تزد عن التاسعة من عمـرها، وكانت صبية وافرة الملاحة، ذات بشرة زنبقية وعينين خضراوين. . وكـانت كلتاهما موفورة الادب. . . وحـالما دخـل الرجـال، وقبل التعـارف، قدمتا اليهم مقاعد للجلوس، ولزمتا هما الوقوف . . .

وقال (جوزيه اركاديو بوينديا) :

ـ حسن جدا صديقي . . . لك أن تبقى هنا، لا لأن معك قطاع الطرق هؤلاء الواقفين بالباب مسلحين بالبنادق، ولكن مراعاة لزوجتك وبناتك. . .

لقد بدا دون ابـولينار مـوسكوت منـزعجا، بيـد أن (جوزيـه اركاديـو بوينديا) لم يدع له وقتا للرد، واستطرد قائلا :

ـ هناك شرطان لنا فقط : الأول أن يكـون لكل واحـد أن يطلي بيتـه باللون الذي يفضله. . . والثاني أن يرحل الجنود في الحال. . . إننا سنضمن لك استتاب النظام والامن. .

فرفع القاضي يمناه مبسوطة اصابعه الخمس، قائلا :

ـ بكلمة شرف منك ؟. .

فأجاب (جوزيه اركاديو بوينديا) :

ـ كلمة شرف، من عدوك. . .

وأردف بلهجة المرارة :

ـ لأنني لابد ان اقول لك شيئا واحدا : فأنت وأنا ما زلنا عدوين. . .

وارتحل الجنود في نفس اليـوم. . . وبعد أيـام قلائـل وجد (جـوزيه

اركاديو بويندبا) بيتاً للقاضي وأسرته. . . وسادت السكينة كل انسان فيما عدا اوريليانو. . . فإن صورة ريميديوس صغرى بنات القاضي ظلت تطالعه وتثير ألمه على نحو ما، رغم صغر سنها بالنسبة اليه. . . كان ألماً حسياً يضايقه كمن يمشي وفي حذائه حصاة. . .

الفصل الرابع

أقيمت في البيت الكبير المجدد حفلة راقصة كبرى على نغمات البيانولا دعي اليها مؤسسو ماكوندو وابناؤهم، وكان نجمها هو الشاب الايطالي الوسيم بترو كريسبي مندوب المتجر مورد الآلة الموسيقية الجديدة، الذي أوفد للإشراف على ادارتها وتدريب الراقصين، وكانت رفيقته في الرقص ربيكا التي ابدت براعة اثارت اعجابه، حتى وعد أن يلقنها مزيداً من فنون الرقص في زيارته القادمة للبلدة. . .

وذات يوم جاءت امبارو كبرى بنات القاضي لزيارة البيت الكبير ومشاهدة ما ازدان به من أثاث وتحف، فاستقبلتها أورسولا بالترحاب، ثم عهدت الى أمارانتا وربيكا بالطواف معها في أرجاء البيت. . . وعند انتهاء الزيارة انتهزت امبارو فرصة انشغال امارانتا، ودست في يد ربيكا رسالة سارعت الفتاة بإخفائها في صدرها الى أن صارت وحدها، فوجدتها من بترو كريسبي الوسيم يبثها فيها مشاعر الإعجاب ويثني على براعتها في الرقص، ويعد بزيارة قريبة. . .

والواقع ان هذه الصداقة المفاجئة بين امبارو وربيكا انعشت آمال اوريليانو. . . فإن ذكرى ريميديوس الصغيرة ما فتئت تعذبه، بيد أنه لم يجد الفرصة المناسبة لرؤيتها. . . وهكذا كان ظهور اختها أمبارو في البيت مقدمة طيبة لحضورها معها في زيارة اخرى، واستقر في نفسه خاطر يقيني بذلك ظل يراوده حيناً، الى أن سمع صوتها الطفولي عصر يوم لدى باب المعمل الكيميائي، وعندما رفع نظره شعر بقلبه يتجمد حين أبصرها في فستان وردي

وحذاء مرتفع أبيض وأختها امبارو تقول لها :

ـ لا يمكنك الدخول الى المعمل يا ريميديوس. . انهم يشتغلون. . لكن أوريليانو لم يدع لها وقتاً للرد، فقد نهض وبيده سلسلة تدلت منها سمكة ذهبية وقال لها :

ـ تفضلي بالدخول. . .

فدخلت ريميديوس ووجهت اليه بعض الاسئلة عن السمكة الذهبية، بيد أن لسانه انعقد فجأة عن الرد. . . وكل ما استطاع أن يقوله في النهاية هو أنه سيهديها السمكة الصغيرة، لكن الصبية أجفلت لهذا العرض، وأسرعت بالانسحاب من المعمل .

في نفس هذا اليوم فقد أوريليانو صبره الدفين وأهمل عمله وراح يبحث عنها في كل مكان ترتاده ولو في نافذة بيتها، لكن مساعيه ذهبت سدى، ولم تطالعه صورتها الا في خياله ووحدته الأليمة . . . وأصبح يمضي ساعات كاملة مع ربيكا يستمعان الى عزف البيانولا. . . هي لأن الموسيقى تذكرها بالشاب الايطالي بترو كريسبي الذي علمها الرقص. . . وأوريليانو لأن كل شيء ، حتى الموسيقى، كان يذكره بريميديوس. . .

فأما ربيكا فقد أمرضها طول انتظار الحبيب الذي تأخر عن موعده، حتى رقدت طريحة الفراش. . . وكان اوريليانو وحده هو الذي فهم سرها الحقيقي اذ يكابد تباريح الهوى. . . وفي غمرة حيرته ذهب مع بعض اصحابه الى مشرب كاتارينو. . . وكان يضم ملحقاً من غرف خشبية تقيم به نساء وحيدات وتعزف فيه الموسيقى. . وشرب الرفاق عصير قصب مخمراً بصحبة النساء. . وداعبت احداهن وكانت عجفاء مذهبة الاسنان اوريليانو. . . ولكن مداعبتها جعلته يرتعد حتى صد عنا. . وما لبث أن اكتشف انه كلما شرب زاد تفكيره في ريميديوس، وإن صار أقدر على

احتمال عذاب ذكرياته . . . ولم يدر بالضبط متى بدأ رأسه يدور . . . ورأى اصحابه والنساء يسبحون جميعاً في ضياء باهر، دون وزن لهم ولا كتلة مرسلين كلاماً لا يخرج من أفواههم، ومبدين إشارات خفية لا تتطابق مع كلامهم . . . وعندئذ وضع كاتارينو يده على كتفه وقال له :

ـ الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلا ! . .

فأدار أوريليانو رأسه ، فرأى وجه كاتارينو ضخما مشوهاً، وقد رشق وردة صناعية خلف أذنه . . وعندئذ فقد ذاكرته تماما . . ولما استعادها، وجد نفسه في غرفة غريبة عنه، وفيها وقفت بيلار تيرنيرا أمامه بقميص نومها وهي حافية القدمين مرسلة الشعر، رافعة مصباحاً فوق رأسه، تبدو عليها امارات الانزعاج وعدم التصديق، وهتفت : أوريليانو ! . .

ضبط أوريليانو قدميه ورفع رأسه . . انه لم يدر كيف جاء الى هنا . . . ولكنه عرف مقصده، وهو مقصد كان مخبوء في داخله منذ الصغر . . . وقد رد عليها قائلا :

ـ جئت لأنني اريدك . . .

كانت ملابسه ملطخة بالوحل والقيء، فجعلت تنظفه وهي تغمغم قائلة :

ـ يا طفلي المسكين ! . .

وعندما أفاق من غمرات نشوته وجد نفسه يبكي . . فانتظرت المرأة المجربة حتى فرغ من ذلك النحيب الذي هز وجدانه، وقالت له بهدوء :

ـ من هي ؟ . .

فأخبرها أوريليانو . فأطلقت ضحكة خافتة، وقالت متهكمة :

ـ لا بد أن تربيها أولاً الى أن تكبر ! . .

ولكن من ثنايا الضحكة استشف أوريليانو فهما عميقا . . وعندما انصرف من غرفتها بعد أن انزاح من صدره ذلك الهم المرير الذي اثقله طيلة الاشهر الماضية، وعدته بيلار تيرنيرا قائلة :

ـ سأتكلم مع البنية، وستعرف ماذا يمكنني ان أفعل . . .

وقد برت بوعدها . . ولكنها اختارت وقتا عصيبا . . . إذ كان البيت قد فقد ما كان يرفرف عليه من سكينة في الايام الماضية . . . ذلك أن أمارانتا عندما اكتشفت سر ربيكا العاطفي وكان محالا ان يبقى طي الكتمان، اصيبت هي الاخرى بنوبة حمى نتيجة غرام لا عزاء فيه . . . وأصبحت أورسولا لا تكاد تجد القوة لرعاية الفتاتين العليلتين . . . ولم تستطع رغم طول الاستجواب أن تتحقق من أسباب علة امارانتا . . . وفي النهاية، وبما يشبه الإلهام، عثرت في صندوق امتعة ربيكا على حفنة رسائل بللتها ربيكا بدموعها وعطرتها بالورود ولكنها لم ترسلها الى الايطالي بترو كريسبي . . . فلم تتمالك أورسولا وهي تبكي غضباً ان لعنت اليوم الذي بدا لها فيه أن تطلب شراء البيانولا، وأصدرت أمرها بمنع دروس التطريز، وأعلنت لوناً من الحداد في البيت الى ان تتبخر آمال الفتاتين . . . ولم تفلح وساطة (جوزيه اركاديو بوينديا) الاب الذي اعجب ببراعة بترو كريسبي في ادارة البيانولا في تخفيف التأزم . . . وهكذا رأى أوريليانو عندما أخبرته بيلار تيرنيرا ان ريميديوس قبلته زوجاً لها أن هذا النبأ سيؤدي الى زيادة متاعب والديه . . . والواقع أن الاب ما كاد يسمع باسم الخطيبة المرشحة حتى احمر وجهه اهتياجاً وصاح هادراً :

ـ الحب مرض ! . . ورغم وجود كثير من البنات الجميلات والمهذبات حوالينا، فالشيء الوحيد الذي يخطر لك هو الزواج من إبنة عدونا ! . .

بيد أن أورسولا وافقت على هذا الاختيار، وراحت تطنب في امتداح شمائل بنات القاضي موسكوت السبع، وأطرت سداد رأى ابنها. . . فلم يجد (جوزيه اركاديو بويندیا) ازاء تحمس زوجته سوى النزول عند رأيها، بشرط واحد، هو أن تتزوج ربيكا بترو كريسبي، وان تصحب أورسولا ابنتها امارانتا في رحلة الى عاصمة المقاطعة عندما يسمح الوقت، لكي يؤدي الاختلاط بالناس الى التخفيف من خيبة أملها. . . ولم تلبث ربيكا أن استردت صحتها حالما علمت بهذا الاتفاق، وسطرت الى خطيبها رسالة حارة بعد موافقة والديها وأرسلتها بالبريد دون حاجة الى وسطاء. . وقد تظاهرت امارانتا بقبول القرار، وتماثلت للشفاء من الحمى رويدا رويدا، ولكنها نذرت في نفسها الا يتم زواج ربيكا الا على جثتها.

وفي يوم السبت التالي ارتدى (جوزيه اركاديو بويندیا) احسن ملابسه وذهب لطلب يد ريميديوس موسكوت. . فاستقبله القاضي وزوجته بترحاب وقلق معا، اذ لم يكونا يعرفان سبب الزيارة المفاجئة، ثم بدا لهما بعد ذلك أنه ربما كان مخطئاً في اسم العروس المطلوبة. . . وإزالة لكل لبس ذهبت الأم لإيقاظ ريميديوس من نومها وأتت بها الى غرفة الجلوس وآثار النوم لم تفارقها. . . وقد سألاها إن كان صحيحا أنها قررت الزواج، فردت منتحبة بأنها لا تريد سوى أن يتركوها تنام. . . ولما أدرك (جوزيه اركاديو بويندیا) حالة الاضطراب التي بدت له من الابوين، عاد أدراجه لاستجلاء الحقيقة من أوريليانو. . . وعند رجوعه وجد الابوين قد ارتديا ملابس رسمية ورتبا الأثاث وغيرا الزهور في أوعيتها وجلسا ينتظران بصحبة بناتهما الاكبر. . . ورغم إحساس (جوزيه اركاديو بويندیا) بحرج الموقف فقد أكد أن ريميديوس هي التي وقع عليها الاختيار حقا. . . وعندئذ قال ابولينار موسكوت بلهجة الجزع :

ـ هذا شيء غير معقول ! . . عندنا ست بنات اخريات، وكلهن غير

متزوجات، وسنهن تؤهلهن لذلك تماما، ويشرف كل واحدة منهن ان تكون زوجة لسيد محترم مجد مثل إبنك، ومع ذلك فإن أوريليانو لا يضع نظره الا على البنت التي لا تزال تبلل فراشها ! . .

بيد أن زوجته سارعت بالاعتذار عن هفوته . . وبعد أن فرغوا من تناول الفاكهة اعربوا عن قبول قرار أوريليانو عن طيب خاطر، مصحوباً برجاء من الام أن يجتمع مع أورسولا على انفراد . . فلم تمانع أورسولا، وذهبت الى بيت القاضي في اليوم التالي . . وبعد نصف ساعة عادت لكي تقول إن ريميديوس لم تبلغ الحلم بعد . . . بيد أن اوريليانو لم يجد في هذا عائقاً خطيراً . . . فقد انتظر أمداً طويلا، الى حد أنه يستطيع الانتظار الى أن تبلغ عروسه مرحلة القدرة على الإنجاب . . .

ونعود الى امارانتا . . . فقد وجدت أخيراً فرصتها التي كانت تتحينها لمكاشفة الشاب الايطالي الوسيم بترو كريسبي بحبها الدفين، الذي بر بوعده لربيكا وحل بالبلدة حيث افتتح محلا لبيع الآلات الموسيقية واللعب الميكانيكية في حي التجار الشرقيين . . . والواقع أن الشاب الوسيم الذي كان مرآة يثير تنهدات النساء تلقى اعتراف امارانتا على أنه نزوة عابرة لصبية لا يؤخذ كلامها مأخذ الجد، حتى قال لها :

ـ لي أخ أصغر . . وسيحضر لمساعدتي في المحل . . .

لقد شعرت امارانتا بالمهانة، وقالت لبترو كريسبي في غضب شديد إنها على استعداد لمنع زواج اختها حتى لو كان الثمن هو ارتماء جثتها على الباب . . . والواقع أن الشاب الايطالي تأثر بهذا التهديد الدرامي الى حد أنه لم يستطع مقاومة إغراء ذكر الواقعة لربيكا . . . ونتيجة لهذا فإن رحلة امارانتا التي كانت اورسولا تعمل على تأجيلها تم ترتيب أمرها في أقل من أسبوع . . . ولم تبد امارانتا أية مقاومة، بيد أنها عندما ودعت ربيكا مقبلة

همست في أذنها قائلة :

ـ لا تطلقي العنان لآمالك. . حتى لـو ابعدوني الى أطـراف الدنيـا، فسـوف اجد طـريقة لمنـع زواجك، حتى لـو كان لا بـد لي من قتلك ! . .
وبغياب اورسولا عن البيت، بدا وكأنه خاو على عروشه. . وقد تكفلت ربيكا بالإشراف على تصريف الشؤون المنزلية، بينما تولت المرأة الهندية اعمـال المخبز. . وعندما كان بترو كريسبي يأتي لزيارة خطيبته عند الغروب، كانت ربيكـا تستقبله في الصالـون الرئيسي مـع فتح الابـواب والنوافذ دفعاً لكـل الـظنون. . ولم يكن هـذا التحوط لازمـاً، لأن الشاب الايـطالي كان يسلك مسلك الاحترام في تصرفاته الى حد أنه لم يكن يلمس يد المرأة التي ستغدو زوجته في غضون العام. .

والواقع ان هذه الزيـارات ملأت البيت بكثير من اللعب الميكانيكيـة المتنوعة الاشكال والغريبة التصميمات الى حد أن (جوزيه اركاديو بويندیا) الاب وجد فيها تسلية كبرى، اذ عاد الى أيامه الاولى في المعمل الكيميائي عاكفاً على فكها وتركيبها لكي يضيف اليها نظاما جديداً يجعلهـا في حركـة دائمة على نسق (بندول) الساعة ! . .

وقـد امتد التـأثير الى أوريليـانـو الـذي أهمـل عمله في المشغـولات المعدنية وتفرغ لتعليم ريميديوس القراءة والكتابة. . وكانت الصبية تقابل هذا بالنفور أول الامر مفضلة التفرغ لألعـابها، بيـد أن صبر أوريليـانو ومثـابرتـه اكتسباها آخر الأمر الى جانبه، حتى أصبحت في النهاية أطوع له من بنانه. .

وكانت ربيكا وحدها هي التي تعاني القلق والتوجس بسبب نقمة أمارانتا عليها وتهديداتها الغريبة. . والتماساً منها لما يخفف معاناتها، فقد سعت الى بيلار تيرنيرا لكي تقرأ لها الطالـع. . فتنبأت لهـا بعد سلسلة من المقـدمات التقليدية قائلة :

ـ لن تعرفي السعادة طالما أن عظام أبويك لم تدفن . .

ارتعدت ربيكا ، وقالت :

ـ لست افهم . .

فبدت بيلار تيرنيرا غير مبالية وقالت :

ـ ولا أنا . . ولكن هذا ما تقوله الاوراق . . .

لقد انشغل بال ربيكا واشتد انشغالها بهذا اللغز حتى اطلعت «جوزيه اركاديو بوينديا» على الخبر، فما كان منه إلا أن زجرها لتصديق مثل هذه النبوءات، ولكنه مع ذلك انهمك صامتاً في البحث في كل موضع عن كيس العظام الذي جيء به مع ربيكا وهي بعد طفلة لا تدرك شيئاً . . وتذكر أنه لم يره منذ أن اضطلعوا بتجديد البيت . . فاتصل بالبنائين، فأخبره احدهم أنه وضع الكيس داخل احد الحوائط، تخلصاً من مضايقة وجوده عشرة في عمليات الترميم والبناء . . وبعد أيام من التسمع والدق على الجدران أمكن في النهاية تحديد المكان، فنقبوا الحائط واستخرجوا كيس العظام ودفنوها في نفس اليوم في قبر بلا شاهد . . وعاد (جوزيه اركاديو بوينديا) في نفس اليوم وقد انزاح عنه عبء شديد أثقل ضميره، ودخل على ربيكا في المطبخ مبتهجاً وقبلها قائلا :

ـ اطردي تلك الأفكار السيئة من رأسك . . سوف تكونين من أهل السعادة . .

إن الصداقة التي نشأت بين ربيكا وبيلار تيرنيرا قد فتحت لهذه الأخيرة باب البيت الذي أغلقته أورسولا بسبب مولد اركاديو وقبوله في عداد الاسرة كما تقدم . . وهكذا اصبحت تتردد على البيت في أية ساعة وتطلق نشاطها المحموم في أشق الاعمال . . وأحيانا كانت تدخل المعمل وتساعد اركاديو

(إبنها) في (تحميض) الصور المطبوعة على المعادن بمقدرة وحنو كانا يثيران ارتباكه وعجبه من مسلكها حياله . . بل إن أنفاسها عن كثب وضحكاتها الغريبة في الغرفة المظلمة كانت تشتت باله وتنال من ضبطه للعمل . . .

وفي احدى المناسبات كان أوريليانو في المعمل لإتمام بعض المشغولات الفضية ، فاتكأت بيلار تيرنيرا على المنضدة مبدية اعجابها بدأبه وصبره . . وفجأة لمع في خاطره ذلك الوميض الذي ينبيء بشيء قريب . . . وقبل أن يرفع عينيه لملاقاة عيني بيلار تيرنيرا استوثق من وجود اركاديو في الغرفة المظلمة للتحميض ، تأهباً لاستقراء الخاطرة التي لمحها في عيني تيرنيرا واضحة كالشمس في رائعة النهار ، ثم سألها :

ـ حسن . . قولي ما عندك . .

فعضت بيلار تيرنيرا على شفتها بابتسامة محزونة ، وقالت :

ـ انك ستكون مبرزاً في الحرب . . اينما تلقي نظرك ، تصيب رصاصتك مقتلاً . .

ارتاح أوريليانو لهذه النبوءة ، وركز من جديد على عمله وكأنه لم يحدث شيء ، ثم قال بصوت مشجع :

ـ سوف اعترف (به) . . سوف يحمل اسمي . . .

وأخيراً توصل (جوزيه اركاديو بوينديا) الى ما كان يبتغيه . . فقد أوصل جهاز الساعة بلعبة راقصة ميكانيكية ، وأخذت اللعبة ترقص بلا انقطاع على ايقاع موسيقاها مدى ثلاثة أيام كاملة . . والواقع أن هذا الاكتشاف اثاره الى ابعد حد حتى كف عن الأكل وعن النوم . . ولولا سهر ربيكا على رّعايته لأفضت به تخيلاته الى حالة من الهذيان لا شفاء له منها . . ومع ذلك فقد كان يمضي الليالي وهو يدور في أرجاء غرفته مخاطباً نفسه ، بحثاً عن طريقة

تمكنه من تطبيق نظرية (البندول) على مركبات الثيران وعربات اليد وعلى كل أداة اخرى تغدو ذات نفع اذا وضعت في حالة حركية . .

واستحال عليه النوم بطول الأرق والسهر . . وفي أحد الايام خرج من غرفته والجميع نيام، وعمد الى عضادة الباب فانتزعها، وبقوته الهرقلية أخذ يهشم أدوات المعمل الكيميائي وأدوات المسبك وهو يصرخ ويهذي بكلام غير مفهوم . . وكاد ينتقل الى باقي غرف البيت يعمل فيها تهشيماً لولا أن استنجد أوريليانو بالجيران . . فاحتاج الأمر الى عشرة رجال لطرحه أرضاً، والى أربعة عشر لتقييده، وعشرين لجره الى شجرة الكستناء في الفناء حيث تركوه مربوطاً بها وهو ينبح بكلامه المبهم ويرسل زبداً أخضر من شدقيه . . وحينما عادت اورسولا وامارانتا من الرحلة كان لا يزال مربوطاً الى جذع شجرة الكستناء من قدميه ويديه، غارقاً في المطر، وفي حالة شرود تام . . ولما كلمتاه نظر اليهما دون أن يعرفهما ويقول اشياء لم تفهما منها شيئاً . . ولكن اورسولا فكت قيد معصميه وكاحليه التي تسلخت من ضغط الحبال، وتركته مربوطاً من وسطه فقط . . وفي ما بعد أقاموا له وقاء من سعف النخل لكي يحميه من الشمس والمطر . . .

الفصل الخامس

عقد زواج أوريليانو بويتديا وريمـديوس مـوسكوت يـوم أحد من شهـر مارس أمام الهيكل الذي اقامه الاب (نيكانـور رينا) في قـاعة الاستقبـال بالبيت الكبير . . وقد بذلت أسـرة العروس جهـودا مضنية فى نقلهـا من المرحلة الصبيـانية وسلوكيـاتها اللامسؤولة الى مرحله النضج والاتزان وتقدير الحياة الزوجية . . ومند ذلك اليوم كان إحسـاسها بـالمسؤولية بـاهراً ، كـما تجـلى ذلـك في الـظروف العصيبـة التي طـرأت في المستقبل . . وعلى سبيل المثال فهي التي تطوعت من تلقاء نفسها باقتطاع قطعـة كبيرة من (تورتة الزفاف) وحملتها في طبق مع شوكة الى (جوزية اركاديو بوينديـا » . . وقد تلقى العجوز المربـوط في جذع شجـرة الكستناء والمكـوم فوق مقعـد خشبي صغير في مـأواه المؤلف من سعف النخل والـذي سفعت وجهـه الأمـطار وأشعـة الشمس . . . تلقى هذه الهدية بابتسامة امتنان شاردة وأكل القطعة بأصابعه وهـو يهمهم بكلام غـير مبين ولا مفهـوم . . وكـان الشخص التعس الـوحيـد في ذلـك الحفـل هـو ربيكـا المنكودة . . فقد كان مقرراً بترتيب من أورسولا أن يعقـد زواجها هي أيضـاً في نفس اليوم . . ولكن حدث قبله بيومين ان تلقى بترو كريسبي رسالة تنبئه بأن أمه في حالـة احتضار . . وهكذا أجل زواجها بعد أن اضطر بترو للسفر الى عاصمة المقاطعة بعـد سـاعة من تلقى الـرسالـة . . وكانت المفـاجأة أن أمـه وصلت ليلة زفـاف اوريليـانـو وريميـديوس وغنت في الحفـل اغنية كـانت أعدتهـا لزفـاف ولدهـا . . ولما عـاد بتـرو كـرسبي مسرعـاً بعـد رحلة شـاقـة كـان الحفـل قـد انفض ولم يعـرف قط من هـو كاتب تلك الـرسالـة . . نعم إن أورسولا حملت عـلى امـارانتـا حملة شعـواء ، ولكن هـذه بكت وأقسمت على براءتها أمام الهيكل المؤقت ! . .

ومهما يكن فإن هذا الزفاف كان حافزاً للاب «نيكانور رينا» على التفكير في بناء كنيسة خاصة للبلدة لإتمام الطقوس الدينية على وجهها الكامل. . ولم يمض وقت طويل حتى جمعت التبرعات من أهل البلدة وبدىء في اقامة المبنى. . . وبينما كان الاب نيكانور يتناول الغداء ذات يوم في بيت الاسرة وهو يحدثهم عما ستكون عليه حفلات الزفاف المقبلة من الروعة والقداسة في الكنيسة الجديدة، اذ قالت امارانتا :

- إن العروس التي سوف تسعد بهذا هي ربيكا. .

ولما لم تفهم ربيكا ما تعنيه، شرحت امارانتا مرادها بابتسامة بريئة قائلة :

- سوف تكونين أنت العروس التي يقام أول حفل زفاف في الكنيسة لها. .

حاولت ربيكا أن تتجاهل هذا النذير. . فإن معدل العمل الحالي في بناء الكنيسة سوف يستغرق عشر سنوات على الاقل بسبب عدم كثرة التبرعات. . ولكن اورسولا التي فطنت الى خبث نوايا امارانتا تبرعت بمبلغ كبير للإسراع في عمليات البناء، مما جعل الاب نيكانور يقدر أنه بمثل هذه التبرعات يمكن اختصار المدة الى ثلاث سنوات. . ومنذ هذه الجلسة اعرضت ربيكا عن امارانتا بعد أن تجلى لها سوء طويتها. . وفي المشاحنة الحامية التي جرت بين الاثنتين في تلك الليلة قالت لها امارانتا :

- هذا أقل شيء كان يمكن أن أوعز به ؟. فبتأثير ايحائي لن اضطر الى قتلك قبل ثلاث سنوات !. .

ولكن ربيكا قبلت التحدي وأضمرت في نفسها امورا. . فعندما رأت ما انتاب بترو كريسبي من خيبة الأمل بسبب هذا التأجيل الجديد بادرته قائلة :

ـ يمكننا ان نهرب معاً في أي وقت تشاء . .

بيد أن بترو كريسبي كان ينقصه عنصر المجازفة الذي انطوى عليه طبع خطيبته، وقال إن الاحترام يمنعه من خيانة الثقة التي وضعتها الاسرة فيه . .

وهكذا فكرت ربيكا في وسائل أجرأ . .

فذات ليلة هبت ريح خفيفة أطفأت أنوار البيت، وفاجأت أورسولا العاشقين يتبادلان القبلات في الظلام . . .

وفي مناسبة أخرى نفد الوقود من المصابيح وفاجأتهما أورسولا متعانقين . .

وعندئذ لم تجد أورسولا بداً من التخلي عن واجباتها المنزلية للمرأة الهندية وأخذت تجلس في كرسيها الهزاز عن كثب من الخطيبين اثناء الزيارات التي يقوم بها بترو كريسبي، حتى لم تتمالك ربيكا أن قالت متهكمة من شدة الغيظ :

ـ مسكينة امي . . عندما تموت ستذهب الى الآخرة وهي في هذا الكرسي ! . .

وبعد ثلاثة اشهر من هذا الحب تحت الحراسة، وبعد أن تعب بترو كريسبي من استمرار البطء في بناء الكنيسة، قرر أن يذهب الى الاب نيكانور ويقدم له المال الذي ينقصه لإتمام هذه العملية . .

بيد أن امارانتا لم تفقد صبرها، وأخذت تفكر في مكائد اخرى لتأخير زواج غريمتها قدر ما تستطيع . . فقد عملت خلسة على رفع (النفتالين) من فستان الزفاف، وكان ذلك قبل شهرين من اتمام بناء الكنيسة . . وكانت ربيكا

قد زادت لهفتها باقتراب موعد الزفاف وبدا لها أن تجرب الفستان، وشد ما كان ارتياعها عندما وجدته مثقوباً بفعل العث بحيث لا يصلح لهذه المناسبة الكبرى. . ومع أنها كانت واثقة انها وضعت (النفتالين) بيديها، الا انها لم تجسر على إلقاء التبعة على امارانتا. . ذلك ولم يبق سوى شهر واحد على موعد الزفاف. . ولكن امبارو موسكوت وعدت ان تخيط لها ثوباً جديداً في مدى اسبوع. . وعندما جاءت امبارو بالثوب لتجربته على العروس، شعرت إمارانتا بيأس مطبق، وأضمرت في نفسها ان تنفذ وعيدها يوم الجمعة الاخير قبل الزفاف، بدس جرعة من السم في القهوة التي ستقدم الى ربيكا. .

ورغم هذا كله فقد جدت عقبة لم تكن في الحسبان أدت الى إرجاء هذا الزفاف المنكود الى أجل غير مسمى. . فقبل اسبوع من موعد الزفاف استيقظت ريميديوس الصغيرة في منتصف الليل غارقة في دمها إثر نزيف حاد في أحشائها، وقضت المسكينة نحبها بعد ثلاثة أيام، مع جنين لتوأمين. . .

كانت الفجيعة شديدة الوقع في نفوس افراد الاسرة، لما استأثرت به العروس الفتية المنكودة من محبة الجميع، وأما اشدهم تفجعاً فكان زوجها أوريليانو الذي أحبها منذ اللحظة الاولى حباً يقرب من العبادة، وربيكا السيئة الحظ التي حطم هذا المصاب الجلل كل أمل لديها في اتمام الزفاف في موعده المحدد، بل في أي موعد آخر خصوصاً بعد أن اعلنت أورسولا الحداد في البيت كله على نحو صارم لا هوادة فيه. . . لقد بلغ اليأس من نفس ربيكا مداه ، حتى عادت الى بلواها السابقة، تأكل تراب الارض من جديد

ثم فجأة - عندما طالت فترة الحداد الى مدى بعيد وبدأت نساء الاسرة موسم التطريز التالي - دفع احدهم باب البيت الخارجي في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم المشتد الحر دفعة عنيفة رجت البيت من أساسه، حتى

لقد ظلت امارانتا وهي تشتغل مع صاحباتها لدى المدخل ، وظنت ربيكا وهي تمتص أصبعها كعادتها القديمة كلما استبد بها اليأس ،.وظن أوريليانو وهو عاكف في مسبك المعادن ، بل ظن (جوزيه اركاديو بوينديا) ذاته أن زلزالا حدث ويوشك أن يقوض البيت . . .

لقد وصل رجل ضخم كالمارد . . لا يكاد منكباه العريضان ينفذان من المدخل . . . وكانت تتدلى من عنقه ايقونة . . . وبدا ذراعاه وصدره مكسوين تماماً بالوشم . . . وكانت بشرته مصبوغة بملح الهواء الطلق ، وشعره قصيراً ورأسياً مثل معرفة بغل ، وفكاه من حديد ، وعلى شفته ابتسامة محزونة . . . وكان يتمنطق بحزام غليظ ، ويلبس حذاء (بتزلك) ومهماز ، وحديد في العقبين . . . كان مشهده كله يوحي بزلزال متحرك . . .

واجتاز قاعة الاستقبال وحجرة الجلوس حاملًا خرج الدابة البالي بيده ، وبدا لأعين امارانتا وصواحبها كقصف الرعد حتى جمدت مشدوهات رافعات ابر التطريز في الهواء ؛ ولكنه ألقى الخرج فوق طاولة قريبة دون أن يزيد على كلمة (هالو) قالها بلهجة المكدود ، وكرر مثلها لربيكا التي انتفضت لدى مروره ببابها ، ولأوريليانو المستغرق بكل حواسه في المسبك . . . لكنه لم يعرج على أحد منهم ، بل تقدم الى المطبخ رأساً حيث توقف لأول مرة في نهاية رحلة بدأت من طرف العالم الآخر . . . وعندما كرر كلمة (هالو) وقفت اورسولا مدى ثانية وهي فاغرة الفم ، ونظرت في عينيه ، وإذا صرخة تبدر منها ، ثم إذا هي تقذف بذراعيها حول عنقه صارخة باكية من الفرح . . .

كان ابنها البكر جوزيه اركاديو . . ولقد عاد اليها فقيراً مفلساً كما ارتحل عنها ، الى حد انها اضطرت الى اعطائه قيمة أجر حصانه . . . وكان يتكلم لغة اسبانية خالطتها لهجة بحارة عامية . . . وقد سألوه اين كان ، فرد بقوله : « في الخارج » . . .

وقد علق أرجوحه نومه في الغرفة التي أفردوها له، ونام ثلاثة أيام. . . وعندما استيقظ أكل ست عشرة بيضة نيئة. وذهب مباشرة الى حانة كاتارينو، حيث أثار هيكله الضخم روع النساء ممزوجاً بالفضول. . . ثم طلب موسيقى وأمر بشراب القصب المخمر للجميع على حسابه. . . ولما عرض مصارعة خمسة رجال معاً على الطريقة الهندية قالوا له ان هذا غير ممكن. . . وعندئذ انبرى له كاتارينو الذي لم يكن يؤمن بالشعوذة في ألعاب القوى وراهنه على اثني عشر بيزو اذا استطاع تحريك منصة الشراب من موضعها. . . واذا جوزيه اركاديو يرفع المنصة فوق رأسه ويضعها في الشارع. . . وتطلب الأمر أحد عشر رجلا لإعادتها الى مكانها. . . ولما ألفى نساء الحانة يحاصرنه حصاراً لا مهرب منه، قدم نفسه لهن في مزاد علني، فلم يترددن في الدفع. . .

على هذه الصورة اصبح يكسب قوت يومه. . . لقد طاف حول العالم خمساً وستين مرة، في زمرة بحارة ممن لا وطن لهم. . . وفي ليلته الاولى تلك ونساء حانة كاتارينو، اخرجنه عارياً الى صالة الرقص، لكي يرى الناس انه ليس في جسده بوصة مربعة واحدة خلت من الوشم، أماماً وخلفاً. ومن عنقه الى أصابع قدميه. . .

ولم يفلح في أن يدمج نفسه في حياة الأسرة. . . كان ينام طول نهاره، ويقضي الليل في الحي الذي يعلوه الضوء الأحمر، مراهناً على قوته بمختلف الصور. . . وفي المناسبات النادرة التي استطاعت فيها اورسولا حمله على الجلوس معهم الى مائدة الطعام، كان يتصنع التبسط والفكاهة، ولا سيما في حديثه عن مغامراته في البلاد النائية. . . فقد تحطمت به السفينة مرة في بحر اليابان وقضى أسبوعين تتقاذفه الامواج بين الحطام، فكان يأكل لحم رفيق له مات بضربة شمس، فوجد لحمه المالح جداً بعد انضاج الشمس له لذيذاً شهياً !. . وفي مرة اخرى قتلت سفينته في

بحر البنغال وحشاً بحرياً هائلاً ، فعثروا في معدته على خوذة واسلحة وحزام محارب من العصور الماضية ... وكانت اورسولا تسمع هذا والكثير من مثله وهي تبكي ، كما لو كانت تقرأ الرسائل التي لم تصل ابداً والتي كان جوزيه اركاديو يحدثها فيها عن فعاله ومغامرته ومأزق اسفاره ... وفي ذلك كانت تقول هنا كان بيع واسع ينتظرك يا ولدي ، وطعام كثير كان يرمي الخنازير ..... ولكن من وراء هذا كله لم تكن تتصور ان ابنها الذي اصتلحه « الفجر » ومعهم هو نفسه هذا الشاب الخليع الرقيع ، الذي يأكل نصف خنزير صغير في غدائه والذي كانت غازات بطنه تذبل الأزهار ولم تكن امارتنا تستطيع إخفاء اشمئزازها لدى المائدة وهي تراه يتجشأ بهذه الصورة الحيوانية ... وكان اركاديو الذي تكتمت الأسرة سر علاقة الابوة والنبوة بينهما لا يكاد يرد على الأسئلة التي كان يوجهها اليه اكتساب لمودته ... وحاول اخوه اوريليانو ان يتبعث ذكرى العهود الخوالي حين كانا ينامان في غرفة واحدة وأحاديث الطفولة وافعالها المتواطئة لكن جوزيه اركاديونميّ كل هذا ، لأن الحياة في عرض البحار قد شحنت ذاكرته بالكثير والكثير مما يجاوز الاستيعاب والذاكرة ..

الا ربيكا وحدها التي انهارت تحت تأثيره منذ اللحظة الأولى ...

فمنذ اليوم الذي شاهدته يمر فيه بباب غرفة نومها ، بدا لها بترو كريسي مثل قطعة حلوى مزخرفة بالقياس الى هذا الفحل الذي كان تنفسه البركاني يتردد صداه في كل ارجاء البيت ... وذهبت تحاول الإقتراب متحلة اي عذراً .. وفي احدى المناسبات قطع جوزيه اركاديو الى جسدها باهتمام وقح وقال لها (أنت امرأة فتاتي الصغيرة .. وهنا فقدت كل ما في السيطرة على نفسها وفي مخدعها عادت تأكل من تراب الأرض ومصيص الحوائط بتراهة الأيام السالفة وامضت ليالي ساهرة مسهدة ترتعد من الحمى وهي تنتظر حتى يهتز البيت بعودة جوزيه اركاديو في الفجر .

وفي أصيل يوم والكل نيام وقت القيلولة، لم تستطع مغالبة نفسها، وقصدت الى غرفة نومه... فوجدته مستلقياً في الأرجوحة التي علقها في العوارض الخشبية بحبال سفينة... ولقد اشتد تأثرها بجسامة الوشم الذي يكسو كل جسده العاري الى حد أنها فكرت في التراجع، قائلة: «معذرة... لم أكن اعرف أنك هنا»... ولكنه قال لها: «تعالي»... فأطاعت... ووقفت قرب الأرجوحة وقد شعرت بالعرق البارد يغمرها... أما هو فقد راح يربت عليها قائلا: «آه يا صغيرتي... ستكونين زوجتي!»..

وبعد ثلاثة أيام عقد زواجهما... وفي اليوم السابق ذهب جوزيه اركاديو الى محل بترو كريسبي حيث وجده يلقي درساً في الموسيقى، فلم ينتح به جانباً وإنما قال له:

- سأتزوج ربيكا...

لقد امتقع وجه الشاب الايطالي، وبادر بصرف تلاميذه، وما أن صارا وحدهما في الحجرة المكتظة بالادوات الموسيقية واللعب الميكانيكية حتى قال له:

- إنها أختك...

فرد جوزيه اركاديو قائلا:

- لا يهمني...

فجفف بترو كريسبي جبينه بالمنديل الذي كان مبللاً بالعطر، وقال له:

- ولكن هذا ضد الطبيعة... والى جانب ذلك فهو ضد القانون...

تضجر جوزيه اركاديو، لا من مجادلة بترو كريسبي، ولكن لما بدا من شحوبه، وقال:

ـ كل هذا لا قيمة له عندي. . . وما جئت الا لأقول لك أن تبتعد عن طريق ربيكا. . .

ومع ذلك فإن فظاظته تحطمت عندما رأى عيني بترو كريسبي تتنديان، وقال له بلهجة مختلفة :

ـ والآن، اذا كنت تحب العائلة حقيقة، فأمامك امارانتا. . .

لقد كشف الاب نيكانور في عظة يوم الاحد أن جوزيه اركاديو وربيكا ليسا أخاً وأختاً. . . بيد أن اورسولا لم تغتفر قط ما عدته انتهاكا لواجب الحشمة في الاسرة، وعندما عاد العروسان الجديدان من الكنيسة حرمت عليهما دخول البيت، وعدتهما من الأموات. . . وهكذا استأجرا بيتاً في ما وراء المدافن وأقاما به دون ان يكون فيه من الأثاث أكثر من أرجوحة نوم جوزيه اركاديو. . . وفي ليلة الزفاف تسلل عقرب الى (شبشب) ربيكا ولدغ قدمها، حتى تورم لسانها. . . غير أن هذا لم يمنع أن يستمتعا بشهر عسل صاخب ترامت أصداؤه الى الجيران الذين اشفقوا أن تقض مضاجع الموتى في قبورهم !. . .

وكان اوريليانو هو الوحيد الذي اقلقه حال العروسين . . . فابتاع لهما بعض الأثاث وأعطاهما بعض المال الى أن ارتد اخوه جوزيه اركاديو الى عالم الواقع وأخذ يعمل في اصلاح رقعة الارض المجاورة لفناء البيت لزراعتها. . . أما أمارانتا فلم تبرأ قط من حقدها على ربيكا، رغم ان الظروف أتاحت لها ترضية لم تكن تحلم بها. . ولكن أورسولا سعت الى إزالة ما لحق بالاسرة من مهانة بمسلك جوزيه اركاديو وربيكا، وفي هذا اخذت ترحب بالشاب الايطالي بترو كريسبي في زياراته للاسرة التي واظب عليها مودة منه واستجابة لطبعه الدمث. . . وهكذا توطدت الأواصر بينه وبين امارانتا. . . ومع أنه كان يعاملها من قبل كطفلة، إلا أن الأيام كشفت في

طباعها أشياء محببة، وهكذا فاجأها ذات يوم بطلب يدها زوجة له. . . أما هي فلم تتوقف عن التطريز الذي كانت آخذة به، وانتظرت برهة الى أن زالت الحمرة التي صبغت اذنيها، وقالت وقد أكسبت صوتها رنة النضج :

ـ طبعا يا كريسبي. . . ولكن بعد ان يعرف أحدنا الآخر أكثر. . . ليس من الخير ابداً ان يتسرع الانسان في مثل هذه المسائل. . .

والواقع أن هذا اربك اورسولا. . . فعلى الرغم من التقدير الذي كانت تكنه للشاب الايطالي، الا أنها لم تستطع ان تجزم إن كان هذا القرار طيباً او سيئاً من الناحية الأدبية بسبب الخطبة الطويلة المشهورة بينه وبين ربيكا. . . ولكن اوريليانو الذي أصبح رب الاسرة زاد من ارتباكها برأيه الفاصل الغامض عندما قال لها :

ـ ليست هذه الاوقات التي ينشغل فيها الناس بالتفكير في الزواج !. . .

إن هذا الرأي الذي لم تفهمه أورسولا الا بعد مضي بعض الاشهر، كان هو الرأي الوحيد الصادق الذي كان بوسع اوريليانو أن يبديه في تلك الآونة، ليس فقط بالنسبة للزواج، ولكن بالنسبة لأي شيء لا يتصل بالحرب . . إنه هو نفسه، وهو يواجه فريق الرماة بالرصاص، لم يستطع ان يفهم حق الفهم ذلك الترابط الغريب لسلسلة الأحداث الرهيبة الغامضة التي أفضت به الى هذا الموقف. . . ان وفاة ريميديوس لم يولد في نفسه ذلك اليأس الذي كان يخافه. . . كان شعوره أقرب الى تبلد حسي غاضب استحال تدريجياً الى لون من الإحباط شبيه بما كان يطبع شعوره وهو مستسلم لحياته كإنسان يعيش بغير امرأة. . . وقد عاد الى الاستغراق في عمله من جديد، بيد أنه حافظ على عادته في التردد على بيت صهره القاضي دون أبولينار موسكوت لملاعبته «الدومينو». . . وفي هذا البيت الذي كان يلفه

الحداد، تكفل الحديث الليلي بدعم أواصر الصداقة بين الرجلين. . . وذات مرة قال له صهره :

- تزوج مرة ثانية يا أوريليانـو. . . عندي ست بنـات، لك أن تختـار احداهن. .

وفي احدى المناسبات، قرب اجراء الانتخابات العامة، عاد دون أبـو لينار موسكوت من احدى رحلاته المتكررة الى عاصمة الإقليم يساوره القلق بصدد الموقف السياسي في البلاد. . . فإن الليبراليين المعارضين للحكومة كانوا مصممين على محاربتها. . . ولما كان أوريليانو في ذلك الحين ليست لديه سوى افكار مشوشة عن الفوارق بين الليبراليين والمحافظين، فقد تكفل صهره بتوضيح ما غمض عليه من هذه النـاحية، خصـوصاً تمسـك حكومة المحافظين بالحفاظ على سلطة الدولة والوحدة الوطنية ودعم روابط الـدين والاسرة ومناهضة تقسيم البلاد الى كيانات ذاتية الحكم. . . ولكن مهما يكن من تعاطف أوريليانو مع الليبراليين في بعض النواحي الانسانية مثل الاعتراف بحقوق الاطفال الطبيعية، فإنه لم يفهم قط كيف يتطرف بعض الناس الى حد اشهار الحرب الاهلية بسبب معتقدات قابلة للصواب والخـطأ. . . ومن هذا القبيل بدا له انها مبالغة من صهره أن يسعى الى استقدام ستة جنود مسلحين بالبنادق تحت امـرة رئيس لهم في مناسبة اجراء الانتخـابات. . . وقـد قام الجنود فور حضورهم بالطواف ببيوت البلدة بيتاً بيتاً يصادرون كل ما بها من أسلحـة صيد ومحشـات زراعة، حتى سكـاكين المطابـخ، ويوزعـون على الذكور فوق الحادية والعشرين بطاقات بأسماء المرشحين، زرقاء للمحافظين وحمراء لليبراليين. . .

وبعد اجراء الانتخابات وفوز المحافظين لجأ الليبراليون بعد ما شاع من تزوير نتائج الانتخابات الى التطرف، الى حد أنهم قرروا اغتيال دون أبولينار وبناته الست فيمن دبروا اغتيالهم من أعوان المحافظين. . . وعندما نمي هذا

التدبير الى أوريليانو الذي كان حتى ذلك الحين يقف موقف الحياد دون أن ينحاز الى احد الفريقين، ثارت ثائرته، وواجه زعيم المتآمرين قائلا : «ولا أنت ليبرالي ولا أي شيء. . . ما أنت الا جزار ! . . »، . . .

وعلى الأثر لزم اوريليانو بيت دون موسكوت كل ليلة. . . وقد رأى المتآمرون من عزمه ما جعلهم يرجئون تنفيذ المؤامرة الى أجل غير مسمى. .

كانت هذه هي الظروف التي جاءته فيها أورسولا تسأله الرأي في زواج بترو كريسبي وامارانتا، والتي رد فيها بقوله إنه ليست هذه بالاوقات التي ينشغل فيها الناس بالتفكير في الزواج. . . وقد ظل مدى اسبوع يحمل طبنجة عتيقة تحت قميصه وهو لا يغفل عن مراقبة حركات الليبراليين وفيهم كثير من اصحابه. . . وكان يذهب في فترات الظهر لشرب القهوة مع اخيه جوزيه اركاديو وزوجته ربيكا، اللذين بدأا ينظمان بيتهما. . فاذا كانت الساعة السابعة قصد الى دار صهره للعب «الدومينو» في الظاهر والسهر على سلامته في الواقع. . . أما وقت الغداء فكان يذهب الى اركاديو في المدرسة التي اختار أن يقيمها لتعليم الصغار، والكبار، وكان قد ترعرع وأصبح فتى قوياً مثل أبيه جوزيه اركاديو، ولكن اوريليانو وجده متحمساً للحرب الاهلية التي كانت نذرها تلوح في الأفق، بعد أن أعدته حمى الليبرالية. . . وعندئذ عمل اوريليانو على تهدئته والحد من تطرفه، وأوصاه بالتزام جانب الحكمة والاتزان، وإن كان ابن الأخ هذا قد تمادى في اندفاعه الى حد أنه عير أوريليانو علنا ذات مرة بالضعف والاستكانة. . .

وفي النهاية، وفي بداية شهر ديسمبر، اندفعت أورسولا الى داخل مسبك المعادن حيث كان أوريليانو منهمكا في العمل، صائحة :

ـ لقد بدأت الحرب ! . .

والواقع ان الحرب بدأت قبل ذلك بثلاثة اشهر. . . فقد أعلنت

الاحكام العرفية في البلاد كلها. . . وكان الشخص الوحيد الذي عرف بأمرها مباشرة في البلدة هو دون ابولينار موسكوت، بيد أنه لم يبلغ النبأ حتى لزوجته بينما كانت السرية التي كان عليها ان تحتل البلدة مباغتة في طريقها لتنفيذ هذه المهمة. . . وفعلا دخلت السرية البلدة في سكون قبل الفجر، مصحوبة بقطعتين من المدفعية الخفيفة تجرهما البغال، واتخذت مقرها في المدرسة. . . وفي الساعة السادسة مساء أعلن حظر التجول. . . وقد قاموا بتفتيش صارم من بيت الى بيت، مصادرين حتى أدوات الزراعة. . . وقبضوا على زعيم المؤامرة وربطوه في شجرة في الميدان وأعدموه رميا بالرصاص. . . وحاول الاب نيكانور أن يتدخل، ولكن أحد الجنود شج رأسه بكعب بندقيته. . . وهكذا اخمدت النزعة الليبرالية في البلدة بهذا الارهاب. . . ومضى أوريليانو في انطوائه وغموضه يلعب (الدومينو) مع صهره، وقد ادرك أنه على الرغم من صفته الرسمية كزعيم مدني وعسكري للبلدة، الا أنه أصبح مجرد واجهة، بعد أن صارت القرارات في يد قائد السرية، الذي درج كل صباح على جباية ضريبة غير عادية للدفاع عن الامن العام. . . وقام أربعة جنود تحت امرته بانتزاع امرأة عضها كلب مسعور من احضان اسرتها وقتلوها بكعوب بنادقهم. . . وبعد مضي اربعة أسابيع على الاحتلال ذهب أوريليانو يوم أحد الى دار صديقه جيريلدو ماركيز وكان من أبرز الليبراليين، وفاجأه بعد شرب القهوة بلهجة آمرة لم تعهد فيه من قبل، قائلا :

- إجمع الفتيان واستعدوا. . سندخل الحرب. . .

لم يصدقه جيريلدو ماركيز، وقال له :

- وبأية اسلحة ؟. .

فأجاب أوريليانو :

- بأسلحتهم. . .

وفي يوم الثلاثاء عند منتصف الليـل، وبعملية جنـونية، بـاغت وآحد وعشـرون رجلا دون سن الثـلاثين وبقيادة أوريليـانو بـويندبـا وهم مسلحون بسكـاكين المـطبـخ والادوات الحادة. . . باغتوا أفـراد الحـامية، وانتـزعـوا اسلحتهم، وفي الفنـاء اعـدمـوا قـائـدهم مـع الجنـود الاربعـة الـذين قتلوا المرأة. . .

وفي نفس الليلة، بينما كان صوت فريق الرماة بالرصاص يتردد، عين اركاديو قائدا مدنيا وعسكريا للبلدة. . . ولم يكن المتزوجون من المتمـردين يجدون وقتاً لتوديع زوجاتهم وتركوهن لتدبير شؤونهن وحدهن. . . ثم ارتحلوا في الفجر مشيعين بالهتاف من أهل البلدة بعد أن خلصوهم من الارهـاب، لكي ينضموا الى قوات القائد الثوري فكتوريـو مدينـا، الذي تـواتر أنـه في طريقه الى مدينة مانور. . . وقبل الرحيل اخرج اوريليانو القاضي دون ابولينار موسكوت من داخل دولاب الملابس وقال له :

ـ لك ان تطمئن يا صهري. . . ان الحكومة الجديدة تضمن بشـرفها سلامتك الشخصية وسلامة أسرتك. . .

لقد كاد يتعذر على دون ابولينار موسكوت أن يتعرف في هذا المتآمـر ذي الحذاء العالي والبندقية المعلقة على كتفه ذلك الشاب الذي كان يلاعبه «الدومينو» حتى الساعة التاسعة كل ليلة، ولم يتمالك أن هتف باسم التدليـ الذي كان يناديه به :

ـ هذا جنون، يا أوريليتو ! . .

فرد عليه أوريليانو قائلا :

ـ ليس جنـوناً. . . انهـا الحرب. . . ولا تنـادني باسم أوريليتـو بعـد ذلك. . . أنا الآن الكولونيل أوريليانو بويندبا. . .

الفصل السادس

نظم الكولونيل اوريليانو بويندیا اثنين وثلاثين تمرداً مسلحاً وخسرها جميعاً . . . وقد انجب سبعة عشر طفلا من سبع عشرة امرأة، ولكنهم هلكوا جميعا واحدا بعد الآخر في ليلة واحدةٍ قبل أن يبلغ اكبرهم سن الخامسة والثلاثين . . . واستهدف لأربع عشرة محاولة لاغتياله، وثلاثة وسبعين كميناً، ومرة لإعدامه بالرصاص أمام فريق الرماة . . ولكنه نجا منها جميعا . . .كما نجا من الموت بجرعة من السم تكفي لقتل جواد . . . وقد رفض قبول وسام الجدارة الذي انعمت به عليه الدولة بعد الحرب الاهلية . . . وارتقى الى مرتبة القائد العام لقوات المتمردين، مع تقلده سلطات التشريع والقيادة، حتى غدا أكثر رجل تخشاه حكومة المحافظين . . بيد أنه لم يسمح قط بأخذ صورته الفوتوغرافية . . . ورفض قبول المعاش لمدى الحياة الذي قدم له بعد الحرب . . . والى أن أدركته الشيخوخة كان يكسب قوته اليومي من تماثيل الاسماك المذهبة الصغيرة التي كان يصنعها في معمله ببلدة ماكوندو . . . وعلى الرغم من أنه كان يقاتل دائما على رأس رجاله، فإن الجرح الوحيد الذي تلقاه كان الجرح الذي أصاب نفسه به بعد توقيع (معاهدة نيرلانديا) التي وضعت نهاية لقرابة عشرين سنة من الحرب الاهلية . . فقد اطلق رصاصة على صدره من طبنجة، وخرجت الرصاصة من ظهره دون أن تعطب أي عضو من أعضائه الحيوية . . . وكان الاثر الوحيد الذي بقي من كل هذا هو اطلاق اسمه على شارع ببلدة ماكوندو . . . ومع ذلك، وطبقاً لما صرح به قبل سنوات قلائل من وفاته بالشيخوخة، فإنه لم يكن يتوقع أي شيء من هذا كله، في فجر ذلك اليوم الذي خرج فيه مع رجاله الواحد والعشرين

للانضمام الى قوات الجنرال فكتوريو مدينا . .

كان كل ما قاله لإبن اخيه اركاديو عند الرحيل :

ـ إننا نترك ماكوندو تحت رعايتكم . . إننا نتركها في خير حال . . . فلتحاول أن تجعلها في أحسن حال عندما نعود . .

لقد ترجم اركاديو هذه الوصية ترجمة ذاتية منبعثة من شخصه . . . فقد ابتكر كسوة مارشال مزخرفة، وتمنطق بحزام عريض تدلى منه سيف ذو خصلات ذهبية كان يحمله قائد السرية الذي أعدموه . . . ونصب قطعتي المدفعية عند مدخل البلدة، وألبس تلاميذه السابقين كسى عسكرية. اولئك الذين ألهب خيالهم بتصريحاته النارية، وجعلهم يجولون في الشوارع مسلحين لكي يوحوا الى الغرباء بمنعتهم . . . وكان هذا التمويه سلاحاً ذا حدين، لأن الحكومة، لم تجسر على مهاجمة البلدة مدى عشرة اشهر، ولكنها عندما فعلت اطلقت عليهم قوة كبرى جائحة تكفلت بتصفية المقاومة في خلال نصف ساعة . . . ومنذ اليوم الاول لحكم اركاديو، كشف عن هيامه بإصدار الاوامر العسكرية المتلاحقة، التي كانت تصل الى اربعة في اليوم الواحد وتتناول كل ما يطرأ على باله . . . ومن ذلك أنه فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على الرجال فوق سن الثامنة عشرة، وأعلن الاستيلاء على الحيوانات التي تمشي في الشوارع بعد السادسة مساء واعتبارها من الممتلكات العامة، وأمر أن يضع الرجال المسنون اشرطة حمراء حول اذرعتهم . . . وفرض الحراسة على الاب نيكانور في بيت الابرشية وحظر اقامة القداس ودق الأجراس الا اذا كانت من أجل اعلان انتصار لليبراليين . . . وأول الأمر لم يأخذ أحد أوامره مأخذ الجد، واعتبر الناس هذا من قبيل لعب تلامذة مدارس يتقمصون دور الكبار . . . ولكن حدث ذات ليلة عندما ذهب اركاديو الى حانة كاتارينو ان حياه «نافخ البروجي» وكان بين

الموجودين بنفخ بوقه مما جعل رواد الحانة يضجون بالضحك، فأمر اركاديو بإعدامه رمياً بالرصاص بتهمة الإخلال بواجب الاحترام للسلطات. . . وكانت اورسولا في كل مرة تسمع فيها بعمل من أعماله التعسفية تصرخ في وجهه قائلة :

ـ يا قاتل ! يا سفاك !. . عندما يعرف اوريليانو سوف يرميك بالرصاص، وسأكون أول من يفرح بذلك !. .

ولكن اركاديو تمادى في أعمال القمع حتى غدا أقسى حاكم عرفته ماكوندو. . . وفي هذا قال دون ابولينار موسكوت ذات مرة :

ـ فلندعهم الآن يعرفون الفرق ويتحملون !. . هذا هو الفردوس الليبرالي !. .

وعندما ترامى هذا الكلام الى سمع اركاديو قام على رأس قوة من رجاله بمهاجمة البيت حيث دمروا اثاثه وجلدوا بناته وسحبوا دون أبولينار موسكوت الى خارج البيت. .

ولما اندفعت أورسولا الى مقر القيادة بعد أن طافت بالبلدة تندد بهذا العار وتلوح في غضبتها بكرباج ملطخ بالقار، وجدت اركاديو ذاته في فناء المبنى يستعد لإصدار الأمر الى فريق الرماة بإطلاق النار، فصرخت قائلة :

ـ إنني اتحداك يا ابن الزنا !. .

وقبل أن يجد اركاديو وقتاً لرد الفعل هوت عليه بأول ضربة من السوط صارخة :

ـ إنني اتحداك يا قاتل !. . اقتلني أنا ايضا، يا ابن المرأة الموبوءة !. . بهذه الطريقة لن تبقى لي عينان أبكي بهما معرتي لأنني ربيت وحشاً !. .

وجعلت تجلده بلا رحمة وتطارده الى خلف الفناء حيث انكمش أركاديو على نفسه مثل قوقعة. . . وكان دون ابولينار موسكوت مقيداً الى عمود مغمى عليه. . . وفي هذه الاثناء تفرق فتيان فريق الرماة خوفاً من أن تحمل عليهم أورسولا ايضا. . بيد أنها لم تكلف نفسها حتى عناء النظر اليهم، وتركت اركاديو ممزق الكسوة وهو يضج بالألم محنقاً، وفكت رباط دون ابولينار موسكوت وصحبته الى بيته. . . وقبل أن تغادر مقر القيادة اطلقت سراح المعتقلين الذين زج بهم اركاديو في الحبس تعسفاً. . .

ومنذ ذلك الحين أصبحت هي التي تتولى زمام الحكم في البلدة، فأعادت شعائر القداس، وألغت كافة الاوامر التعسفية المخبولة التي اصدرها اركاديو. . ولكن بالرغم من قوتها، فإنها كانت تبكي حظها العاثر. . وقد شعرت بوحدة مطبقة الى حد انها كانت تسعى الى صحبة زوجها غير المجدية وهو منسي منبوذ تحت شجرة الكستناء، وكانت تقول له في غمرة امطار يونيو التي كانت تهدد بتقويض عشه الواهي :

ـ انظر الى ما صار اليه حالنا. . انظر الى بيتنا الخاوي، واطفالنا الذين تفرقوا في العالم، ونحن الاثنين وحدنا مرة اخرى، مثلما كنا في البداية. . . ان اوريليانو خرج الى الحرب منذ أكثر من أربعة اشهر ولم نسمع عنه شيئاً حتى الان !. . وجوزيه اركاديو ابننا عاد الينا رجلا ضخماً، وأطول منك، وجسمه كله مغطى بإبر الوشم، ولكنه لم يفعل أكثر من أنه جلب العار على البيت !. .

وعندما بدا لها أن زوجها لابسته مسحة حزن في لحظات الوعي العابرة التي كانت تلم به، للاخبار المكدرة، رأت أن تلون كلامها بالكذب، فمضت تقول في اختلاقها :

ـ لقد شاءت ارادة الله ان يتزوج جوزيه اركاديو وربيكا، وهما الان

سعيدان. . وأركاديو هو الان رجل جاد، وباسل جدا، وشاب جميل الصورة بكسوته العسكرية وسيفه. . هل تصدق ان الحظ بدأ يحالفنا من جديد. . فإن امارانتا وعازف البيانولا الايطالي سوف يتزوجان ! . .

والواقع أن امارانتا وبترو كريسبي قد وطدا صداقتهما، بحماية من أورسولا، حتى لم يعد أحد يشك في أنهما سيكونان زوجين موفقين. . ثم إن مدة الحداد على ريميديوس بدأت تتلاشى في ظل أثقال الحرب، وغياب اوريليانو، ووحشية اركاديو، واقصاء جوزيه اركاديو وربيكا من البيت. .

وهكذا جاء اليوم الذي بلغ فيه حب وصبر بترو كريسبي منتهاهما. . . وتصادف أن اقترن هذا اليوم بأمطار اكتوبر المنحوسة. . وقد قال بترو كريسبي لأمارانتا اخيراً وهو ينحي سلة التطريز من يدها :

ـ سوف نتزوج في الشهر المقبل. .

لم ترتعد امارانتا لملمس يديه المثلجتين، وجذبت يدها مثل حيوان صغير وجل وعادت الى التطريز قائلة :

ـ لا تكن سليم النية يا كريسبي. . لن اتزوجك حتى لو كنت من الأموات. .

عندئذ فقد بترو كريسبي كل سيطرة على اعصابه. . وأجهش بالبكاء في غير استحياء وهو يكاد يقصف أصابعه يأساً، بيد أنه لم يستطع ان يثنيها. . وكان كل ما قالته امارانتا له :

ـ لا تضيع وقتك. . إن كنت تحبني الى هذا الحد، فلا تضع قدمك في هذا البيت بعد الآن. . .

ولقد شعرت اورسولا أنها ستفقد عقلها خجلاً وخزياً. . وعلى الرغم

من أن بترو كريسبي لم يدخر وسيلة الا استعان بها لاسترضاء امارانتا، الا أن كل محاولاته ذهبت ادراج الرياح، وظلت امارانتا على ابائها لا تلين لها قناة ولا يرق لها قلب . . .

وذات صباح من شهر نوفمبر فتح شقيق بترو كريسبي الاصغر متجر الادوات الموسيقية واللعب الميكانيكية الذي كان يديره نيابة عن أخيه، فوجد جميع الانوار مضاءة، وكل الادوات الموسيقية تعزف، وكل الساعات تدق دقات الساعة متواصلة . . وفي إبان هذا العزف المجنون عثر على بترو كريسبي لدى المكتب في اقصى المتجر وقد قطع معصميه بموسى والدم مصبوب في إناء تحت يديه . .

أصرت اورسولا ان تنقل جثة المتوفى الى بيتها للسهر عليه حتى يتم تشييع الجنازة . . وقد خرجت البلدة كلها في اليوم المحدد تودعه الى مثواه الاخير في موكب مهيب بالغ الأسى . . وكانت امارانتا في فراشها تسمع بكاء اورسولا وخطى وهمسات جموع المعزين ونحيب النادبين دون ان تغادر مخدعها . . ولكن كان لديها من القوة والاحتمال ما نأى بها عن الوقوع فريسة الحمى . . ولقد تجنبتها أورسولا وصدت عنها . . بل إنها لم ترفع حتى عينيها نحوها رثاء ومشاطرة عندما رأتها تدخل الى المطبخ عصر ذات يوم وتدس يدها داخل الفحم المتوهج في الموقد وتبقيها كذلك الى الحد الذي لم تعد تشعر فيه بألم حتى سرت الى أنفها رائحة اللحم المحترق . . وظلت أياماً كثيرة وهي تتنقل في أرجاء البيت ويدها مغموسة في إناء به بياض البيض، وعندما التأمت الحروق، بدا وكأن حروق قلبها لن تلتئم أبداً . . وكانت الآثار الوحيدة التي تخلفت عن الفاجعة هي ضمادة من شاش اسود لفتها حول يدها المحترقة وظلت تحملها حتى مماتها . . .

وقد أبدى اركاديو كرما نادرا بإعلان الحداد الرسمي على بترو

كريسبي . . وفسرت اورسولا هذا على أنه بمثابة عودة الحمل الشارد. . بيد أنها كانت مخطئة . . فقد فقدت أركاديو، لا منذ أن ألبس نفسه الكسوة العسكرية، ولكن منذ البداية . . كانت تظن انها أنشأته وربته كإبن، كما انشأت وربت ربيكا، دون ما أي تمييز او تفرقة . . وعلى الرغم من ذلك فإن اركاديو كان طفلا انعزالياً مرتعبا في كافة التقلبات التي مرت بالاسرة، في خلال سيطرة اورسولا وتحكمها كربة للبيت مطلقة السلطان والتصرف، وفي خلال اطوار الهوس التي طبعت حياة «جوزيه اركاديو بوينديا»، وفي ظل اعتزال اوريليانو لمباذل الشباب، وفي ظل المنافسة الحامية بين امارانتا وربيكا . . نعم إن اوريليانو علمه القراءة والكتابة، ولكن كما يفعل حيال أي شخص غريب، انصرافاً منه الى شؤون اخرى . . وكان يعطيه ملابسه المستعملة، حتى كان اركاديو يقاسي من الاحذية المتسعة عليه، ومن البنطلونات المرقعة . . وهو لم ينجح في التفاهم مع احد بأحسن مما كان يتفاهم مع التابعين الهنديين بلغتهما . . ومن ثم كانت المدرسة، حيث كانوا يعيرونه الاهتمام ويحترمونه، وحيث استمد منها القوة والصولة في ما بعد، مقرونتين بالكسوة العسكرية والاوامر النافذة . . كانت المدرسة هي التي حررته من أثقال المرارة القديمة التي طالما اعتملت في صدره . . وذات ليلة تجاسر احدهم في مشرب كاتارينو وقال له :

ـ أنت لا تستحق اللقب الذي تحمله . .

وخلافاً لما توقعه الجميع، لم يأمر اركاديو بإعدامه رمياً بالرصاص وإنما رد قائلا :

ـ من دواعي عظيم شرفي انني لست من أسرة بوينديا . .

وقد ظن أولئك الذين يعرفون سر أبويه ان رده يعني إنه عليم ايضا بهذا السر، بيد أنه لم يعلمه قط . . وكانت «بيلار تيرنيرا» ـ أمه ـ تلك التي كانت

تضرم النيران حامية في عروقه كلما اشرفت عليه في غرفة التحميض المظلمة بالمعمل. . كانت امرأة تذكي مشاعره بقوة عارمة مثلما كانت بالنسبة لجوزيه اركاديو «أبيه»، ومن بعده اوريليانو، على الرغم من أنها فقدت مفاتنها وضحكتها الصادحة. . . وكان يتعقبها ويستدل على اثرها من ذلك الأريج الدخاني الذي يفوح منها. . وقد حدث قبل الحرب بفترة قصيرة عندما تأخرت في الحضور الى المدرسة ظهراً لاصطحاب طفلها الاصغر «من أب مجهول»، ان راح اركاديو ينتظرها في الغرفة التي اعتاد أن ينام فيها قيلولته. . وفيما كان الطفل يلعب في فناء المدرسة، كان اركاديو ينتظر في أرجوحته وهو يرتعد قلقا وتشوقا، عارفا أن بيلار تيرنيرا لا بد أن تمر من الغرفة. . وجاءت فعلا. . واذا اركاديو يجذبها من معصمها محاولا حملها الى الارجوحة. . فقالت بيلار تيرنيرا في هلع :

ـ لا يمكنني !. . لا يمكنني !. . لا يمكنك ان تتصور الى أي حد أود أن اسعدك، ولكن يشهد الله أن هذا ليس في امكاني !. .

فأمسك اركاديو بخصرها بقوته الهائلة الوراثية وقد شعر بالدنيا تغيب عنه من ملمس بشرتها، وقال لها :

ـ لا تمثلي دور القديسة !. . على أي حال فالكل يعرفون أنك بغي !. .

تغلبت بيلار على التقزز الذي ابتعثه في نفسها علمها بحظها السيء، وغمغمت قائلة

ـ إن الأطفال سيكتشفون الموقف .. الافضل ان نترك الباب بغير مزلاج هذه الليلة !. .

وفي تلك الليلة انتظرها اركاديو في ارجوحته وهو يرتعد ارتعاد المحموم. . انتظر دون أن ينام والليل يمر بطيئا متثاقلا حتى أشفى على

الفجر، مما أقنعه بأنه كان مخدوعا. . وفجأة، عندما استحال الانتظار والقلق الى غضب، فتح الباب اخيراً . .

كانت الخطى متخبطة في الظلام وبين «تخت» القصل. . ولما مد يده وجد يداً اخرى متختمة بخاتمين في أصبع واحد، على غير ما عرف في بيلار تيرنيرا. . وإذ لم ينفذ الى أنفه الأريج الدخاني واشتم رائحة عطر عادي، فقد أيقن أن هذه ليست المرأة التي كان ينتظرها. . .

كانت فتاة تدعى «سانتا صوفيا بيدال» وقد نقدتها بيلار تيرنيرا خمسين بيزو وهي نصف ما ادخرته في حياتها، لكي تذهب مكانها. . وكان اركاديو قد شاهدها مرارا كثيرة في محل البقالة الصغير الذي يملكه أبواها ولكنه لم يكن يهتم بها. . ولكن منذ تلك الليلة درجت على أن تذهب اليه في المدرسة في فترة القيلولة، بموافقة أبويها، اللذين منحتهما بيلار تيرنيرا النصف الباقي من مدخراتها. . وظل الحال كذلك الى أن اصبح اركاديو قائداً عسكرياً مدنياً، وله منها بنت. .

وكان الاقرباء الوحيدون الذين يعرفون ذلك هما أبوه جوزيه اركاديو وزوجته ربيكا، بعد أن وطد اركاديو صلاته بهما في ذلك الحين، لا لصلة القرابة، ولكن لمصلحة خاصة جعلت منه ومن أبيه شريكين متواطئين. . فإن الزواج جعل من جوزيه اركاديو انساناً طيعا عاملا، يخرج الى الغابة كل يوم محتقباً بندقية الصيد المزدوجة بصحبة كلاب الصيد المدربة، ويعود الى البيت الذي جملته ربيكا، بحصيلته من الارانب والبط البري، والغزلان أحيانا. . وذات يوم زاره اركاديو في مستهل حكمه للبلدة زيارة مفاجئة دعي فيها للغداء. . واثناء شرب القهوة كشف اركاديو عن الغرض من الزيارة، وهو شكوى قدمت اليه ضد جوزيه اركاديو. . فقد قيل إنه لم يكتف برقعة الارض التي كان يفلحها، بل عمل على زيادتها باغتصاب الاراضي المجاورة بالقوة الجبرية، وتمادى في هذا الى حد فرض اتاوة على جيرانه يحصلها كل يوم

سبت تحت ارهاب كلابه وبندقيته المزدوجة. . . ثم تبين ان اركاديو لم يأت لتصحيح الاوضاع ورفع الظلم، بل لإدراج الأرض كلها، ما لأخيه وما ليس لـه ، في سجـل رسـمي ، بشـرط ان يتـرك لـلحكـومـة تـحصيـل الاتـاوات. . . وعلى هذا تم الاتفـاق بين الاثنين. . وفي السنوات التـالية، عندما قام الكولونيل اوريليانو بوينديا بفحص سجل الممتلكـات العقاريـة، تبين أنه قد سجلت باسم اخيه جوزيه اركاديو كافة الاراضي الممتدة بين التل حيث كـانت رقعته الصغيـرة وبين الأفق، بمـا فيهـا أرض المـدافن. . كمـا اكتشفت أن اركاديو لم يكن يحصل فقط الاتاوات، بل كان يتقاضى كذلـك رسوماً من الافراد نظير دفن موتاهم في أرض جوزيه اركاديو. . .

وكان حتما أن تفـوح رائحة الفسـاد الى أنف اورسولا وأن تسمـع بأن اركاديو ابتنى لنفسه بيتا واستجلب أثاثاً فـاخراً من الخـارج، ولكنها لم تعلم علم اليقين الا بعد أن زارته في بيته الجديد ذات يوم وهو يلعب الورق مـع ضباطه . . عندها ايقنت أنه يستغل الاموال العامة لحسابه، ولـم تتمالك أن صرخت فيه قائلة :

ـ أنت عار على اسم اسرتنا وسمعتها ! . .

أما أركاديو فلم يعبأ بها. . ويومها فقط عرفت أن له طفلة عمرهـا ستة اشهر، وأن «سانتا صوفيا بيدال» التي كان يعاشرها بغير زواج، حامـل مرة اخرى. . فاستقر عزمهـا على مكاتبـة الكولـونيل أوريليـانو بـوينديـا، حيثما يكون، لإطلاعه على أحدث مجريات الامور. . بيد أن الأحداث المتلاحقة بسرعة في تلك الأيام حالت دون تنفيذ عزمها. . . ذلك أن الحرب التي كانت حتى ذلك الحين مجرد كلمة لوصف ظرف بعيد غامض، قد استحالت الى واقع محسوس درامي. . فقد حدث قرب نهايـة شهر فبـراير أن وصلت الى ماكوندو امرأة عجوز كالحة الوجه راكبة حمارا محملاً بالمكانس. . وكـانت علائم المسالمة بادية على المرأة الى حد أن الحرس تركوها تمر دون سؤال

باعتبارها بائعة متجولة مثل غيرها من الباعة الوافدين من منطقة المستنقعات. . وقد اتجهت المرأة العجوز الى الثكنات مباشرة. . فاستقبلها اركاديو في فصل المدرسة الذي كان قد تحول الى معسكر خلفي للحرس علقت على جدرانه اراجيح النوم وتناثرت على ارضه البنادق والطبنجات وحتى بنادق الصيد القصيرة. . وإذا المرأة العجوز تنتفض في وقفة انتباه وتحيي تحية عسكرية معرفة نفسها قائلة :

ـ أنا الكولونيل جريجوريو ستفنسون. .

ولقد جاء معه بأنباء سيئة. . فإن آخر مراكز المقاومة لليبراليين بدأت تتصدع وتسقط تباعا. . وقد عهد اليه الكولونيل اوريليانو بوينديا، الذي تركه يقاتل متقهقراً قرب بلدة ريوهاشا، برسالة لإبلاغها الى أركاديو. . وكان عليه ان يسلم ماكوندو دون مقاومة، بشرط احترام حياة وممتلكات الليبراليين. . وقال اركاديو للرسول وهو يتفحصه بنظرة في عجب ورثاء معا :

ـ طبعا احضرت معك رسالة خطية. . .

فرد المبعوث قائلا :

ـ بالطبع لم احضر معي شيئاً من هذا القبيل. . فالمفهوم في مثل الظروف الحاضرة الا يحمل الانسان شيئا يمكن أن يدينه. .

وشفع هذا الكلام بأن دس يده في «مشده» النسائي وأخرج سمكة مذهبة صغيرة قائلا :

ـ أظن ان هذا سيكفي. .

أيقن اركاديو أنها حقا من تلك الحلى الصغيرة التي كان يصنعها الكولونيل اوريليانو بوينديا. . لكن كان من الممكن لأي انسان أن يبتاع مثلها قبل الحرب او يسرقها فلا يمكن الاعتماد عليها كجواز مرور عسكري. .

وعندئذ لجأ الرسول لكي يصدقوا هويته الى افشاء سر حربي، فقال إنه موفد في مهمة الى بلدة كوراكاو، حيث يؤمل في تجنيد المهاجرين المنفيين من كل انحاء البحر الكاريبي وجمع اسلحة وامدادات تكفي لمحاولة النزول الى البر عند نهاية العام. . ونظراً لإيمان الكولونيل اوريليانو بوينديا بهذه الخطة، فإنه غير ميال الى بذل تضحيات لا جدوى منها في ذلك الحين. . ورغم هذا كله فإن اركاديو لم ينزل عن إصراره، فأمر بوضع الاسير تحت التحفظ الى أن يمكنه اثبات هويته، وصمم على الدفاع عن البلدة حتى الموت. . .

ولم يكن له ان يطول انتظاره. . فإن اخبار هزيمة الليبراليين غدت حقيقة واقعة. . فقرب نهاية شهر مارس في فجر يوم هطلت امطاره على غير انتظار، بدد سكون الاسابيع السابقة فجأة أصوات نفير ملعلع وطلقة مدفع اطاحت برج الكنيسة الأمامي. . وفي واقع الأمر كان قرار اركاديو بالمقاومة جنونا لا شك فيه. . فلم يكن تحت إمرته أكثر من خمسين رجلاً مسلحين سلاحاً هزيلا، وما معهم من الذخيرة لا يزيد على عشرين طلقة لكل مقاتل. . ولكن التلاميذ السابقين بين الجنود هبوا للدفاع والاستبسال حتى الموت، مشحونين بالبيانات الحماسية التي كان اركاديو يبثها في صدورهم. . . وفي غمار هذا الوطيس الحامي افلح الكولونيل ستفنسون المزعوم في الاتصال بأركاديو وقال له :

ـ لا تدعني أتحمل مذلة الموت في الحبس وأنا في ملابس النساء هذه. . . ان كان لا بد لي من الموت، فدعني أموت مقاتلاً. . .

واستطاع اقناع أركاديو الذي أمر بإعطائه سلاحاً وعشرين طلقة، ومضى مع خمسة رجال للدفاع عن مقر القيادة، بينما انطلق أركاديو على رأس أركان حربه للإشراف على المقاومة . . .

ولم يتقدم بعيداً . . . فقد تحطمت الاستحكامات ، وأصبح

المـدافعون يقـاتلون مكشـوفين في الشـوارع حتى نفـدت ذخيـرتهم وغـدو يشتبكون بالايدي . . ومع اقتراب الهزيمة خرجت بعض النساء الى الشوارع مسلحات بالعصي وسكاكين المطابخ . . وفي غمرة الفـوضى عثر أركـاديو على أمارانتا التي كانت تبحث عنه كمجنـونة وهي في جلبـاب نومهـا ومعها طبنجتان قديمتان مملوكتان لجوزيه أركـاديو بـوينديـا . . . فأعـطى أركاديـو بندقيته لضابط فقد سلاحه وتسلل مع أمارانتا من شارع قريب لإعادتهـا الى البيت . . وكانت أورسولا لدى الباب تنتظر ، غير عابئة بطلقات المدفع التي أحدثت ثغرة في واجهة البيت المجاور . . وترك أركاديو أمارانتا مع أورسولا وحاول مواجهة جنديين فتحا نيرانا ثقيلة لدى النـاصية . . . لكن الـطبنجتين العتيقتين لـم تعملا . . . وفي هذه اللحظة عمدت أورسولا الى حماية أركاديو بجسدها محاولة جذبه الى ناحية المنزل صائحة :

ـ تعال معي ناشدتك الله ! . . يكفي ما كان من جنون ! . .

فصاح أحد الجنديين بدوره :

ـ دعي هذا الرجل يا سيدة ، والا فلن نكون مسؤولين! . . .

فدفع أركاديو أورسولا في اتجاه البيت واستسلم. . وبعد فترة قصيـرة توقف اطلاق النـار ، وبدأت الاجـراس تدق. . . فقـد أبيدت المقـاومة عن آخرها في أقل من نصف ساعة . . ولـم ينج رجل واحد من رجال أركاديو في هـذه المعـركـة ، ولكنهم قتلوا ثـلاثمـائـة من الجنـود المهـاجمين قبـل مصرعهم . . وكان المعقل الاخير الباقي هو الثكنات . . وقبل مهاجمته أطلق الكولونيل جريجوريو ستفنسون المزعوم سراح الأسرى وأمر رجاله بالخروج والقتـال في الشارع . . وقـد أعطت سـرعة الحـركة ودقـة التصـويب اللتـان استنفد بهما العشرين طلقة التي أعطيت له. . أعطت الانطباع بأن الثكنـات تحت دفاع قوي ، حتى عمل المهاجمون على نسفها بنيران المدافع . . ولقد

روع الضابط الذي قاد العملية اذ وجد أنقاض الثكنات خاوية الا من رجل واحد صريع في ملابسه الداخلية وما زالت يده المبتورة ممسكة ببندقية فارغة. . . وكان للرجل الصريع شعر امرأة معقود خلف الرقبة بمشط وحول عنقه سلسلة تدلت منها سمكة ذهبية صغيرة. . . وعندما أداره بطرف حذائه وسلط الضوء على وجهه، لم يتمالك أن هتف متحيراً :

ـ يا إلهي ! . . .

ولما اقترب منه الضباط الآخرون أضاف قائلاً :

ـ أنــظروا من وجـدنــا في هــذا القتيــل ! . . إنـه جــريجــوري ستفنسون ! . .

وعنـد الفجر، وبعـد محاكمـة عسكريـة قصيرة، أعـدم أركاديـو رميـاً بالرصاص عند حائط المدافن . . .

وعندما سئل قبيل تنفيذ الاعدام عن رغبته الاخيرة قال بصوت متموج النبرات :

ـ قـولـوا لـزوجتي أن تـسمي طفلتنـا بـاسم أورسـولا. . . أورســولا، جدتها. . . وقولوا لها أيضاً إن المولود الذي سيولد، إن جاء ذكراً ، فليسموه جوزيه أركاديو، لا اسم عمه، بل اسم جده ! . . .

الفصل السابع

انتهت الحرب في شهر مايو. . وقبل اسبوعين من البيان الرسمي الذي اذاعته الحكومة بلهجة طنانة والذي توعدت فيه بإنزال عقاب صارم لا رحمة فيه لأولئك الذين بدأوا التمرد، وقع الكولونيل اوريليانو بويندنيا اسيراً في الوقت الذي كان فيه موشكاً على الوصول الى الحدود الغربية متنكراً في شخصية طبيب ساحر هندي. . ومن بين الواحد والعشرين رجلا الذين خرجوا معه الى الحرب، لقي اربعة عشر حتفهم في القتال، وجرح ستة، ورافقه واحد فقط لحظة الهزيمة النهائية. . هو الكولونيل جيريلدو ماركيز. . وقد أذيع نبأ أسره في ماكوندو ببيان خاص. . وعندها قالت أورسولا لزوجها :

ـ إنه على قيد الحياة ! . . لنبتهل الى الله أن يجعل أعداءه يرأفون به ! . . .

وبعد ثلاثة أيام في بكاء متصل، سمعت وهي تصنع حلوى باللبن في المطبخ صوت ولدها يتردد واضحاً في سمعها. . فصرخت وهي تهرول الى زوجها تحت شجرة الكستناء لإبلاغه ما سمعت.

ـ هو صوت اوريليانو ! . . لا أعرف كيف حدثت هذه المعجزة، لكنه حي يرزق، وسنراه قريباً ! . .

لقد سلمت بما بدا لها أنها سمعته تسليماً. . وعكفت على كنس غرف البيت وتغيير وضع الأثاث. . وبعد أسبوع سرت شائعة من مصدر ما، دون ان يصاحبها أي بيان، كانت بمثابة تحقيق درامي لنبوءة اورسولا. . مؤداها ان الكولونيل اوريليانو بويندنيا قد حكم عليه بالإعدام وأن الحكم سوف ينفذ في

ماكوندو ليكون درساً للناس. . . وصباح يوم اثنين، بينما كانت امارانتا تلبس أوريليانو جوزيه الصغير «ابن اوريليانو وبيلار تيرنيرا» ملابسه، اذ سمعت اصوات مقدم جنود على البعد ودوي نفير عسكري، حين اندفعت اورسولا، الى الغرفة صائحة:

ـ انهم آتون به الآن !. .

وكان الجنود يجاهدون للتغلب على الجمهور المتدفق بكعوب بنادقهم. . فأسرعت اورسولا وأمارانتا الى الناحية تشقان طريقهما بين الناس، وإذا هما تبصرانه. . لقد بدا كمتسول. . كان ممزق الثياب، أشعث شعر الرأس واللحية، حافي القدمين. . وكان يمشي دون أن يشعر بتراب الارض الملتهب، مقيد اليدين خلف ظهره بحبل شده ضابط من الفرسان الى رأس جواده. . وعلى نفس الصورة من الرثاثة والهزيمة جاء الكولونيل جيريلدو ماركيز. . ولم يبد على الاثنين أي حزن. . وإنما كانا أكثر قلقاً من أجل الجمهور الذي كان يصرخ بكل ألوان السباب في وجوه الجنود. .

لم تتمالك اورسولا ان صاحت في خضم هذا الجمع الهادر:

ـ يا ولدي !!. .

وصفعت الجندي الذي حاول صدها. . وارتفع جواد الضابط على قائمتيه الخلفيتين. . وما لبث الكولونيل اوريليانو بوينديا أن توقف مشفقاً، متفادياً ذراعي أمه، وسلط نظرة صارمة على عينيها، قائلا:

ـ إرجعي الى البيت يا امي. . خذي إذناً من السلطات لزيارتي في السجن. . .

ونظر الى أمارانتا، وابتسم قائلا:

ـ ماذا حدث ليدك ؟. .

فرفعت أمارانتا يدها المعصوبة بالضمادة السوداء وأجابت :

ـ مجرد حرق . .

وعملت على إبعاد اورسولا لئلا تدوسها الخيل . . واستأنف الجنود سيرهم بعد أن احيط الاسيران بحرس خاص، متجهين الى السجن . .

وعند الغروب زارت أورسولا الكولونيل أوريليانو في السجن وم‌ معها لفافة بما أرادت أن تقدمه اليه . . وقد لقيت في الحصول على الإذن عناء شديداً بسبب حظر زيارة المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام، ولكن الضابط كان رفيقاً بها ومنحها ربع ساعة للزيارة بعد أن فحص اللفافة وكان بها ملابس نظيفة والحذاء الذي لبسه يوم زفافه والحلوى باللبن التي احتفظت بها له يوم أن جاءها هاتف بقرب عودته . . وقد وجدته في الزنزانة ممدداً على سرير صغير وقد دلى ذراعيه بسبب جروح تحت ابطيه . . وكانوا قد سمحوا له بحلاقة ذقنه . . وبدت عظام خديه بارزة بجانب شاربه الكثيف المفتول الطرفين . . ووجدته على علم بكل احوال الاسرة : انتحار بترو كريسبي، وأفعال اركاديو العدوانية التي انتهت بإعدامه، وبقاء أبيه «جوزيه اركاديو بويندیا » تحت شجرة الكستناء . . كما كان يعرف أن أمارانتا في ترملها العذري قد كرست نفسها لتربية أوريليانو ـ جوزيه الصغير «ابن اوريليانو من بيلار تيرنيرا » وأنه أبدى نجابة مكنته من تعلم القراءة والكتابة في نفس الوقت الذي بدأ فيه يتعلم الكلام . . ومنذ اللحظة التي دخلت فيها أورسولا الزنزانة طالعتها علائم النضج في ابنها، وهالة الأمر والسلطان التي كانت تشع منه . . وقد أدهشها علمه بكل احوال الاسرة، وفي هذا قال لها مداعباً مازحاً :

ـ كنت تعرفين دائما أنني ساحر أتنبأ بالاحداث ! . .

فتنهدت اورسولا قائلة :

ـ وماذا كنت تتوقع غير هذا . . ؟ الايام تمر . .

فقال اوريليانو مؤيداً :

- هذه هي سنة الحياة . .

وعلى هذا النحو مضت الزيارة التي طال انتظارها في حديث عادي غير الذي أعده كلاهما في ذهنه مسبقا . . وعندما أعلن الحارس انتهاء الزيارة نهضت أورسولا لكي تقبله مودعة ، وغمغمت قائلة :

- أحضرت لك مسدساً معي . .

ولما رأى الكولونيل أوريليانو بوينديا أن الحارس ساه عنهما قال لها بصوت خافت :

- لن يكون له أي فائدة . . لكن هاتيه لئلا يفتشوك وأنت خارجة .

فأخرجت اورسولا المسدس من مشدها ودسته تحت مرتبة السرير . . فقال لها بهدوء واعتداد :

- لا تقولي وداعا . . لا تستعطفي احدا ولا تنحني أمام انسان . . تصوري انهم اعدموني منذ مدة . .

فعضت اورسولا شفتها حتى لا تبكي . . وقالت قبل أن تستدير خارجة :

- ضع بعض أحجار ساخنة على تلك الجراح . .

ووقف الكولونيل اوريليانو بوينديا ينتظر ساهماً حتى أغلق الباب ، فاستلقى ثانية على السرير مدلي الذراعين . . وكان منذ صباه ، عندما بدأ يلابس تلك النذر السابقة التي تتجلى له كنوع من الإلهام ينبئه بما سيقع ، يتصور أن الموت عندما يحين حينه يقترن بإشارة مداهمة نقض لها ، لكن لم تبق الآن سوى ساعات على موته ولم تطالعه تلك الإشارة بعد . . نعم إنهم

عندما اصدروا الحكم بإعدامه سألوه أن يقول رغبته الأخيرة، ولحظتها لم يجد أدنى صعوبة في انتهاز ما هبط عليه من إلهام جعله يقول :

ـ أطلب أن يكون تنفيذ الحكم في بلدتي ماكوندو. . .

ولقد استاء رئيس المحكمة العسكرية من هذا الرد وقال له :

ـ دعك من هذا المكر يا بوينديا. . . هذه مجرد خدعة لكسب وقت أكثر. . .

فرد عليه الكولونيل قائلا :

ـ ان كنت لا تريد تحقيق هذا، فهو شأنك. . . لكن هذه هي رغبتي الأخيرة. .

ومنذ تلك الآونة هجره الإلهام وتراءى له أن الموت ربما لا تسبقه اشارة هذه المرة لأنه لا يعتمد على الحظ او المصادفة، بل هو منوط بمشيئة جلاديه. . .

وأمضى يومين على هذه الحال. . . وفي يوم الخميس تشاطر الحلوى باللبن مع حراسه، وارتدى الملابس النظيفة والحذاء اللامع. . . وحتى يوم الجمعة لم ينفذوا فيه الحكم بعد. . .

أما الواقع فهو انهم لم يجسروا على تنفيذ الحكم. . . فإن روح التمرد الفاشية في البلدة جعلت المسؤولين يرون أن اعدام الكولونيل أوريليانو بوينديا قد يجر نتائج سياسية خطيرة لا في ماكوندو فقط بل في كافة أرجاء إقليم المستنقعات. . وهكذا لجأوا الى استشارة السلطات العليا في عاصمة المقاطعة. . وفي يوم السبت ليلا قصد الكابتن روك كارنيرو المنوط بتنفيذ احكام الإعدام والملقب «بالجزار» قصد مع بعض زملائه الى حانة كاتارينو. . فلم تقبل سوى امرأة واحدة، وتحت التهديد، مصاحبته الى

غرفتها. . . وفي هذا اعترفت له قائلة :

ـ إن زميلاتي لا يرغبن في مصاحبة رجل يعرفن أنه سيموت. . ولا أحد يعرف كيف سيحدث هذا. لكن الجميع يقولون إن الضابط الذي سيطلق الرصاص على الكولونيل أوريليانو بوينديا سوف يقتل هو وكل أفراد فريق الرماة، دون مهرب، وعاجلا أو آجلا، حتى ولو اختفوا في أطراف الدنيا. . .

لقد نقل الكابتن روك كارنيرو هذا الكلام الى زملائه، فنقلوه بدورهم الى الرؤساء. . . فلما حل يوم الجمعة كانت البلدة كلها تعرف أن الضباط كانوا على استعداد للتوسل بكافة المعاذير لتفادي مسؤولية تنفيذ الإعدام. . . ثم جاء الامر الرسمي يوم الاثنين يقول : لا بد من تنفيذ الاعدام في خلال اربع وعشرين ساعة. . وفي تلك الليلة وضع الضباط سبع قصاصات ورق في «كاب»، وبان مصير الكابتن روك كارنيرو الانكد في القصاصة التي سحبت وبها إسمه، وإذا هو يقول بمرارة :

ـ ان الحظ المنحوس لا تنفذ منه ثغرة أمل. . . لقد ولدت «ابن حرام»، وسأموت «ابن حرام»!. . .

وعند الساعة الخامسة صباحا اختار فريق الرماة بالقرعة، وشكل الصف في الفناء، ثم ايقظ المحكوم عليه قائلا بلهجة الأمر :

ـ هيا بنا يا بوينديا. . . لقد جاءت «ساعتنا»!. .

فرد الكولونيل قائلا :

ـ هذا اذن تفسير الحلم. . . فقد رأيت في منامي أن جروحي تفجرت. . .

وفي نفس هذا الموعد كان أخوه جوزيه اركاديو قد استيقظ من نومه وشرب قهوته، ولم تلبث ربيكا التي كانت تراقب من نافذة غرفة النوم

الاستعدادات الاخيرة لتنفيذ حكم الإعدام ان تنهدت قائلة :

ـ إنهم آتون به للتنفيذ. . . كم هو جميل !. .

فنظر جوزيه اركاديو من النافذة ورأى أخاه وقد وقف بظهره الى الحائط ويداه في خاصرتيه بسبب جروح ابطيه. . وكان الكولونيل أوريليانو بويندیا يقول وقتها :

ـ يظل الانسان يكد ويجهد في حياته، ثم يأتي في النهاية ستة رجال ضعاف فيقتلونه دون أن يستطيع شيئاً !. .

وجعل يردد هذا الكلام في غضب واحتدام شديدين حتى تأثر الكابتن روك كارنيرو اذ ظنه يصلي ويبتهل. . وعندما سدد الرماة بنادقهم استحال الغضب الى مرارة عقدت لسانه وأطبقت عينيه. . واذ ذاك تلاشى في وعيه وضح الفجر ورأى نفسه مرة اخرى في بنطلونه القصير ووالده يقوده الى داخل خيمة الغجر عصر ذلك اليوم الصحو ليريه الثلج. . . وعندما سمع الصيحة الآمرة ظن أنها الأمر النهائي لفريق الرماة. . ففتح عينيه وقد سرت فيه رعدة فضول، متوقعا ان يرى وهج الرصاص المنطلق. . بيد أنه لم يبصر سوى الكابتن روك كارنيرو وقد رفع ذراعيه في الهواء، وجوزيه اركاديو يجتاز الشارع وبندقيته المرهوبة على أهبة الانطلاق. . وقال الضابط لجوزيه اركاديو :

ـ لا تطلق النار !. . إن العناية الالهية هي التي أرسلتك !. .

وعلى الأثر نشبت حرب اخرى. . فقد ارتحل الكابتن روك كارنيرو ورجاله الستة مع الكولونيل أوريليانو بويندیا لإطلاق سراح الجنرال فكتوريو مدينا الذي حكم عليه بالإعدام في بلدة ريوهاشا. . ولكن وعورة الطريق حالت دون وصولهم قبل فوات الاوان، اذ تم إعدام الجنرال فكتوريو مدينا فعلا. . . وعندها أعلن رجال الكولونيل أوريليانو بويندیا الذين تضاعفت

أعـداد‌هم بمن انضم اليهم من الليبـراليـين فـي المنـاطق التي مـروا بهـا ، أعلنوا الكـولونيـل أوريليـانـو بـوينـديـا قـائـداً للقـوات المتمـردة في اقليم الساحل الكـاريبي مع منحـه مرتبـة الجنرال . . فقبـل منهم المنصب ولم يقبـل اللقب، طـالمـا بقي المحـافـظون في الحكم. . وفي نهـايـة أشهـر ثـلاثـة نجحـوا في تسليح اكثـر من ألف رجـل، ولكنهم أبيـدوا عن آخرهم. . وأذاعت الحكومة بيانا تناقلته جميع مكاتب البريد بأن الكولونيـل أوريليانو بويندبا لقي مصرعـه. . ثم أذيعت بعد يـومين برقيـة اخرى تنبىء بقيـام تمرد جـديد في أقـاليم الجنوب. . . وفي ظـل هذا التضـارب نشأت وتضخمت أسطورة وجود الكولونيل أوريليانو بويندبا في كل مكان. . . ووقتها كان زعماء الليبراليين يفاوضون الحكومة للمشاركة في الكونجرس، فما كان منهم الا أن وصموه بالمغامر الذي لا يمثل الحزب. . ووضعته الحكـومة في قائمة قطاع الطرق، وجعلت ثمناً لرأسه خمسة آلاف بيزو. . وبعد سلسلة من الهزائم بلغ عددها ست عشرة، استولى الكولـونيل أوريليـانو بـوينديـا على ريوهاشا وجعل فيها مقر قيادته، معلناً الحرب ضد نظام الحكم القـائم. . . وكانت أول رسالة تلقاها من الحكومة هي التهديـد بإعـدام صديقـه الحميم الكولونيل جيريلدو ماركيز في غضون ثمان وأربعين ساعة اذا لم ينسحب مع قواته الى الحدود الشرقية. . فكان رده قاطعاً. . قال إنه يتوقع جعل مقر قيادته في ماكوندو في مدى ثلاثة أشهر، فإذا لم يجد الكولونيل جيريلدو ماركيز على قيد الحياة، فسـوف يعدم على الفـور جميع الضبـاط الأسرى لـديه، بـدءاً بالجنرالات، وسيأمر رجاله أن يفعلوا المثل الى نهاية الحرب. . وبعد ثلاثة اشهـر، عندمـا دخل مـاكـونـدو مـظفـراً، كـان أول عنـاق تلقـاه في طـريق المستنقعات خارج ماكوندو هو من ذراعي الكولونيل جيريلدو ماركيز. . .

وبوصوله بيت الأسرة وجده مليئاً بالأطفال. . فقد آوت اورسولا عندها «سانتا صوفيا بيدال» ارملة اركاديو مع طفلتها الكبرى وأخوين توأمين ولـدا

بعد خمسة اشهر من إعدام أبيهما اركاديو. . وخلافاً لرغبته الاخيرة سمت الطفلة باسم ريميديوس الجميلة، وفي هذا قالت : «أنا متأكدة أن هذا هو ما كان يقصده اركاديو، ولن نسميها أورسولا لأن الانسان يعاني كثيرا من التسمية». . وسمي التوأمان «جوزيه اركاديو الثاني» و «اوريليانو الثاني». . . وقد تولت أمارانتا تربيتهم جميعاً، ووضعت لهم كراسي خشبية صغيرة في غرفة المعيشة وأقامت شبه دار حضانة ضمت اليها أطفال الأسر المجاورة. . . وعندما عاد الكولونيل أوريليانو بوينديا وسط إطلاق الصواريخ المدوية والأجراس الرنانة، رحب بمقدمه «كورس» من الاطفال. . . وحياه ابنه «أوريليانو جوزيه»، وكان فارعاً مثل جده، تحية عسكرية. . .

ولم تكن الانباء كلها سارة. . . فبعد سنة من فرار الكولونيل أوريليانو بوينديا، انتقل أخوه جوزيه اركاديو مع ربيكا للإقامة في البيت الذي ابتناه اركاديو. . ولم يعرف احد بدور هذا الاخ في الحيلولة دون إعدام أوريليانو. . . وفي هذا المقر الجديد الذي غدا أشبه بدار للضيافة استأنفت ربيكا جلساتها مع صواحبها السابقات للاشتغال بالتطريز، وكان بينهن أربع من بنات دون أبولينار موسكوت اللائي ما زلن رهن العزوبة. . واستمر جوزيه اركاديو في الانتفاع بالاراضي التي اغتصبها والتي اعترفت حكومة المحافظين بمستندات ملكية لها. . وكان يرى عصر كل يوم راجعاً على ظهر جواده مع كلاب الصيد والبندقية المزدوجة وقد تدلى من سرج الجواد حصيلته من الأرانب التي صادها. . وذات يوم من سبتمبر لاحت فيه نذر عاصفة قريبة عاد الى البيت أبكر من المعتاد. . فحيا ربيكا في غرفة الطعام وربط الكلاب في الفناء، وعلق الارانب في المطبخ توطئة لتمليحها في ما بعد، ثم دلف الى غرفة النوم لتغيير ملابسه. . وقد روت ربيكا في ما بعد أنه عندما دخل زوجها الى غرفة النوم كانت هي في الحمام ولم تسمع أي شيء. . وكانت روايتها يصعب تصديقها. ولكن لم يكن ثمة رواية اخرى اقرب الى المعقول، ولم

يخطر ببال أحد أن يكون لديها أي دافع لقتل الرجل الذي جعلها سعيدة في حياتها. . ولعل ذلك كان اللغز الوحيد الغامض الذي لم يكشف النقاب عنه قط، في ماكوندو. . ذلك انه حالما أغلق جوزيه اركاديو باب غرفة النوم عليه، تردد في أرجاء البيت صوت عيار ناري من طبنجة. . وسال خيط من الدم اخترق كثيرا من الغرف والردهات حتى انتهى الى المطبخ في بيت الاسرة الكبير، حيث كانت أورسولا تستعد لصنع كعك بالبيض. . فلم تتمالك أن صرخت :

ـ رحماك يا ربي ! . .

وهرعت تتبع خيط الدم حتى انتهى بها الى بيت جوزيه اركاديو الذي لم تدخله من قبل، ثم الى غرفة النوم التي دفعت بابها وكادت تختنق برائحة بارود محترق، وعثرت على ابنها البكر منبطحاً على الأرض على وجهه فوق «التزلك» الذي كان قد خلعه، وعنده كانت بداية خيط الدم المترامي الذي كان قد توقف مسيله من الأذن. . هذا، ولم يعثروا على أي جرح في جسده، ولا على أي سلاح بقربه. . كما لم يستطيعوا إزالة أثر رائحة البارود من الجثة رغم المحاولات التي بذلت بالماء والصابون والخل وما اليها. . وعندما بدا لهم ان يضعوا الجثة في ماء مغلي لإزالة رائحة البارود، بدأت تتحلل، ولم يكن بد من دفنها على وجه السرعة. . فجاءوا له بتابوت طوله سبع أقدام ونصف، وعرضه أربع ، ودعموه من الداخل بأطواق من الفولاذ، وعلى الرغم من هذا فإن الرائحة كانت بادية في الشارع الذي سار فيه موكب الجنازة. . ومع أنهم في الشهور التالية دعموا القبر بحوائط من حوله تخللها ر. ـ مضغوط ونشارة الخشب والجير، الا أن المقبرة ظلت لسنوات عديدة تفوح منها رائحة البارود، الى أن جاء مهندسو شركة انتاج الموز التي أنشئت بعد ذلك وكسوا القبر بطبقة من الاسمنت المسلح . .

وأما ربيكا فقد أغلقت أبواب بيتها و«دفنت» نفسها فيه حية، مسربلة

، حجاب كثيف من الإعراض عن الدنيا واحتقارها لا تستطيع أية مغريات أرضية ان تنفذ منه أو تقوضه. . . وآخر مرة رآها الناس على قيد الحياة كانت عندما اطلقت النار على لص حاول اقتحام باب البيت . . وفي ما عدا خادمتها المقربة لم يعد لأي انسان أدنى اتصال بها بعد ذلك حتى كهولتها ومماتها . . ونسيت البلدة كلها أمرها . .

وعلى الرغم من عودة الكولونيل اوريليانو بوينديا المظفرة، فإنه لم يكن متحمساً لمجريات الامور. . لقد أخلت القوات الحكومية مواقعها دون مقاومة مما أثار إحساساً وهمياً بالانتصار بين السكان الليبراليين لم يكن يجمل تبديده. . لكن المتمردين منهم كانوا يعرفون الحقيقة، وكان الكولونيل أوريليانو بوينديا اكثرهم معرفة بها. . ومع أنه كان لديه في ذلك الحين خمسة آلاف رجل تحت إمرته وأصبح مسيطرا على ولايتين ساحليتين، الا أنه كان يشعر بأنه يساق في اتجاه البحر حيث يغدو في موقف عسير. . وبحثاً عن منفذ للإفلات من هذا الموقف، كان يمضي ساعات بأكملها في مكتب التلغراف للتشاور مع قادة البلدان الاخرى، وفي كل مرة كان يخرج بانطباع قوي هو أن حربهم خاسرة لا محالة. . وكان يشكو لضباطه قائلا :

ـ إننا نضيع الوقت، بينما الانذال من اعضاء الحزب الليبرالي يستجدون مقاعد لهم في الكونجرس ! . .

وفي احدى ليالي البلبلة التي كانت تعتريه وهو مستلق في أرجوحته يفكر في منفذ للخلاص من هذا المأزق، طلب من بيلار تيرنيرا التي كانت تغني مع الجنود في الفناء ان تقرأ له المستقبل في الورق الطالع. . فكان كل ما قالته بعد تقليب الورق ثلاث مرات هو :

ـ خل بالك من فمك ! . . أنا لا اعرف ما معنى هذا، لكن الإشارة واضحة جدا. . خل بالك من فمك ! . .

وبعد يومين أعطى احدهم ابريق قهوة لجندي مراسلة، أعطاه هذا بدوره لآخر، وظل ينتقل من يد الى يد حتى وصل الإبريق الى مكتب الكولونيل أوريليانو بويندیا. . . ولم يكن قد طلب قهوة، ولكن ما دامت قد جاءت فقد شربها الكولونيل. . كان بهما جرعة من سم زعاف تكفي لقتل جواد. . وعندما حملوه الى البيت كان متصلباً ومقوساً وقد برز لسانه بين أسنانه. .

لقد راحت اورسولا تصارع الموت لإنقاذه. . وبعد تفريغ معدته بالمقيئات لفته باغطية ساخنة وأطعمته بياض البيض يومين كاملين الى أن استعاد جسمه المضعضع حرارته العادية. . وفي اليوم الرابع خرج من مرحلة الخطر. . واضطر تحت ضغط أورسولا وضباطه الى ملازمة الفراش اسبوعاً آخر. . وفي فترات الصفاء الذهني التي كان يفكر فيها في الحال والمآل، قال ذات ليلة لصديقه القديم الكولونيل جيريلدو ماركيز :

ـ قل لي يا صديقي الحميم. . لماذا تحارب ؟. .

فأجاب الكولونيل جيريلدو ماركيز :

ـ ولأي سبب آخر غير الرغبة في انتصار الحزب الليبرالي ؟. .

فقال الكولونيل أوريليانو بويندیا :

ـ أنت محظوظ، لأنك تعرف سبب ما تحارب من أجله. . أما في ما يختص بي شخصياً، فقد تأكدت الان فقط انني احارب من اجل كبريائي وكرامتي. .

ـ هذا شيء سيء. .

فبدا الكولونيل اوريليانو بويندیا متفكها من انزعاج صاحبه، وقال :

ـ لك حق. . لكن على أي حال، فهذا افضل من الا تعرف لماذا تحارب؟. .

ثم تفرس في عينيه وأضاف بابتسامة :

ـ أو أفضل من المحاربة، كما تفعل انت، من أجل شيء ليس له أي معنى عند أي احد ! . .

والواقع ان كبرياءه هي التي منعته من الاتصال مع الجماعات المسلحة في داخلية البلاد الى أن يصحح زعماء الحزب الليبرالي علانية تصريحهم بأنه من قطاع الطرق. . ومهما يكن فقد كان يعرف انه ما إن يطرح جانباً هواجسه تلك، فسيكون بوسعه أن يضرب ضربته المؤثرة في تطورات الحرب. . وبعد طول تفكير وتدبر أثناء فترة النقاهة، استطاع حمل اورسولا على أن تعطيه ما بقي من ميراثها الذهبي المخبوء وكذلك مدخراتها الكبيرة. . وأخيراً عين الكولونيل جيريلدو ماركيز قائداً عسكرياً ومدنياً في ماكوندو، وانطلق بقواته للاتصال بجماعات المتمردين في داخلية البلاد. .

وفي خلال ذلك كان الكولونيل اوريليانو بوينديا يقتطع من وقته جزءاً لإرسال تقارير مفصلة الى ماكوندو عن تطورات الحرب كل أسبوعين. . بيد أنه لم يكتب سوى مرة واحدة، وبعد ثمانية أشهر من رحيله مع قواته، جاء رسول خاص الى بيت الأسرة يحمل مظروفاً مغلقاً بالشمع وبداخله ورقة بخط الكولونيل قال فيها : «اعتنوا جدا بأبي، لأنه سيموت». . فانزعجت أورسولا قائلة : «إذا كان اوريليانو يقول هذا فذلك لأن اوريليانو يتنبأ ويعرف ! . . » وطلبت من أهل البيت مساعدتها في نقل «جوزيه اركاديو بوينديا» الى غرفة نومه في الداخل. . وكان قد زاد امتلاء تحت شجرة الكستناء طوال تلك الاعوام حتى عجز سبعة رجال عن رفعه من مكانه واضطروا الى جره جرا. . وفي اليوم التالي لم يكن في فراشه. واذا كان قد عاد الى شجرة الكستناء فذلك بحكم عادة الجسد. . ولكنهم اعادوه مرة اخرى الى غرفته. . . وكانت اورسولا تطعمه وتبلغه اخبار اوريليانو. . وبعد انقضاء اسبوعين دخلوا عليه وهزوه بشدة وصرخوا في أذنه ووضعوا مرآة أمام

خياشيمه، بيد أنهم لم يستطيعوا ايقاظه. . وبينما كان النجار يأخذ مقاسات التابوت، رأوا من خلال النافذة مطراً خفيفاً من زهور صفراء صغيرة يتساقط. . وظلت تسقط على البلدة طوال الليل في عاصفة ساكنة حتى غطت الاسقف وسدت الابواب وخنقت انفاس الحيوانات التي كانت تبيت في الخارج. . بلغ من كثرة الزهور التي تساقطت انها غطت الشوارع ببساط سميك حتى اضطروا الى جرفها لكي يمكن أن يسير موكب الجنازة. .

الفصل الثامن

جعلت امارانتا تراقب من مقعدها الهزاز اثناء فترة الراحة من التطريز، أوريليانو ـ جوزيه وهو يكسو ذقنه برغوة الصابون توطئة لحلاقتها لأول مرة . . فمـا كان منـه إلا أن ادنى شفته العليـا وهو يحـاول تنميق الشـارب الصغيـر الاشقر، ولم تتمالك امارانتا ان شعرت بأنها بدأت تشيخ منذ تلك الاونة . . وقالت له :

ـ إنك تشبه أباك أوريليانو عندما كان في سنك . . انت الآن رجل . . .

والواقع انه كان يافعاً منذ اليوم الذي عهدت به أمه بيـلار تيرنيـرا الى أمارانتا لتربيته . . كان اول الامر يزحف الى فراش امارانتا لينـام الى جانبهـا خوفاً من وحدة الطفولة . . ثم تطور هذا الى مشاعر غريبة بدأت تلابسه في مدارج العمر الى ان تحولت الى افتتان، مما جعلها تصده بعد ان فاجأتهما أورسولا ذات يوم في «الكـوار» وهما يتبـادلان القبلات، ولكنهـا قالت لـه ببراءة : «هل تحب عمتك الى هذا الحد ؟ » . . وعندما رد بالايجاب قالت له : «هذا شيء طيب » . . وتركتهما بعد أن اخذت الدقيق الذي جاءت في طلبه . . منذ تلك الآونة أفاق كلاهما من غمرة الحمى التي انتابتـه، وانتقل أوريليانو ـ جوزيه للإقامة في الثكنات اذ كان في فترة التدريب العسكري . . .

وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأت تتوارد أنباء متناقضة عن سير الحرب . . ففي حين اعترفت الحكومة ذاتها بتقدم حركة التمرد تلقى الضباط الموجودون في ماكوندو أنباء خاصة عن مفاوضات للصلح وقرب عقد هدنة . . وحـوالى اول ابريل جاء رسول خاص الى الكولونيل جيريلدو ماركيز وأكد له ان زعماء

الحزب الليبرالي قد اتصلوا فعلا بقادة التمرد في داخلية البلاد وأنهم بسبيل عقد هدنة في مقابل الحصول على ثلاثة مقاعد وزارية لليبراليين مع تمثيل محدود في الكونجرس، وعفو عام عن المتمردين الذين يضعون اسلحتهم . . وقد نقل الرسول امرا سريا من الكولونيل اورليانو بوينديا الذي لم يقبل شروط الهدنة مؤداه ان يختار الكولونيل جيريلدو ماركيز خمسة من أفضل رجاله ويستعد لمغادرة البلاد معهم . . وقبل اعلان الاتفاق بأسبوع، وفي إبان عاصفة من الشائعات المتناقضة، وصل الكولونيل اورليانو بوينديا الى ماكوندو سراً بعد منتصف الليل مع عشرة من ضباطه الموثوق بهم وفي عدادهم الكولونيل روك كارنيرو وصرفوا الحامية ودفنوا اسلحتهم ودمروا سجلاتهم . . وما ان اقبل الفجر حتى ارتحلوا عن البلدة، يرافقهم الكولونيل جيريلدو ماركيز وضباطه الخمسة المختارون . . ولقد بلغ من تكتم هذه العملية أن أورسولا لم تعلم بها إلا في اليوم التالي . . كما اكتشفت أن أورليانو ـ جوزيه قد ارتحل مع أبيه . .

وبعد عشرة ايام صدر بلاغ مشترك من الحكومة والمعارضة يعلن انتهاء الحرب، مقترنا بنبأ حركة التمرد الاولى من جانب الكولونيل أورليانو بوينديا عند الحدود الغربية . . ولم تحتمل قوته الصغيرة المحدودة التسليح اكثر من اسبوع لتفريقها . . ولكن في خلال تلك السنة، بينما كان الليبراليون والمحافظون يحاولون اقناع البلاد بالمصالحة الوطنية، قام الكولونيل أورليانو بوينديا بسبع محاولات أخرى للتمرد . . وفي احدى المناسبات اقترب من ماكوندو الى أقل من خمسة عشر ميلا، ثم اضطر الى الاختفاء في الجبال تحت ضغط الدوريات الحكومية . .

وانقطعت اخباره عن أورسولا مدى سنوات، تردد فيها أنه كف عن مناوأة حكومة بلاده، وانضم الى حركة الفيديراليين في الجمهوريات الأخرى بهدف توحيد الحركات الفيدرالية في امريكا الوسطى سعياً للقضاء على

أنظمة حكم المحافظين من الاسكا في الشمال الى بتاجونيا في الجنوب. . وكانت اول رسالة تلقتها اورسولا منه بعد سنوات عديدة من ارتحاله مثنية وباهتة لتبادلها بين أيد متعددة، حتى لم تتمالك بعد أن علمت بمضمونها ان هتفت :

ـ لقد فقدناه الى الابد. . اذا واصل هذا الطريق فسوف يبقى مشرداً في أرجاء الدنيا الواسعة ! . .

كان الذي قالت له هذا الكلام، وهو أول شخص أطلعته على الرسالة، هو الجنرال راكيل موكادا عمدة ماكوندو المحافظ الذي عين في هذا المنصب منذ نهاية الحرب. . وقد رد عليها بقوله :

ـ من المؤسف ان اوريليانو هذا ليس من حزب المحافظين. .

والواقع ان هذا الرجل كان معجباً بأوريليانو رغم اختلاف انتماءاتهما. . . وكان شخصية دمثة استطاعت ان تكتسب قلوب أهل البلدة بعد أن طرح حزبيته جانبا وقام فيها بإصلاحات واسعة أدت الى ازدهارها. . وقد حدث ذات مرة عندما اضطرته المناورات الحربية الى التخلي عن احد المواقع الحصينة للكولونيل أوريليانو بويندیا أن ترك له رسالتين : تضمنت الاولى دعوة له الى مشاركته في القيام بحملة واسعة لجعل الحرب اكثر انسانية، وكانت الرسالة الثانية موجهة الى زوجته التي كانت باقية في منطقة تحت سيطرة الليبراليين، وشفعها برجاء منه لتوصيل الرسالة اليها. . ومنذ ذلك الحين درج القائدان العدوان، حتى في اشد مراحل الحرب ضراوة، على ترتيب هدنات لتبادل الاسرى. . وقد ادى ذلك الى توثيق عرى الصداقة بين الاثنين. . بل انهما فكرا في التنسيق بين المعطيات الأساسية للحزبين بهدف تجاوز تأثيرات السياسيين المحترفين والعسكريين واستخلاص نظام حكم إنساني يجمع أفضل ما في مبادىء كل من الفريقين. . .

وفي خلال ذلك كانت اورسولا رغم ضربات الزمن ترفض بعناد وإصرار الاستسلام للشيخوخة.. ومضت في توسيع صناعة الحلوى التي بدأتها منذ حين، واستطاعت بمساعدة سانتا صوفيا بيدال أرملة اركاديو، أن تجعل منها صناعة مزدهرة ضاعفت من مدخراتها.. وكان ذلك هو الموقف عندما هجر أوريليانو ـ جوزيه «ابن أوريليانو وتيرنيسرا» صفوف القوات الفيديرالية في نيكاراجوا وظهر أمام أورسولا في المطبخ قوياً كحصان، اسمر مرسل الشعر كالهنود، مصمماً بعزم على الزواج من أمارانتا..

وحالما رأته أمارانتا عرفت في الحال سبب قدومه، بيد أنها تحاشت الاجتماع به على انفراد.. غير أنه بعد شهرين من اعتكافها عنه، تسلل ليلا الى مخدعها، فصدته عنها قائلة :

ـ اخرج.. اخرج والا صرخت.. أنا عمتك!.. إنني كأمك، لا بسبب السن، ولكن لأنني ربيتك!..

وفي مناسبة اخرى قالت له بعد أن أرهقها بإلحاحه :

ـ انت وحش!.. لا يمكنك ان تتزوجني الا بتصريح خاص من روما..

ولما وعد أوريليانو ـ جوزيه ان يذهب الى روما ولو سعياً على ركبتيه خلال أوربا كلها لتقديم التماسه تحقيقاً لأمنيته المضطرمة، ردت عليه أمارانتا بقولها :

ـ ليس هذا فقط.. ان زواجاً كهذا سوف يثمر اطفالاً لهم ذيول خنازير..

بيد أنه صم أذنيه عن كافة الحجج، قائلا :

ـ لا يهمني حتى لو ولدوا خنازير كاملة!..

ولكن رفض أمارانتا كان قاطعا . .

وبعد شهرين من عودة اوريليانو ـ جوزيه، جاءت الى البيت الكبير امرأة وافرة النمو والقوة معطرة بالياسمين ومعها طفل في الخامسة من عمره وقالت إنه ابن الكولونيل أوريليانو بويندبا وأنها جاءت به الى أورسولا لتتولى تعميده . . ولم يشك احد لحظة في منبته، اذ كان صورة مطابقة للكولونيل وهو في طفولته . . وقد عمدوه باسم أوريليانو، مشفوعا بلقب امه، نظرا لان القانون لا يسمح بحمل اسم الاب الا بعد اعترافه بأبوته للإبن . .

كانت أورسولا في ذلك العهد لم تسمع بالعادة السارية وهي إرسال العذارى الى مخادع مشاهير القادة لإنجاب ذرية ممتازة . . ولكنها لم تلبث في خلال هذا العام أن سمعت وعرفت . . وفي أقل من اثنتي عشرة سنة تولت التعميد، باسم أوريليانو ولقب الام، لكافة الابناء الذين انجبهم الكولونيل أوريليانو بويندبا في مختلف ميادين الحروب التي خاضها ، وعددهم سبعة عشر . . وأول الامر كانت أورسولا تملأ جيوب هؤلاء الصغار بالنقود وتحاول أمارانتا استبقاءهم لتربيتهم . . ولكنهم كانوا ينصرفون تباعا مع مهاتهم، اكتفاء بالتعميد وما نالوا من نقود . . وكانت أورسولا تدون اسماء الابناء وعناوين الامهات في سجل خاص اعدته لهذا الغرض، قائلة :

ـ ان أوريليانو في حاجة الى وثائق منظمة حتى يمكنه أن يبت في الامور عندما يعود الينا . .

وفي هذا قالت يوما للعمدة موكادا اثناء دعوة للغداء وهي تعقب على هذا الخصب الفريد انها تتمنى ان يعود الكولونيل أوريليانو بويندبا يوما ما لكي يجمع كل هؤلاء الأبناء في البيت الكبير . . فرد عليها العمدة قائلاً بأسلوب غامض :

ـ لا تقلقي يا صديقتي العزيزة . . إنه سيعود بأسرع مما تتصورين . .

ان ما كان الجنرال موكادا يعرفه ولم يكن يرغب في اماطة اللثـام عنه على مائدة الغداء، هو أن الكولونيل اوريليانو بويـنـديا كـان فعلا في طـريقه للقيـام بأطـول وأعنف حركـة في سلسلة حركـات التمرد التي قـام بها حتى الان . .

لقد عاد الموقف الى التأزم مثلما كان اثناء الشهور التي سبقت الحرب الاولى . . وتولى الكابتن اكويل ريكاردو قائد الحاميـة في ماكـوندو تـدريب قوات الاحتياط . . وكـان الليبراليـون يعدونـه رجلا استفـزازيا، حتى قـالت اورسولا تحذر أوريليانو ـ جوزيه منه :

ـ سوف تقع هنا احداث رهيبة . . نصيحتي لك ألا تخرج الى الشارع بعد الساعة السادسة . .

بيد أن نصائحها ذهبت ادراج الرياح، اذ كان أوريليانو ـ جوزيه، مثل اركاديو من قبل، قد شق عصا الطاعة عليها، ودفعه ياسه من حب أمارانتا الى التمرد على كل شيء . . وبعكس اركاديو الذي لم يعرف قط أبويه، اكتشف هو أنه ابن بيلار تيرنيرا، تلك التي اعدت له ارجوحـة في بيتها لكي يقضي ساعة القيلولة كل يوم . . وكما فعلت أورسولا من قبل قالت له بيلار ناصحة :

ـ لاتخرج هذه الليلة . . ابق معي واقض ليلتك هنا . . ان صـديقتك كارميليتا مونتيل تعبت من كثرة ما سألتني ان ادعها تقابلك عندي . .

فلم يعد أن قال لها :

ـ قولي لها أن تنتظرني عند منتصف الليل . . .

وذهب الى المسرح لمشاهدة مسرحية «خنجر الثعلب» ولم يعرف الا بعد أن قدم تذكرة الدخول ان الكابتن اكويل ريكاردو كان يقوم مع اثنين من الجنود المسلحين بتفتيش رواد المسرح، فقال له أوريليانو ـ جوزيه محذرا :

ـ احذر يا كابتن . . لم يولد بعد الرجل الذي يمكنه ان يضع يده عليّ . .

فحاول الكابتن تفتيشه بالقوة، واذ لم يكن أوريليانو ـ جوزيه مسلحا فقد لجأ الى الفرار . . وقد عصى الجنديان الامر بإطلاق النار عليه، حتى قال احدهما :

ـ إنه من أسرة بويندبا . .

فما كان من الضابط الذي اعماه الغضب الا أن انتزع منه البندقية وخرج الى وسط الشارع وسدد البندقية صائحا :

ـ يا جبناء ! . . ليته كان الكولونيل أوريليانو بويندبا ! . .

كانت كارميليتا مونتيل بنت العشرين قد أتمت زينتها وتعطرها في بيت بيلار تيرنيرا عندما دوى صوت العيار الناري . . لقد تنبأت بيلار تيرنيرا ذات مرة بعد قراءة الطالع أن أوريليانو ـ جوزيه سوف يجد عند كارميليتا السعادة التي ضنت بها عليه أمارانتا، وأنه سوف يرزق منها بسبعة ابناء، وأنه سوف يموت بين ذراعيها ميتة الشيخوخة . . لكن الرصاصة التي دخلت ظهره وحطمت صدره قد ضلت طريقها بتأويل خاطىء لأوراق الطالع . . وأما الكابتن اكويل ريكاردو الذي كان مقدراً له أن يموت حقا في تلك الليلة، فقد مات فعلا، قبل أن يلفظ أوريليانو ـ جوزيه انفاسه الاخيرة. فحالما دوى العيار الناري الذي صرع الشاب، خر الضابط صريعا برصاصتين في لحظة واحدة لم يعرف أبداً مصدرهما، ودوت في سكون الليل صيحة من أفواه عديدة :

ـ يحيا الحزب الليبرالي ! . . يحيا الكولونيل أوريليانو بويندبا ! . .

وعند منتصف الليل، بعد أن فاضت روح أوريليانو ـ جوزيه، تقاطر اكثر

من اربعمـائة شخص أمـام المسرح وأفـرغوا مسـدساتهم في جسـد الكابتن اكويل ريكاردو الطريح في الشارع.. واضطرت احدى الدوريات الى نقـل جثمانه فوق عربة يد لشدة ثقلها بما استقر فيها من رصاص..

وبحلول شهر سبتمبر كانت الانباء متضاربة.. فبينمـا اعلنت حكومـة المحافظين أنها وطدت سلطاتها في كافة ارجاء البلاد، كانت الانباء السريـة تتوارد على الليبراليين عن قيـام حركـات تمرد مسلحـة في الداخـل.. ولـم تعترف الحكومة بقيام حالة الحرب الا بعد صدور مرسوم بهذا اعقبـه اجراء محاكمة عسكرية صدر فيها الحكم بإعدام الكولونيل أوريليانو بوينديا غيبيا.. وصـدر الأمر بـأن أول وحدة عسكـرية تتمكن من أسـره عليها تنفيـذ الحكم فوراً.. وفي هذا قالت أورسولا للجنرال موكادا بلهجة الفرح :

- يعني هذا أنه عاد !..

والواقع ان الكولونيل أوريليانو بوينديا قد عاد الى البلاد منذ اكثـر من شهر.. ولـم يسلم الجنرال موكادا بعودته الى بعد أن أعلن رسميا انه استولى على ولايتين على الساحل.. وفي هذا قال لأورسولا وهو يريها البرقية التي تلقاها :

- تهاني يا صديقتي العزيزة.. قريبا سيكون عندك !..

ولأول مرة شعرت أورسولا بالقلق، وقالت :

- وما الذي ستفعله ؟..

إن الجنرال موكادا سأل نفسه هذا السؤال عديد المرات، وما لبث ان رد عليها قائلا :

- نفس ما سوف يفعله هو.. يا صديقتي.. سأقوم بواجبي..

وفي فجر اليوم الاول من شهر اكتوبر هاجم الكولونيل اوريليانو بوينديا

ماكوندو بألف رجل مسلحين تسليحا قويا، وتلقت الحامية أوامر بأن تقاوم حتى النهاية. . وعند الظهر، بينما كان الجنرال موكادا يتناول طعام الغداء مع أورسولا ، انطلق مدفع للمتمردين دوى صداه في البلدة كلها ونسف الواجهة الامامية لدار الخزانة نسفا . . فتنهد الجنرال موكادا قائلا :

ـ إنهم مسلحون تسليحا جيدا مثلنا . . لكن الى جانب هذا فإنهم يحاربون لأنهم يريدون الحرب . .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر والأرض ترتج ارتجاجاً بنيران المدفعية من الجانبين ، استأذن من أورسولا وهو على يقين من أنه يقاتل في معركة خاسرة . . وقال لها :

ـ أدعو الله ألا يجيئك أوريليانو في البيت هذه الليلة . . . فإذا حدث هذا فلتقبليه عني ، لأنني لا أتوقع أن ألتقي به أبداً مرة أخرى . . .

وفي تلك الليلة وقع أسيراً أثناء محاولته للفرار من ماكوندو بعد أن كتب رسالة للكولونيل أوريليانو بوينديا ذكره فيها بهدفهما المشترك لجعل الحرب انسانية ، وتمنى له الانتصار على فساد دعاة الحرب ومطامع السياسيين في كلا الحزبين . . . وفي اليوم التالي تناول الكولونيل أوريليانو بوينديا الغداء معه في بيت أورسولا حيث جرى احتجازه إلى أن تبت محكمة عسكرية في مصيره . . . وكان في الحق اجتماعا وديا . . . ولكن في الوقت الذي نسي فيه الغريمان الحرب لتذكر أحداث الماضي ، احست أورسولا بالوجوم لما طالعها من تبدل أطوار ولدها واتجاهاته العدوانية . . . لقد شعرت بهذا منذ أن شاهدته يدخل مصحوبا بحاشية عسكرية كبيرة عمدت إلى تفتيش غرف النوم وقلبها رأسا على عقب حتى اطمأنوا إلى عدم وجود أي خطر . . ولم يتقبل الكولونيل أوريليانو بوينديا هذا فقط ، بل إنه أصدر أوامر مشددة بعدم السماح لأحد بالاقتراب إلى أكثر من عشر أقدام حتى أورسولا ذاتها ، في

حين راح أفراد حرسه الخاص يكملون وضع الحراس حول البيت . . . وكان يرتدي كسوة عسكرية عادية بغير أية شارات ، وحذاء مرتفعاً بمهماز لطخه الطين والدم الجاف ، وتمنطق بحزام تدلى منه حامل مسدس مفتوح اللسان ، وكشفت يده التي كانت دائماً على مقبض المسدس مدى اليقظة والتحفز اللذين شفت عنهما نظراته . . حتى لم تتمالك أورسولا أن قالت لنفسها حين لمحت كل هذا وأكثر منه :

ـ رحماك يا ربي ! . . إنه يبدو الآن رجلا لا يتردد عن شيء ! . . .

وحالما تم تنفيذ الأمر بدفن الموتى في قبر جماعي ، عهد إلى الكولونيل روك كارنيرو بمهمة تشكيل محكمة عسكرية ، وانهمك هو على الأثر في مهمة شاقة ، هي فرض اصلاحات راديكالية لا تدع حجرا في نظام حكم المحافظين في مكانه . . . وقال لمساعديه في هذا الصدد :

ـ علينا أن نسبق السياسيين في الحرب . . . فعندما يفتحون أعينهم على الواقع سوف يجدون أمامهم حقائق قائمة . . .

وكان من قراراته مراجعة عقود تملك الأراضي التي يرجع تاريخها إلى مائة سنة ، فاكتشف المظالم الصارخة التي ألبسها أخوه جوزيه أركاديو ثوب القانون ، وسرعان ما ألغى تسجيلاتها بجرة قلم . . . ولكي يقوم بلفتة ودية ترك مهامه ساعة من زمن وزار أرملته ربيكا ليطلعها على نواياه . . .

والحق أنه وجد هذه الأرملة التي كانت موضع سره في غرامياته المكبوحة والتي كان لها الفضل في انقاذه من كثير من المآزق وهي في عزلتها في ظلال بيتها أقرب إلى شبح من أشباح الماضي . . . . وقد بدأ ينصحها أن تخفف من صرامة أحزانها ، وأن تدع الهواء يتجدد في المنزل ، وأن تغفر للدنيا ما نالها من قتل جوزيه أركاديو . . . بيد أن ربيكا كانت بمنأى عن هذا كله ، وقبعت في مقعدها الهزاز تنظر إليه وكأنه هو ذلك الشبح من أشباح

الماضي . . . بل إنها لم تنزعج بالنبأ الذي ساقه إليها عن الأراضي التي إغتصبها جوزيه أركاديو وقرب أعادتها إلى ملاكها الشرعيين ، وإنما تنهدت قائلة :

ـ إن كل ما تقرره يا أوريليانو سيكون أمراً نافذاً . . . كان رأيي فيك دائماً ، وقد لمسته الآن بالدليل ، إنك شخص مرتد عن كل معتقد كان لك! . .

وقد تمت مراجعة وتعديل عقود التمليك في نفس الوقت الذي انعقدت فيه المحكمة العسكرية برئاسة الكولونيل جيريلدو ماركيز ، وانتهت بإعدام كل الضباط الذين أسرتهم قوات المتمردين . . . وكان آخر من حوكم هو الجنرال راكيل موكادا . . . وقد بادرت أورسولا بالتوسط من أجله ، وفي هذا قالت للكولونيل أوريليانو بوينديا :

ـ إن حكمه كان من أفضل ما رأينا في ماكوندو . . . ولن أحدثك عن طيبة قلبه ، وعن مودته لنا ، لأنك تعرف هذا اكثر من أي أحد آخر . .

فما كان من الكولونيل أوريليانو بوينديا إلا أن نظر إليها مستنكراً ، ورد عليها قائلاً :

ـ لا يمكنني أن آخذ على عاتقي مهمة تصريف العدالة . . . إن كان عندك ما تقولينه ، فقوليه للمحكمة العسكرية . . .

وفي الحق أن أورسولا لم تفعل هذا فقط ، بل انها جمعت كل أمهات الضباط المتمردين المقيمات في ماكوندو للشهادة . . . فأقبلن كلهن واحدة واحدة ، وبينهن كثيرات ممن اشتركن في تأسيس البلدة غبر الجبال والمستنقعات ، على أداء الشهادة وامتداح فضائل الجترال موكادا ، وكانت آخرهن أورسولا . . . وقد أدت حرارة دفاعها وقوة اقناعها وما تهيأ لها من مهابة واعتبار بين الجميع ، إلى جعل ميزان العدالة يتأرجح فترة . . . إذ راحت تقول لهم :

ـ إنكم أخذتم هذه العملية مأخذ الجد الخطير ، وخيرا فعلتم لأنكم تقومون بواجبكم . . . لكن لا تنسوا أنه طالما أنعم الله علينا بالحياة فسوف نظل نحن أمهات ، ومهما كنتم ثوريين فإن لنا الحق في خلع بنطلوناتكم وتأديبكم بالعصا لأول بادرة عدم احترام لنا نحن أمهاتكم ! . . .

وقد انسحبت المحكمة للمداولة وما زالت هذه الكلمات تتردد في الأسماع . . . وعند منتصف الليل صدر الحكم بإعدام الجنرال موكادا . . . وقد رفض الكولونيل أوريليانو بوينديا تعديل الحكم على الرغم من مهاترات أورسولا . . . وقبل الفجر بقليل زار المحكوم عليه في زنزانة السجن ، وقال له :

ـ تذكر أيها الصديق القديم أنني لا أعدمك ، وإنما الثورة التي تعدمك . . .

لم يكلف الجنرال موكادا نفسه عناء النهوض من السرير الصغير عندما رآه داخلاً ، ورد عليه قائلاً :

ـ إذهب إلى جهنم يا صاحبي . . .

لم يكن الكولونيل أوريليانو بوينديا قد منح نفسه حتى هذه اللحظة فرصة لقاء الرجل قلبياً . . . وقد روعه الآن ما رآه من تقدمه فى السن ورعشة يديه وانتظاره للموت بالامتثال المأثور عمن في موقفه ، وإذا هو يشعر بتقزز بالغ من نفسه ، مشوب ببوادر الرثاء . . . ومهما يكن فإنه قال :

ـ أنت تعرف خيراً مني أن المحاكمات مهازل ، وأنك في الواقع تدفع ثمن جرائم غيرك ، ذلك لأننا مصممون هذه المرة على كسب الحرب بأي ثمن . . . أما كنت تفعل نفس الشيء وأنت في مكاني ؟ . .

نهض الجنرال موكادا لكي يمسح نظارته السميكة في ذيل قميصه ، ورد قائلاً ؟

ـ جائز . . . لكن ما يقلقني ليس هو إعدامك لي ، لأن هـذا بالنسبة لأناس مثلنا هو موت طبيعي . . .

ووضع نظارته على الفراش ونزع ساعته وسلسلته ، واستطرد يقول :

ـ إن مـا يقلقني هو أنه بعد كـل أحقادك علينـا ومحاربتنـا بكل هـذا العنف ، قد انتهيت إلى صيرورتك أسوأ منا . . . ولم يعد في الحيـاة شيء يوازي هذه الوضاعة . . .

ونزع خاتم زواجه وأيقونة العذراء ووضعهما بجانب النظارة والساعة ، ثم اختتم قائلا :

ـ وبهذا المعدل لن تكون فقط أشد دكتاتور طغياناً ودموية في تاريخنا ، بل سوف تعدم صديقتي أورسولا في محاولة تهدئة ضميرك . . .

وقف الكولونيل أوريليانو بويندیا مكانه جـامدا . . . ومـا لبث الجنرال موكادا أن أعطاه النظارة والايقونة والساعة والخاتم ، ثم غير نبراته قائلا :

ـ لكنني لم أبعث إليك لتأنيبك . . . إنما أردت أن أطلب منك معروفاً . . إن ترسل هذه الأشياء إلى زوجتي . . .

وضع الكولونيل أوريليانو بويندیا الأشياء في جيوبه قائلا :

ـ أهي لا تزال في بلدة مانور ؟ . . .

فأيده الجنرال موكادا قائلا :

ـ لا تزال في مانـور . . . في نفس البيت القائم خلف الكنيسة . . .

فقال الكولونيل أوريليانو بويندیا :

ـ يسرني أن أفعل هذا . . .

وعندما خرج الى الهواء المشبع بالضباب شعر بالرطوبة تلفح وجهه..
واستقبله فريق الرماة بالرصاص المصطفين تجاه الباب محيينه بتحية رئيس الدولة فأمرهم قائلا :

- ليخرجوا به الان..

الفصل التاسع

كان الكولونيل جيريلدو ماركيز هو أول من ادرك عقم هذه الحرب وخواءها.. وفي وضعه الاخير كقائد عسكري ومدني في ماكوندو، كان يتبادل الاتصال البرقي مرتين في الاسبوع مع الكولونيل اوريليانو بويندبا للاطلاع على آخر تطورات الاشتباكات والبت في اتجاهاتها المستقبلية.. وعلى الرغم من طول المحادثات البرقية بينهما، فقط لاحظ الكولونيل جيريلدو ماركيز في الآونة الاخيرة فتوراً غريباً في حماس الكولونيل أوريليانو بويندبا للخوض في تفاصيل المعارك الدائرة، حتى انتهى به الامر الى هذا الإحساس بعقم الحرب وخوائها، وأصبح ملاذه الاخير لقتل الوقت والتخلص من أثقال الوحدة هو قضاء فترات بعد الظهر عند امارانتا التي احبها حبا عميقا لم تقابله الا بالفتور المهذب، ورغم ذلك ظل يتابعها بزياراته اليومية على أمل ان يلين قلبها يوما ما..

ثم كانت المفاجأة بعد شهرين عندما ظهر الكولونيل أوريليانو بويندبا في ماكوندو على غير انتظار، تلك المفاجأة التي أذهلت صديقه الحميم وأذهلت حتى أورسولا، لما رأوه من تبدل أحواله.. فقد جاء هذه المرة بلا ضجيج، ولا حرس، ملتفاً بعباءة رغم شدة الحر، بصحبة ثلاث محظيات أسكنهن في نفس البيت، وأخذ يمضي معظم وقته ممدداً في أرجوحته.. وقلما كان يطلع على البرقيات التي كانت ترد عن العمليات العسكرية العادية..

وفي احدى المناسبات زاره الكولونيل جيريلدو ماركيز يسأله عن

تعليماته بصدد اخلاء موقع على الحدود حيث كان ثمة خطر من تحول الصراع الى مشكلة دولية، فكان الرد هو :

ـ تضايقني بالتفاهات . . سل السماء ! . . .

في ذلك الحين كانت الحرب تمر بمرحلة عصيبة . . فإن ملاك الاراضي الليبراليين الذين ساندوا الثورة في البداية قد تحالفوا سراً مع ملاك الأراضي المحافظين بهدف وقف عملية مراجعة وتعديل عقود الملكية . . وعمد السياسيون الذين كانوا يزودون الثورة بالأموال وهم في المنفى الى التبرؤ علانية من أهداف الكولونيل أوريليانو بوينديا المبالغة في الشدة والتطرف . . هكذا انتابه ضيق بالغ جعله ينصرف عن كل شيء ويخلد الى الاسترخاء واللامبالاة بعد أن بلغت الحرب مرحلة ركود شامل . . وقد ظل على هذه الحال الى ان جاءت لجنة من الحزب الليبرالى كانت مخولة لدراسة اسباب هذا الركود الذي انتهت اليه الحرب . . وفي مجلسه بين مستشاريه السياسيين راح يستمع في صمت الى مقترحات المبعوثين . . فطلبوا أولاً نبذ مراجعة وتعديل عقود الملكية عملا على استعادة تأييد ملاك الاراضي الليبراليين . . . وطلبوا ثانيا ان يتخلى عن محاربة النفوذ الاكليريكي لكي يحصلوا على تأييد الجماهير التي تدين بالمذهب الكاثوليكي . . ثم طلبوا اخيرا ان يعدل عن هدفه الخاص بالحقوق المتساوية للاطفال الشرعيين وغير الشرعيين حفاظاً على تماسك البيت . .

وهنا قال الكولونيل أوريليانو بوينديا باسماً بعد أن فرغوا من قراءة المطالب . .

ـ معنى هذا أن كل ما نحارب من أجله هو السلطة . .

فرد أحد اعضاء اللجنة قائلا :

ـ هذه مجرد تغييرات تكتيكية . . المسألة الاساسية في المرحلة الراهنة

هي توسيع القاعدة الشعبية للحرب.. وبعد ذلك سوف تكون لنا نظرة اخرى..

وعندئذ سارع احد مستشاري الكولونيل أوريليانو بوينديا الى التدخل، قائلا :

ـ هذه تناقصات، ومعناها أننا كنا نحارب مدى عشرين عاماً ضد مشاعر الامة !.. إن..

بيد أن الكولونيل أوريليانو بوينديا أوقفه عن الاسترسال بإشارة من يده، قائلا :

ـ لا تضيع وقتك يا دكتور.. الشيء المهم هو أننا منذ الآن فصاعداً، سنحارب من أجل السلطة فقط..

وتناول الوثائق التي جاء بها المبعوثون وتأهب للتوقيع عليها وما زال يبتسم، قائلاً :

ـ لما كان هذا هو الموقف، فلا اعتراض عندنا للقبول..

جعل رجاله يتبادلون النظر بعضهم الى بعض في جزع، وقال الكولونيل جيريلدو ماركيز بصوت خافت :

ـ معذرة يا كولونيل.. لكن هذا يعتبر خيانة !..

فرفع الكولونيل أوريليانو بوينديا القلم في الهواء، وأفرغ جماع سلطته عليه آمراً :

ـ سلم سلاحك !..

فنهض الكولونيل جيريلدو ماركيز ووضع سلاحه على المنضدة، بينما مضى الكولونيل أوريليانو بوينديا في أوامره قائلا :

ـ إرجع الى الثكنات، وضع نفسك تحت تصرف المحكمة الثورية . .

وما لبث ان وقع الوثائق وأعطاها الى المبعوثين قائلا :

ـ اليكم أوراقكم أيها السادة . . وأرجو أن تحصلوا منها على المزايا المطلوبة . .

وبعد يومين حوكم الكولونيل جيريلدو ماركيز بتهمة الخيانة العظمى وحكم عليه بالإعدام . .

وقد أعار الكولونيل أوريليانو بويندیا أذاناً صماء لكل طلبات الاسترحام التي قدمت اليه . . وفي ليلة التنفيذ خالفت أورسولا كافة الأوامر الصادرة بعدم إزعاجه، ودخلت عليه في مخدعه متشحة بالسواد بالغة الرصانة وابتدرته قائلة وهي واقفة طيلة الدقائق الثلاث التي حددت للمقابلة :

ـ أنا اعرف انك ستعدم جيريلدو، وليس في قدرتي ان أفعل أي شيء لمنع إعدامه . . لكنني أوجه اليك تحذيرا واحدا : في اللحظة التي أرى فيها جثته، فأقسم لك بعظام أبي وأمي، وأقسم لك بذكرى جوزيه اركاديو بويندیا، وأقسم لك أمام الله أنني سوف أجرك جراً من حيثما تكون مختبئا، وأقتلك بيدي هاتين ! . .

وقبل أن تبرح الغرفة، ودون انتظار لأي رد، إختتمت قائلة :

ـ إن هذا يساوي عندي كما لو كنت ولدتك بذيل خنزير ! . .

وبعد ليلة عصيبة أمضاها في التأمل واستعراض الماضي والحاضر، ظهر عند الفجر في زنزانة الكولونيل جيريلدو ماركيز قبل ساعة واحدة من موعد تنفيذ حكم الإعدام، وقال له :

ـ انتهت المهزلة ايها الصديق القديم . . هلم بنا من هنا قبل أن يتكفل البعوض بتنفيذ الإعدام ! . .

فلم يستطع الكولونيل جيريلدو ماركيز أن يكتم رنة الارتواء التي ابتعثها فيه هذا المسلك، ورد قائلا :

ـ لا يا أوريليانو . . خير عندي ان أموت من أن أراك تتحول الى طاغية دموي . .

فقال له الكولونيل أوريليانو بوينديا :

ـ لن تراني هكذا . . إلبس حذاءك وساعدني لوضع حد لهذه الحرب القذرة . .

والحق أنه حين قال قولته تلك لم يكن يعرف أن شن الحرب أيسر من وضع حد لها . . فقد لبث قرابة عام وهو يبذل جهودا عنيفة لإجبار حكومة المحافظين على عرض شروط صلح مقبولة لدى المتمردين ولبث عاما مثله وهو يجاهد لإقناع رفاقه في حمل السلاح بقبولها . . وقد توسل بكافة أساليب التشدد والقسوة لإخماد تمرد ضباطه الذين قاوموا وطالبوا بالنصر. حتى اضطر في النهاية الى الاعتماد على قوات العدو لحمل رفاقه على الامتثال . .

وباقتراب موعد الهدنة إغتبطت أسرة الكولونيل أوريليانو بوينديا بقرب عودته الى العيش في أحضانها، بعيدا عن ويلات الحرب وأعبائها الباهظة، ليكون بشرا عاديا مثل سائر الناس، حتى قالت أورسولا في هذا :

ـ سيكون لنا أخيرا رجل في البيت، كما كنا في الماضي . .

ومن عجب ان الجيش الحكومي كان عليه أن يتولى حماية البيت عند هذه العودة المرتقبة . . إذ كان وصوله مقترناً بالشتائم والإهانات والاتهام بأنه قد عجل بإنهاء الحرب بثمن باهظ . .

وفي خلال الأيام التالية التي استسلم فيها لمداواة جراحه الجسدية والنفسية، عمد الى إتلاف كل أثر يربطه بحياته الماضية . . فجرد مسبك

المعـادن من كل مـا له قيمـة ذاتية، ووزع مـلابسه على أتبـاعـه من رجـال المراسلة، ولم يحتفظ الا بطبنجة بها رصاصة واحدة . .

وقبل ذلك بساعات جاءت بيلار تيرنيرا لزيارته فراعه تقدمها في السن وترهل بدنها وانحسار ضحكتها الرنانة المرحة، وإنما راعه اكثر من هذا نفاذ نبوءاتها العجيبة في قراءتها للطالع، إذ حذرته مرة أخرى، مثلما حذرتـه وهو في قمة مجده :

ـ خل بالك من فمك ! . .

وجاءه طبيبه الخاص . . وبعد أن فرغ من مداواة جروحـه، طلب منـه بلهجة عرضية ودون ما اهتمـام معين ان يشير لـه بالتحـديـد الى مـوضـع القلب . . فتسمع الطبيب بالسماعة ثم رسم دائرة على الصـدر بقطعـة قطن مغموسة في اليود، دون أن يعقب بسؤال . .

وحـل يوم تـوقيع الهـدنة . . ففي الخـامسة صبـاحا دلف الكـولـونيـل أوريليانو بوينديا الى المطبخ حيث شرب قهوته السوداء بغير سكـر كعادتـه، وقالت له أورسولا :

ـ لقد جئت الى الدنيا في يوم ثلاثاء كهذا اليوم . . وكان الجميع في ذهول من عينيك المفتوحتين . .

بيد أنه لم يلق اليها بسمعه اذ كان منصتاً الى أصوات تشكيلات الجنود وصدى الاوامر ا سكرية ودوي الابـواق وهي تمزق سكـون الفجر . . ومن عجب ان هذه الاصوات المألوفـة لديـه جعلته يغص بـطعام الافـطار ويصد عنه . . وعندما اقبل الكولونيل جيريلدو ماركيز مع زمره من الضباط المتمردين لمرافقته الى مكان الاجتماع ألفاه صامتاً بالغ السهوم والـوجوم . . وحـاولت أورسولا ان تلقي بعباءة جديدة على كتفيه قائلة :

ـ مـاذا سيـظن رجـال الحكومة عنك ؟ . . سيظنون انك استسلمت

لأنـه لم يبق عندك شيء يكفي لشراء عباءة لك ! . . .

لكنه لم يقبل العباءة. . وعندما خرج الى الباب تركها تضع على رأسه قبعة قديمة من اللباد كان يلبسها أبوه جوزيـه اركاديـو بوينـديا. . وقـالت له أخيراً :

ـ أوريليانو. . عدني أنك إذا وجدتها ساعة شديدة على نفسك هناك، فلْتتذكر أمك. .

فرد عليها بـابتسامـة متباعـدة، وخرج من البيت لمـواجهة الصيحـات والشتائم والحملات التي كـان مقدراً ان تـلازمه حتى مغـادرته مـاكونـدو. . وارتدت أورسولا الى الباب الخارجي فشدت رتاجه وفي عزمها ألا تفتح حتى نهاية حياتها، وهي تدير هذه الخواطر في نفسها : «سوف نفنى هنا، ونتحول الى تراب في هذا البيت الذي لم يبق فيه رجال، لكننا لن نـدع لهذه البلدة النكدة فرصة الشماتة بنا ورؤية دموعنا ! » . . .

وأمضت ساعات الصباح كلها تبحث عن أي شيء يذكرها بولدها. بيد أنها لم تعثر على آثار تنفع للذكرى. .

ووصل الكولونيل أوريليانو بوينديا الى مكان الاجتماع على بعد خمسة عشـر ميلاً من مـاكونـدو، حيث تلاقى الـوفد الحكـومي المحافظ مـع وفـد المتمردين الليبراليين في خيمة كبرى بجوار بلدة نيرلانديا. . وكان راكبا بغلا موحلا. . وترك لحيته بغير حلاقة. . وكان يقاسي من آلام جروحـه آشد من مقاساته لحبوط احلامه، ذلك لأنه وصل الى الحد الذي انتهت فيه كل الآمال والاحلام، وتلاشت كل الامجاد والانتصارات. . وعملا بالتدابير التي طلبها، فقد خلا الاحتفال من الموسيقى او الالعاب النارية أودق الاجراس أو هتافات النصر او غير ذلك من المظاهر التي تغير من الطابع الحزين للهدنة. .

ولـم يستغرق الاحتفال سوى الوقت اللازم لتوقيع الوثائق. . وكان بين

أعضاء الوفدين أواخر الضباط الذين بقـوا على ولائهم للكولـونيل أوريليـانو بويندبا . . وعندمـا هم رئيس الوفـد الحكومي بتـلاوة بنود الاستسـلام، أبى الكولونيل أوريليانو بويندبا قائلا :

ـ دعونا لا نضيع الوقت في الشكليات . .

وتأهب لتوقيع الوثائق دون قراءتها، وعندئذ قطع احد ضباطه السكون الثقيل قائلا له :

ـ يا كولونيل . . ارجوك ان تكرمنا بألا تكون أول الموقعين . .

فنزل الكولونيل أوريليانو بويندياعلى رجائه . . وجـرت التوقيعـات في صمت رهيب، الى أن بقي السـطر الأول في كـل وثيقـة خلواً، حتى إذا هم الكولونيل بملئه، قال له ضابط آخر من رجاله :

ـ يا كولونيل . . لا يزال هناك وقت لتصحيح كل شيء . .

بيد أنه أجـرى قلمه على الاوراق في المكـان الخالي دون أن يتبـدل شيء من ملامح وجهه . .

وما كاد يفرغ من التوقيع حتى ظهر في المدخل ضابط شاب يقود بغلا محمـلا بصندوقين كبيـرين . . كـان امين صنـدوق المتمردين في منـطقـة ماكوندو . . وقد امضى ستة أيام في رحلة شاقة وهو يسحب البغل المائت من الجوع لكي يصل الى مكان الهدنـة قبل فـوات الاوان . . وما لبث ان انـزل الصندوقين وأخذ يخرج منهما قـوالب من الذهب بلغ عـددها اثنين وسبعين وضعها فوق المنضـدة . . لقد نسي الجميع وجود هـذا الرصيـد الضخم . . ففي فوضى العام الفائت، عندما دب الانقسام الى القيادة المركزية لحركات التمرد وشاعت المنافسات الفـردية بين زعمـائها، كـان من المستحيل قيـام مسؤولية عن أي شيء . .

وفي الحال ادرج الكولونيل اوريليانو بويندبا قوالب الذهب جميعا في

صلب وثائق الاستسلام، واختتم الاجتماع دون أن يسمح بأي خطب أو تعقيب.. بيد أن الضابط الشاب وقف في مواجهته متفرساً بعينيه الهادئتين، حتى سأله الكولونيل :

ـ أي شيء آخر ؟

فأجاب الضابط وهو يشد على فمه :

ـ الإيصال..

فكتب الكولونيل أوريليانو بويندبا ايصال تسلم الذهب بخطه.. وانسحب على الأثر الى خيمة ميدان اعدت له ليستريح اذا شاء. فلما خلا الى نفسه نزع قميصه وجلس على حافة الفراش الصغير، وفي الثالثة والربع اخرج طبنجته واطلق رصاصتها على نفسه في نطاق دائرة اليود التي رسمها طبيبه على صدره. وفي تلك اللحظة رفعت اورسولا وهي في ماكوندو غطاء وعاء اللبن فوق الموقد وهي تعجب كيف استغرق فترة طويلة لكي يغلي، فوجدته مليئاً بالديدان.. فهتفت :

ـ انهم قتلوا أوريليانو.. لقد أطلقوا عليه النار في ظهره، ولم يجد إنساناً خيراً يغمض له عينيه !..

وعند الغروب جاءوا وهي تنتحب حاملين الكولونيل أوريليانو بويندبا ملفوفاً بملاءة كانت ما تزال متيبسة بالدم الجاف وعيناه مفتوحتان حنقاً..

لقد نجا من الخطر. فإن الرصاصة سلكت مساراً مستقيماً حتى استطاع الطبيب ان يدس فتيلاً مغمساً من اليود ويسحبها من الظهر.. وقال وهو في غاية الرضى :

ـ كانت هذه آية البراعة مني.. كانت هذه النقطة التي حددتها هي المسار الوحيد الذي يمكن ان تمر فيه الرصاصة دون أن تعطب أي عضو حيوي..

عندها نقم الكولونيل أوريليانو بويندبا على نفسه اذ لم يطلق الرصاصة في سقف حلقه كما كان في نيته أن يفعل، حتى ولو بقصد السخرية من نبوءة بيلار تيرنيرا. . وقال للطبيب :

ـ لو كانت لي سلطتي الماضية لأمرت بإعدامك رمياً بالرصاص في الحال ! . .

ولقد أدى حبوط موته الى استعادة مكانته الذاهبة في غضون ساعات معدودات. . إن نفس الجماهير التي اختلقت قصة تقول إنه باع الحرب في مقابل غرفة جدرانها من قوالب الذهب، قد وصفت محاولة الانتحار بأنها عمل من أعمال الشرف، وأسبغوا عليه منزلة الشهيد. .

وفي مدى شهرين استطاع الكولونيل أوريليانو بويندبا ان يغادر غرفته، وكانت نظرة واحدة الى مدخل البيت كافية لكي تعدل به عن كل تفكير في استئناف الحرب مرة اخرى. . فإن أورسولا قد انبرت بحيوية تفوق سنها الى تجديد البيت، إذ قالت عندما رأت أن ابنها سيبقى على قيد الحياة :

ـ الآن سوف يرى الجميع من أنا. . لن يكون في الدنيا كلها بيت اجمل ولا ارحب من بيت المجانين هذا ! . .

فقد أجرت تنظيفه وطلاءه، وغيرت أثاثه، وأعادت الحديقة الى سابق رونقها وغرست فيها أزهاراً جديدة، وفتحت الابواب والنوافذ حتى تتسرب أضواء الصيف الباهرة الى كافة الغرف حتى غرف النوم. . وأعلنت انتهاء فترات الحداد التي فرضتها من أجل الراحلين من أفراد الأسرة، وأبدلت هي نفسها بثياب الحزن الكالحة ملابس اخرى ادنى الى طابع الشباب. . وانطلق عزف البيانولا يصدح من جديد في ارجاء البيت ويملأ جوه مرحاً. . ولم تتمالك أمارانتا اذ ذاك ان تذكرت بترو كريسبي وتحركت اشجانها التي كانت هاجعة في قلبها الذاوي، ولكن الزمن طهره ونزع عنه كل حقد دفين. .

وذات يوم بدا لاورسولا أن تستعين بجنود الحرس الذين كانوا يشرفون على حراسة البيت بأمر الحكومة ـ بدعوى حمايته ـ فلم يمانع رئيسهم الشاب. . وشيئاً فشيئاً اخذت أورسولا تعهد اليهم ببعض الأعمال. . وكانت تدعوهم لتناول الطعام، وتعطيهم ملابس وأحذية، وتكفلت بتعليمهم القراءة والكتابة. . وعندما امرت الحكومة بسحبهم استمر واحد منهم في الإقامة في البيت وظل في خدمة الاسرة سنين طويلة. . وفي عيد رأس السنة الجديدة عثر على قائد الحرس الشاب ميتاً تحت نافذة ريميديوس الجميلة بعد أن جن جنونه لطول ما صدته عنها. . .

الفصل العاشر

عندما كبر الشقيقان التوأمان جوزيه اركـاديو الثـاني وأوريليانـو الثاني، «ابنا اركاديو» كانت الأسرة في حيرة من تصرفاتهما. . فقد بلغت المشابهة بينهما والمشاكسات الصادرة منهما حداً جعل حتى أمهما سانتا صوفيا بيدال تعجز عن التفريق بينهما ومعرفة من منهما المسمى بالاسم الذي أطلق عليه، دون خلط أو التباس. .

على أن هذا اللبس ما لبث ان تغير بعد تجاوزهما سن المراهقة، فإن اوريليانو الثاني استحال الى فتى ضخم البنية مثل أجداده، بينما شب جوزيه اركاديو الثاني بادي العظام مثل الكولونيل، وكانت المشابهة المشتركة بينهما هي سمة الانطواء والعزلة. .

ثم تكشف الفارق الحاسم بينهما في إبان الحرب، عندما طلب جوزيه اركاديو الثاني من الكولونيل جيريلدو ماركيز ان يدعه يشهد عملية من عمليات تنفيذ حكم الإعدام. . بعكس اخيه اوريليانـو الثاني الـذي ارتاع من هـذه الفكرة مفضلا البقاء في البيت. . وفي هذه المناسبة طلب من جدته اورسولا ان تـريه الغـرفة المغلقـة التي كانت معمـلاً لجده الاكبـر «جوزيـه اركاديـو بوينديا» والتي أطلق عليها في ما بعد اسم «غرفة مالكويداس» وجمع فيها كل ما تركه ذلك «الغجري» الحكيم من كتب ومخطوطات فلم تجد أورسولا إزاء إلحاحه إلا أن تعطيه مفتاح الغرفة . .

ومن عجب ان أوريليانو الثاني عندما فتح الغرفة لم يجد بها آثاراً للأتربة والعناكب كما تصور، ووجد الكتب مصفوفة والمخطوطات منسقة. . وحين

تناول احد الكتب وقرأ بعض ما فيه راعته اعاجيب القصص التي تضمنها. . أما المخطوطات فقد عجز عن فك طلاسمها إذ كانت بخط اقرب الى الرموز الموسيقية. . وقد بلغ من فرط انبهاره بالغرفة وما فيها، ان ساوره ذات يوم إحساس خفي بأنه يرى شبح مالكويداس دائما في ظلال الغرفة، على استعداد لتنويره بكل ما يستعصي عليه فهمه وتزويده بالحكمة التي نهل منها جده الاكبر. .

أما جوزيه اركاديو الثاني فقد خرج من تجربة مشاهدة عملية تنفيذ الإعدام بفزع بالغ جعله يمقت الحرب ويهرب الى برج الكنيسة لكي يدق ناقوسها لمساعدة الاب انطونيو ايزابيل والعناية بديوك المصارعة في حوش الأبرشية. . ولما اكتشفت الكولونيل جيريلدو ماركيز الحقيقة زجره بشدة لاهتمامه بأشياء يستنكرها الليبراليون، فرد قائلا :

ـ الحقيقة هي أنني صرت من المحافظين، كما اظن. .

وعندما تضايق الكولونيل جيريلدو ماركيز وأبلغ اورسولا قالت له متعاطفة مع حفيدها :

ـ هذه الكيفية أفضل. . ندعو الله ان يصبح قسيساً، لكي يحل الايمان في بيت المجانين هذا. .

ولكن جوزيه اركاديو الثاني احترف مصارعة الديوك. . ولما رأته اورسولا يدخل البيت لأول مرة بديوكه عارضته بشده قائلة انها تجلب النحس، وإن احد اسلاف الاسرة قتل منافساً له بسبب هذه الديوك المشؤومة. . ولكنه استمر في تربيتها في بيت بيلار تيرنيرا «جدته»، التي اعطته كل ما يحتاج اليه في مقابل اقامته عندها. .

أما أخوه أوريليانو الثاني فكانت أطواره أدنى الى العجب. . ففي الفترة التي أمضاها عاكفاً على القراءة في غرفة مالكويداس كان منطوياً على نفسه

مثلما كان الكولونيل اوريليانو بويندیا في شبابه . . ولكن بعد توقيع معاهدة الصلح في «نيرلانديا» حدث ما أخرجه عن انطوائه وجعله يواجه واقع الدنيا . . فقد التقى ذات مرة بامرأة شابة كانت تبيع «يا نصيب الكارتيلا» لجائزة «اكورديون» وحيته بحفاوة ومعرفة اكيدة، فلم يدهش أوريليانو الثاني إذ كثيراً ما خلط الناس بينه وبين اخيه التوأم . . بيد أنه لم يعمل على توضيح هذا الخلط، وانتهى اللقاء بأن اخذته المرأة الى حجرتها . . والواقع ان المرأة أحبته حباً شديداً منذ لقائهما الاول، حتى دبرت الامور بحيث تكون جائزة «الاكورديون» من نصيبه عند سحب ارقام «الكارتيلا» . . . وبعد انقضاء اسبوعين تحقق اوريليانو الثاني ان المرأة كانت تعاشره بالتناوب مع اخيه، معتقدة انهما شخص واحد . . وبدلا من ان يعمل على تصحيح الخطأ قرر أن يطيل امد الموقف . . ولم يعد يذهب الى غرفة مالكويداس . . وإنما كان يمضي عصر كل يوم في فناء البيت يتدرب على العزف على «الاكورديون» بالرغم من اعتراضات أورسولا التي كانت في ذلك الحين قد حرمت عزف الموسيقى في البيت بسبب الحداد العائلي ولأن «الاكورديون» في نظرها كان صنعة المتسولين . . وعلى الرغم من ذلك فإن أوريليانو الثاني غدا بارعا في العزف على «الاكورديون» وظل كذلك حتى بعد أن تزوج وأنجب اولاداً وأصبح من اكثر الناس احتراماً في ماكوندو . .

لقد دامت العلاقة بين بائعة «الكارتيلا» والأخوين شهوراً . . ولكن «جوزيه اركاديو» الثاني مرض وانسحب . . أما أوريليانو الثاني فقد صارحها بالحقيقة والتمس صفحها، وبقي معها حتى مماته . .

كانت المرأة تدعى بيترا كوتيس، وكانت قد جاءت الى ماكوندو في إبان الحرب مع زوج عرضي يرتزق من «الكارتيلا»، وبعد وفاته استمرت في المهنة . . كانت شابة مولدة ذات عينين لوزيتين أسبغتا على وجهها شراسة أفعى البانثر، بيد أنها كانت طيبة القلب فوارة العاطفة . . وبعد أن تحققت

أورسولا أن جوزيه أركاديو الثاني احترف مصارعة الديوك وأن أورليانو الثاني يعزف على الاكورديون في تلك الحفلات الصاخبة التي كانت تقام في بيت عشيقته، بدا لها أنها توشك ان تفقد عقلها بشذوذ أطوار هذا الثنائي العجيب، حتى لكأن نقائص الاسرة دون ما شيء من محامدها قد تركزت في الاثنين. . وعلى الرغم من أن أورسولا قد بلغت المائة من عمرها وأوشكت ان تفقد البصر بسبب «المياه البيضاء» فقد ظلت محتفظة بحيويتها البدنية الفائقة، واستقامتها الخلقية المأثورة، واتزانها العقلي الموفور. . وقد نذرت في نفسها اذا تزوج احد حفيديها وأنجب ولداً أن تتولى هي تربيته وصياغته ليكون الرجل الفاضل الذي يعيد للاسرة مكانتها الذاهبة. . الرجل الذي لا يغامر في الحروب، والذي لا يحترف مصارعة الديوك، والذي لا يعاشر النساء الساقطات. . وهي النقائص التي عدتها عوامل فعالة في تقويض مكانة اسرتها. .

أما أورليانو الثاني الذي مضى رغم ذلك في حياته العابثة، فقد اعتبر أن ما ناله من ثراء بعد ذلك انما كان وليد علاقته مع بيترا كوتيس كما سيرى القارىء في ما يلي. .ان بيترا كوتيس ظلت حتى نهاية الحرب تعول نفسها بما تربحه من بيع «الكارتيلا»، وكان أورليانو الثاني يساعدها بما يسطو عليه بين حين وآخر من مدخرات أورسولا. . وظل الاثنان يعيشان عيشة ماجنة، حتى اذا عاد أورليانو الى بيته عند الفجر كانت أورسولا تتلقاه صائحة:

- إن هذه المرأة هي سبب ضياعك!. . إنها سلطت عليك سحرها الى حد انني سأراك يوما وأنت تتلوى من المرض والآلام!. .

بيد أن أورليانو الثاني لم يفكر وقتها الا في ايجاد حرفة تمكنه من اقامة بيت لبيترا كوتيس، يعيش معها بين جدرانه متفانيين في الحب حتى الممات. . وعندما فتح الكولونيل أورليانو بوينديا مسبكه المعدني مرة

اخرى، بدا لأوريليانو الثاني أن يتعلم صناعة حلى الاسماك الذهبية ليتخذ منها مورداً للعيش. . بيد أن المشقة التي كابدها في فترة ثلاثة أسابيع من التدريب جعلته يهرب من المسبك. . وحدث في خلال هذه المدة أن بيترا كوتيس خطر لها ان تجعل الارانب جائزة الربح في «الكارتيلا». . والواقع أن الارانب تكاثرت بسرعة غريبة الى حد أن الوقت لم يكن يتسع لبيع تذاكر «الكارتيلا» بالتوازي مع تكاثر الارانب. . ولم يتمالك أوريليانو الثاني ان قال لها ذات صباح وقد اذهلته كثرة الارانب في الحوش :

ـ لماذا لا تجعلين جائزة «الكارتيلا» على البقر ؟.

وفي محاولة من بيترا كوتيس لتنظيف الحوش قايضت على الارانب ببقرة، انجبت بعد شهرين ثلاثة عجول !. .

كانت هذه هي البداية. . وفي سنوات قلائل، ودون ما جهود تذكر، وإنما بعامل الحظ وحده، جمع أوريليانو الثاني ثروة من اكبر الثروات في منطقة المستنقعات، بسبب ذلك التكاثر الخارق للمواشي. . كانت الأفراس تلد ثلاثاً، والدجاج يبيض مرتين كل يوم، والخنازير تسمن بسرعة غريبة، الى درجة ان احدا لم يصدق هذه الخصوبة الفذة الا اذا كانت من قبيل السحر الاسود !. . . ورسخ في ذهن اوريليانو الثاني ان حظه العجيب هذا انما هو بتأثير بيترا كوتيس، حتى أنه كان يحرص دائما على عدم ابعادها عن مراعيه وحظائره، بل أنه بعد أن تزوج وأنجب ابناء استمر يعايشها بموافقة زوجته فرناندا !. .

هكذا اصبح اوريليانو الثاني بين عشية وضحاها مالكاً لأراضٍ وماشية متزايدة لم يكن يجد حتى الوقت لتوسيع حظائرها. . . وأضحت حفلاته الصاخبة التي كان يريق فيها الشمبانيا بغير حساب مثار العجب في أرجاء ماكوندو. . وعبثاً كانت أورسولا تزجره لهذا الإسراف الذي لا حد له، اذ كان

يقابل زجرها بالتمادي وهو يضحك طرباً واستخفافاً. . بل إنه جاء ذات مرة بصندوق مليء بأوراق البنكنوت وإناء به معجون وأخذ يلصق الاوراق على حوائط البيت داخلا وخارجا بين انفعال الاسرة وتفجع اورسولا وطرب الجمهور الحاشد في الشارع، حتى صاح اخيراً بأعلى صوته :

ـ الآن لن يكلمني احد في هذا البيت عن النقود مرة اخرى ! . .

وقد عمدت اورسولا الى انتزاع اوراق البنكنوت وطلاء البيت باللون الابيض من جديد، وهي تدعو قائلة :

ـ سألتك، يا الهي، ان تعيدنا فقراء كما كنا عندما أنشأنا هذه البلدة حتى لا نجزى بهذا الاسراف في اخرتنا! . .

ومن عجب أن الدعاء جاء بعكس ما استهدفت. . فإن احد العما القائمين بنزع اوراق البنكنوث اصطدم بتمثال ضخم من المصيص للقديه يوسف تركه احدهم في البيت اثناء السنين الاخيرة للحرب وسقط التمث الأجوف محطما على الارض. . كان التمثال محشواً بالعملات الذهبية. ولم يستطع احد أن يتذكر من الذي جاء بهذا التمثال. . وفي هذا قال أمارانتا :

ـ إن ثلاثة رجال جاءوا به ورجونا أن نبقيه عندنا الى أن تنتهي الامطار، فطلبت منهم أن يضعوه هناك في الركن حتى لا يصطدم به أحد، ففعلوا، وبقي في مكانه منذ ذلك الوقت، لأن احداً لم يعد قط للمطالبة به. .

إن هذا الحادث ضايق أورسولا، اذ كانت تعتقد بادىء الامر انه تمثال قديس حقيقي حتى أنها وضعت شمعة فوقه وأخذت تصلي أمامه. . فلما تبينت الحقيقة الآن لم تتمالك اذ بصقت على كوم الذهب البراق وعمدت الى وضعه في ثلاثة اكياس من القنب دفنتها في مكان سري، مؤملة أن يعود الرجال المجهولون عاجلا او آجلا لاستردادها. . .

في ذلك العهد كانت ماكوندو تنعم بالرخاء وقد استحالت بيوتها القروية الى أبنية ذات مصاريع خشبية وأرضية من الاسمنت، مما جعل حر الظهيرة الخانق اقرب الى الاحتمال. . ثم بدا لجوزيه أركاديو الثاني ان ينشيء مشروعاً ملاحياً يربط البلدة بالعالم الخارجي فعمل على تطهير قاع النهر من صخوره وشق قناة تصله بالبحر. . ولما أطلع اخاه اوريليانو الثاني على مشروعه لم يبخل عليه بالمال، واختفى عن الأنظار مدة طويلة حتى ظن الكثيرون أن خطته لشراء سفينة لم تكن سوى خدعة للهرب بمال أخيه. . الى أن جاء يوم هرع فيه سكان ماكوندو الى النهر وعيونهم جاحظة من الذهول، اذ شاهدوا جوزيه اركاديو الثاني يتصدر أول وآخر سفينة تمخر مياه النهر الى البلدة. . .

لم تكن في الواقع سوى طوف خشبي كبير يجذبه بالحبال عشرون رجلاً يتقدمون بمحاذاته على الضفة، وقد وقف في مقدمته جوزيه اركاديو الثاني تلمع عيناه زهواً وهو يشرف على العملية. . ولقد وصلت معه مجموعة من نساء فرنسيات تحت مظلات ملونة تقيهن حرارة الشمس المتقدة، وقد تدلت فوق اكتافهن مناديل حريرية كبيرة هفهافة، وازدانت وجوههن بمعاجين ملونة، ورشقن الزهور الطبيعية في شعورهن، والتفت حول أذرعهن ثعابين من الذهب، ولمعت أسنانهن بالماس. . ومن عجب أن جوزيه اركاديو الثاني بعد أن اطلع أخاه على تفاصيل المغامرة التي عدها دليلا على قوة الارادة لا أكثر، ما لبث ان عاد الى ديوكه المتصارعة، وقضى على مشروع الخط الملاحي بالفشل. . وكان الأثر الوحيد الذي بقي من هذه المحاولة الفاشلة هو روح التجديد التي جاءت بها النساء الفرنسيات، بما أدخلنه من التطور الاجتماعي والسلوكي في هذا المجتمع المنعزل المغلق، الى حد أن هذا الأثر امتد الى حانة كاتارينو العتيقة التي اغلقت أبوابها كساداً، واستحال الشارع ذاته الى ساحة تضيئها المصابيح البدائية وآلات العزف العصرية. .

بل إنهن كن صاحبات السبق في إقامة «الكرنفالات» التي جعلت ماكوندو تعيش ثلاثة أيام في جو مرح صاخب محموم.. وكانت النتيجة النهائية لهذا كله هي اتاحة الفرصة لأوريليانو الثاني للالتقاء بزوجته فرنانـدا ديـل كاربيو...

لقد اختيرت اخت ريميديوس الجميلة ملكة لمهرجان الكرنفالات ولم تستطع أورسولا التي كانت مروعة لجمال حفيدتها الصغرى الصاعق ان تمنع هذا الاختيار.. وكانت حتى ذلك الحين قد أفلحت في إبعادها عن اعين الناس خارج البيت، اللهم الا عند الذهاب الى الكنيسة لحضور القداس مع أمارانتا، ولكنها كانت تحملها ووجهها خلف شال اسود.. ومن الناس من كانوا يذهبون الى هناك لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على محيا ريميديوس الجميلة التي كانت ملاحتها الفاتنة مثار الاحاديث المحمومة في ارجاء اقليم المستنقعات.

والحق ان ريميديوس الجميلة لم تكن مخلوقة لهذه الدنيا.. لقد ظلت حتى سن المراهقة تحت رعاية امها سانتا صوفيا بيدال التي كانت تتولى تحميمها وإلباسها، وكانت تضعها تحت المراقبة لئلا تشوه الحوائط بالرسوم الغريبة التي تنقشها.. وبلغت العشرين من عمرها دون ان تعرف القراءة والكتابة، جاهلة باستعمال ادوات المائدة، جائلة في ارجاء البيت عارية اذ كانت طبيعتها تنبذ التستر... وعندما طالعها قائد الحرس الشاب بحبه صدته عنها ببساطة لأن «مجونه روعها»، وفي هذا قالت لأمارانتا:

- انظري الى سذاجته!.. قال لي إنه سيموت بسببي، كأنني مرض معد يؤدي الى الموت!..

وعندما عثروا على الضابط الشاب صريعاً تحت نافذتها، لم تعد ان قالت لأمارانتا:

ـ ألم أقل لك إنه ساذج ! . .

إن أورسولا من ناحيتها قد حمدت الله أن منح الأسرة مخلوقة لها مثل هذا الطهر الخارق، وإن كـانت في نفس الوقت يقلقهـا مثل هـذا الجمال، الذي عدته شركا شيطانيا تحت طابع البراءة. . ومن اجل هذا كان حرصهـا على إبعاد ريميديوس الجميلة عن الدنيا، حماية لها من كل اغراء دنيـوى، غير عالمة بأنها كانت حتى وهي في رحم أمها بمنأى عن كل عدوى. . ولم يخـطر ببالهـا قط أنهم سيختارونهـا ملكة جمـال الكرنفـال الجنوني، ولكن أوريليانو الثاني الذى استبدت به نزوة التنكر في إهاب نمر، استقـدم الاب انطونيو ايزابيل الى البيت لإقنـاع أورسولا بـأن الكرنفـال ليس من الطقـوس الوثنية كما قالت، بل هو من الممارسات التي لا تتنافى مع العقيدة. . . ولما اقتنعت في النهاية، وأن كان على كره منها، وافقت على التتويج . .

وسرعان ما انتشر نبأ اختيار ريميـديوس بـوينديـا لتتويجهـا ملكة في المهرجان حتى تجاوز حدود اقليم المستنقعات في ساعات معدودة ووصـل الى مناطق بعيدة لم تسمع بجمالها، الأمر الـذي اثار قلق الـدوائر التي مـا زالت ترى في لقبها العائلي «بوينديا» رمزاً لحركات التمرد. . ولم يكن ثمة أساس لهذا القلق. . فلو كان هناك احد قد انحاز الى السـلم والمهادنـة فقد كان هو الكولونيل أوريليانو بوينديا، الذي دبت اليه الكهولة، وبعدت صلاته بكافة احوال أمته، والذي اعتكف في مسبكه المعدني يقتل الوقت بصياغـة حلى الاسماك الذهبية الصغيرة. .

هكذا لم يكن ثمة أساس للقلق الناجم عن عودة اسم عائلة «بوينديا» للظهور على نطاق شعبي لمناسبة اختيار ريميديوس بوينديا لكي تتوج ملكة فى مهرجان الكرنفالات، وإن كان هناك العديدون ممن لم يروا هذا الرأي . . ومهما يكن فإن البلدة التي كانت غافلة عن الفاجعة التي تتهددها تدفقت الى الميدان الرئيسي في موجات صاخبة من المرح. . وقد بلغ المهرجان ذروته

من الهوس، وحقق أوريليانو الثاني حلمه أخيراً بالتنكر في إهاب نمر والسير في غمار الزحام وقد بح صوته من فرط الصياح والانفعال، عندما ظهر على طريق المستنقعات موكب من عديد الاشخاص يحمنون في محفة مذهبة ابهى امرأة يمكن أن يتصورها الخيال. . وفي مدى لحظة نزع أهل ماكوندو أقنعتهم لكي يحسنوا النظر الى الانسانة المنمقة الزهراء ذات التاج الزمردي والعباءة المحفوفة بالفراء الثمين والتي بدا وكأنها ملكة شرعية لا مجرد صورة مصنوعة. . وكان لكثير من الفطنة ما جعلهم يعدون هذا البهاء من قبيل الإغراء والإثارة. . ولكن أوريليانو الثاني سرعان ما تغلب على حيرته وأعلن أن الوافدين الجدد هم ضيوف شرف، وبادر فأجلس ريميديوس الجميلة والملكة الدخيلة على نفس العرش الذي أعد للتتويج. . وحتى منتصف الليل ظل الوافدون الغرباء، المتنكرون في أزياء بدوية، يشاركون في البهجة المحمومة، بل انهم ضاعفوا من أسباب المرح والبهجة بإطلاق ألعاب نارية وممارسة عروض بهلوانية جعلت الناس يتذكرون أفانين «الغجر». . .

ثم فجأة، وفي ذروة الابتهاج والحبور، صاح احدهم هاتفا :

ـ يحيا الحزب الليبرالي ! . . يحيا الكولونيل أوريليانو بوينديا! . . .

وسرعان ما دوت طلقات الرصاص تغطي قصف الالعاب النارية، وانبعثت صيحات الفزع تبتلع عزف الموسيقى، واستحالت البهجة الى ذعر وهلع. . وبعد انقضاء سنوات عديدة على هذه الفاجعة، ظل الكثيرون يؤكدون ان حراس الملكة الوافدة الدخيلة كانوا من الجنود النظاميين الذين أخفوا بنادقهم الحكومية تحت العباءات البدوية الفضفاضة، برغم ما اذاعته الحكومة في بيان رسمي من دحض هذا الاتهام. . وبعد أن ساد الهدوء لم يبق في البلدة احد من البدو الزائفين، وتناثرت على أرض الميدان جثث القتلى والجرحى في ثياب التنكر : اربع راقصات بانتوميم، وسبعة عشر من ملوك ورق اللعب، وشيطان، وثلاث مغنيات، واثنان من نبلاء فرنسا، وثلاث

إمبراطورات يابانيات.. وفي غمرة الفزع أفلح جوزيه لاركاديو الثاني في أنقاذ ريميديوس الجميلة وحمل أوريليانو الثاني الملكة الدخيلة الى البيت بين ذراعيه وقد تمزق رداؤها وتلوثت عباءتها بالدم.. كان اسمها فرناندا ديل كاربيو. وكان الاختيار قد وقع عليها كواحدة من أجمل خمسة آلاف من أجمل نساء البلاد، وقد جاءوا بها الى ماكوندو بناء على وعد بتسميتها ملكة مدغشقر... وتولت أورسولا العناية بها كما لو كانت ابنة لها.. وبدلاً من ان ترتاب البلدة في أمرها فقد عطفت عليها ورثت لما نالها.. وبعد ستة أشهر من المجزرة، وبعد أن شفي الجرحى وذبلت الزهور فوق القبر الجماعي للقتلى، مضى اوريليانو الثاني لاستقدامها من المدينة البعيدة التي كانت تقيم فيها مع أبيها، وعقد قرانه عليها في ماكوندو في احتفال كبير امتد عشرين يوماً..

الفصل الحادي عشر

كاد الزواج ان يتحطم بعد شهرين، لأن أوريليانو الثاني في محاولة منه لاسترضاء بيترا كوتيس عمل على تصويرها في زي ملكة مدغشقر. . وعندما اكتشفت فرناندا ما حدث، حزمت حقائب العرس وغادرت ماكوندو دون كلمة وداع . . واستطاع أوريليانو الثاني ان يلحق بها على طريق المستنقعات، وبعد توسلات كثيرة ووعود بالاستقامة أفلح في إعادتها الى بيت الزوجية، وهجر عشيقته . . .

وثقة من بيترا كوتيس في قدرتها، فإنها لم تبد أي قلق أو انزعاج، وهي التي أخرجته من عزلته وقلة خبرته، وصاغت منه رجلا يعرف كيف يستمتع بالحياة، فضلا عن تأثيرها في إنماء ثروته . . . وكان الشيء الوحيد الذي استبقته عندها من ملابسه هو زوج الحذاء الفاخر الذي قال إنه يريد الاحتفاظ به للبسه في التابوت حين وفاته . . وفي هذا قالت بيترا كوتيس لنفسها مصابرة :

ـ سوف يعود اليَّ عاجلا أو آجلا، حتى ولو لمجرد لبس الحذاء ! . . .

ولم يكن لها أن تنتظر طويلا . . . فالحقيقة أن أوريليانو الثاني ادرك منذ ليلة الزفاف أنه عائد الى بيت بيترا كوتيس لا محالة . . . فإن فرناندا كانت امرأة غريبة الاطوار هائمة في هذه الدنيا . . . لقد نشأت في تلك المدينة القاتمة ، التي تبعد ستمائة ميل والتي تدرج فيها المركبات الملكية ، نشأة قوامها التزمت والاعتكاف في بيت أبوين من اسرة رفيعة . وكثيراً ما سمعت أمها المريضة تردد على سمعها :

ـ كانت جدتك الكبرى ملكة . . وسوف تصبحين أنت ملكة ذات يوم . . . .

لقد صدقت فرناندا هذا الكلام حتى بعد وفاة أمها وإدخالها الدير وهي في الثانية عشرة من العمر للتعليم، وحتى بعد اضطرار والدها «دون فرناندو» لرهن بيت الاسرة ليتمكن من شراء جهاز العرس طبقا للتقاليد . . وبعد ثماني سنوات عادت الى البيت لتجده مجردا من الاثاث الفاخر والتحف الثمينة التي اضطر أبوها لبيعها سدادا لنفقات تعليمها . . . وهكذا مضت فرناندا في عيشتها المنزوية لا أصدقاء لها ولا تعرف شيئا من أحوال الدنيا حولها، حتى ولا أنباء الحرب التي كانت تمزق البلاد، ولا يشغلها سوى تعلم دروس البيانو وصنع اكاليل الموتى . . بل إنها بدأت تفقد الحلم الذي راودها بأن تصبر ملكة في يوم ما بتأثير ما ثبتته أمها في رأسها، الى ان جاء يوم سمعت فيه دقاً آمراً على الباب الخارجي، ولما فتحته طالعها ضابط شاب أنيق، وطلب مقابلة أبيها . . . وبعد ان اختلى به ساعتين خرج الاب اليها في غرفة الحياكة وقال لها :

ـ جهزي امتعتك . . ستقومين برحلة طويلة . .

وعلى هذه الصورة كانت رحلتها الى ماكوندو التي صحبوها اليها دون أن تعرف ما يراد بها . . وفي ليلة واحدة صدمتها الدنيا صدمة قاسية عنيفة بواقعها المرير وحقيقتها المروعة . . وبعد عودتها الى البيت أغلقت على نفسها باب غرفتها واستسلمت للبكاء والنحيب، غير عابئة باستعطاف «الدون فرناندو» لها ومحاولات الشرح والتفسير رغبة في تلافي آثار الجراح العميقة التي خلفتها تلك الدعابة الخادعة الغريبة . . وقد أقسمت ألا تبرح غرفتها حتى الموت، عندما جاء أوريليانو الثاني للزواج منها . .

كان ذلك هو بداية حياتها الفعلية . . وكان في نفس الوقت هو البداية، والنهاية، لسعادة أوريليانو الثاني . . .

منذ ليلة الزفاف أبدت فـرنانـدا تزمتـاً غريبـاً حتى صدفت عن فـراش الزوجية مدى اسبوعين كاملين مما اضطر أوريليانو الثاني الى اطالة أيام الفرح عشرين يوما دارت فيها الشمبانيا ونحرت فيها الذبائح وأقيمت الولائم بكـرم باذخ، والسر كما اكتشفت أورسولا أن فرناندا كانت ملتزمة بمراعاة أيام معينة طبقا لتقويم لقنته وهي في الدير. . .

ولما ثابت اليه في النهاية عانى من تزمتها الامرين، حتى لم يمض شهر الا وقد رجع الى بيت بيترا كوتيس وأخذ لها تلك الصورة في زي الملكة على ما تقدم. . وبعد أن أفلح في اعادة فـرنانـدا الى بيت الزوجيـة وخفت حدة تـزمتها، أحس في النهـاية أنهـا لا تستـطيع أن تهيء لـه تلك السعادة التي راودت خـاطره حين سعى اليهـا في تلك المـدينـة البعيـدة للفـوز بـالـزواج منها. . .

ثم ذات ليلة، قبل فترة قصيرة من مولد طفلهما الأول، عرفت فرناندا أن زوجها قد عاد سراً الى بيت بيترا كوتيس. . . وقد اعترف لها بذلك وقال يشرح لها الموقف بلهجة المستسلم لقضائه :

ـ هـذا ما حـدث. . . وكـان لا بـد لي أن أفعـل هـذا، لكي تستمـر المواشي في التكاثر والزيادة ! . .

ولم يستغرق الا وقتا قليلا لإقناعها بصدق هذه الدعـوى الغريبـة وبما قدمه من براهين بدا أنه لا سبيل الى دحضها، وكان الوعد الوحيد الذي طلبته منه فرنـاندا هـو ألا يدع المـوت يفاجئـه في فراش عشيقتـه. . . وعلى هذه الصورة مضى الثلاثة في حياتهم دون أن يضايق احدهم الآخـر : أوريليانـو الثـاني المحب المتفـاني، لكـل منهمـا. . . وبيتـرا كـوتيس المـزهـوة المنتصرة. . . وفرناندا المتظاهرة بأنها لا تعرف شيئا. . .

بيد أن هذا الميثاق الغرامي لم ينجح في ادماج فرناندا في حياة أسرة

بورينديا. . . فمنذ أول يوم فشلت أورسولا في إقناع فرنـاندا بـاستخدام دورة المياه بدلا من «القعادة» الذهبية التي جاءت بها في جهاز العـرس ولكـي تعطيها الى الكولونيل أوريليانو بورينديا لصهرها وصنع اسماك ذهبية صغيرة منها. . . وقد شعرت أمارانتا بالضيق من التزام فرناندا أسلوب التحـذلق في الكلام حتى كانت تتهكم عليها، مما أدى في النهاية الى القطيعة بين الاثنتين وأصبحتا لا تتصلان الا بالمذكرات الكتابية. . .

وعلى الرغم من العداوة الظاهرة من جانب الاسرة لفرناندا، فإنهـا لم تنفض يـدهـا من فـرض اتجـاهـاتهـا وعـادات أسـلافهـا على هـذه البيئـة الجديدة. . . فقد وضعت حداً لتناول الطعام في المطبخ كلما شعر أحدهم بالجوع. وألزمتهم بأن يكون هذا في مواعيد منتظمة وحول المائـدة الكبرى في قاعة الطعام، مكسـوة بمفرش كتـاني وعليها ادوات المـائدة ومن فـوقها الثـريات. . . وعلى هـذا النحو صـارت هي المتصـرفـة في شؤون البيت، خصوصاً بعد أن طعنت أورسولا في السن وكف بصرها واضطرها ثقل السنين الى الانزواء في أحد الاركان. . . ثم إن أبواب البيت التي كانت تفتح على مصاريعها منذ الفجر حتى مـوعد النـوم، اضحت توصـد اثناء فتـرة القيلولة بدعوى ان الشمس تسخن غرف النوم، وفي النهاية كان اغلاقهـا دائما. . . وعندما قرر زوجها تسمية ابنهما الأول باسم جده الاكبر «جوزيه اركاديو» لم تلجـأ فرنـاندا الى مخالفته اذ لم يكن قد مضى على وجودها في البيت أكثر من عام، ولكن عندما ولدت البنت الاولى صممت على تسميتهـا «ريناتـا» وهو اسم أمها، في حين أرادت أورسـولا أن تسميها ريميـديوس. . . وبعـد احتدام الخلاف الذي كان الاب يقوم فيه بدور الوسيط الضاحك، تم الاتفاق على تسميتها «ريناتا ـ ريميديوس» ثم اشتهرت في البلدة باسم« ميم» . . .

ثم توالت الايام وتعاقبت الاعوام. . . وفي خـلال ذلك شهـدت بلدة مـاكونـدو تـطورات كبـرى غيـرت معـالـم الحيـاة فيهـا حتى اصبحت تعـج

بالنشاط . . . فقد مدت اليها خطوط السكك الحديدية، وأدخل التليفون والكهرباء، وأنشىء مصنع للثلج وبعض المشروبات المثلجة . . . ولكن كان اكبر تطور مؤثر في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية هو زراعة الموز على نطاق واسع بعد أن تولته شركة خارجية جلبت معها مئات الخبراء والفنيين الذين أقيمت لهم مساكن خاصة ومرافق معيشية وترفيهية منوعة، حتى كان ذلك في نظر أهل البلدة اقرب الى الغزو منه الى التعمير . . .

واحد فقط رحب بهذا الغزو الخارجي وسعد به الى حد كبير . هو أوريليانو الثاني . . . فقد كان القادمون الجدد ينزلون ضيوفا على البيت الكبير قبل استقرارهم في منشآتهم الجديدة، فكانت المآدب تقام لهم بغير حساب . . . وإذا كانت أورسولا قد أبدت كرمها المعهود، فإن أمارانتا استبشعت ما عدته اقتحاماً للبيت، وعادت الى تناول طعامها في المطبخ مثل ما كان في الماضي . . . وعمد الكولونيل أوريليانو بوينديا الى اغلاق صومعة السبك على نفسه اعتزالاً للوافدين الذين وان تظاهروا بأنهم يؤدون واجب التحية لبطل قومي، الا أنه عدهم دخلاء متطفلين يرونه في واقع الامر أثراً من مخلفات الماضي . . . وكانت فرناندا بالطبع اشد الجميع جزعاً ازاء هذه الفوضى التي شملت البيت وعصفت بكل ما وضعته من ترتيبات ونظم . . .

الا ريميديوس الجميلة التي كانت في منعة من التأثر بشيء من هذا كله، بحكم طبيعتها الهادئة، ونفورها من المظاهر، وإعراضها عن كل تشكك وسوء ظن، وسعادتها بدنياها الخاصة القائمة على الواقعية والبساطة . . . ومن قبيل ذلك انها لم تكن تفهم لماذا تلجأ النساء الى التعقيد والتكلف بارتداء الجونلات والمشدات، ولهذا خاطت لنفسها ثوباً خشناً فضفاضاً كالجلباب حسمت به مسألة الفستان، وإن لم تغفل عن الإحساس بأنها تبدو فيه شبه عارية، ولكنها عدته الرداء الوحيد المناسب للبيت . . . ولما رأتهم ينتقدونها بسبب شعرها المرسل الذي استطال الى الفخذين

ويطالبونها بعقده جدائل وتمشيطه ورشق «الفيونكات » الحمراء فيـه، حلقت رأسها ببساطة واستخدمت الشعر في عمل عـاريات لتمـاثيل القـديسين. . . وكـان الشيء المروع في تبسيطها لكـل شيء هـو أنهـا كلمـا استغنت عن متـطلبات الهنـدام اللائق إيثاراً لراحـة البدن، وكلمـا تجاوزت عن العـرف والتقاليد استجابة لعفويتها. .كلما بدا جمالها الصارخ أشد اثـارة، وإغراؤهـا للرجال اكثر وأفدح. . والواقع أن ريميديوس الجميلة ظلت حتى آخر لحظة لها على الارض غير مدركة ولا مقدرة أن قدرها الذي لا تبديل له كامرأة مثيرة للقلق واضطراب المشاعر هو كارثة يومية. . . كانت في كل مرة تدخـل فيها قاعة الطعام على رغـم نواهي اورسولا تثير في نفوس الغرباء الوافدين موجة من البلبلة والجزع، اذ كان يبدو بكل وضوح أنها متجردة تماما تحت ردائها البدائي الخشن. . . ولـم يستطع احد أن يفهم ان رأسها الحليق وجمجمتها البديعة التكوين ليسا ضرباً من ضروب التحدي، وأن جرأتها في الكشف عن ساقيها تلطيفاً للحر ليس من قبيل الاستفزاز والإثارة الآثمة. . . ومثل ذلك ما كانت تعمد اليه من لعق أصابعها بعد الاكل ! . . .

أما هي فكانت غافلة تماما عن البلبلة والاضطراب اللذين كانت تتقلب فيهما، وعن البلاء الذاتي الذي كانت تحدثه كلما مرت بمكان،ومن ثم كانت تعامل الرجال دون ما ادنى سوء طوية ولا خبث، وان كانت في نهايـة الامر تـزلزلهم بهـدوئها البـريء. . . وحينما أصـرت أورسولا على جعلهـا تتناول الطعام في المطبخ مع أمارانتا لكيلا يبصرها الغرباء الوافدون، كان ارتياحها بـالغـاً، اذ كـانت أبعـد النـاس عن التـزام التقـاليـد والمجاملات والنـظام المرسوم. . . والواقع انه لم يكن يعنيها اين ولا متى تأكل. . . احيانا كانت تستيقظ من النـوم في الثالثـة صباحـا لتناول طعـام الغـداء، ثم تنـام النهـار طـوله. . . بـل كانت تمضي شهـورا متـواليـة ومـواعيـد طعـامهـا في منتهى الاختلال. . . ثم اذا طرأ تحسن على هذا الجدول الزمني كانت تستيقظ في

الحادية عشرة صباحا وتغلق على نفسها باب الحمام حتى الساعة الثانية بعد الظهر وهي عارية تماما، تتسلى بقتل العقارب الى أن تفيق من تأثير نوم عميق، ثم تاخذ في صب الماء عليها بكوز من الحوض، وكانت تطيل أمد هذه العملية وتبالغ في طقوسها الى حد أن من لا يعرفها جيدا يظن أنها قد كرست نفسها لعبادة جسدها. . . أما بالنسبة اليها فإن هذه الطقوس الفردية كان يعوزها كل احساس ذاتي، وكانت مجرد ملهاة لإزجاء الوقت الى أن نشعر بالجوع. . .

وذات يوم حين بدأت في الاستحمام، رفع أحد الضيوف الغرباء بلاطة من سقف الحمام، فتوقفت أنفاسه لدى المشهد الصاعق الذي صافح عينيه. . . ولقد رأت هي عينيه البائستين من خلال البلاطة المكسورة، فلم يخامرها رد فعل ينم عن الخجل، بل عن الانزعاج، وهتفت :

ـ احترس !. . ستقع !. . .

فغمغم الغريب قائلا :

ـ أردت فقط ان اشاهدك !. .

فقالت :

ـ لا بأس. . . لكن احترس. . . فإن هذا البلاط مخلخل. . .

لقد شاعت امارات الذهول الممزوج بالتألم في وجه الغريب، وبدا كأنه يكافح في صمت ضد مشاعره لئلا يتلاشى من أمام عينيه هذا السراب. . . أما ريميديوس الجميلة فقد ظنت انه يقاسي من الخوف من احتمال تكسر البلاط كله، فأخذت تتعجل إتمام حمامها باسرع من المعتاد لئلا يتعرض الرجل للخطر. . . وفيما كانت تصب الماء فوق جسدها من الحوض قالت له إن السقف بهذه الحالة لأن ورق الشجر الذي يحشوه قد دب اليه العطن بسبب الامطار على ما تظن، وأن هذا هو سبب امتلاء الحمام

بالعقارب. . . وقد توهم الغريب أن كلامها هذا هو مجرد تغطية لهدوئها المذهل، ولذلك ما أن رآها تضع الصابون على جسدها حتى استسلم للإغراء وتقدم خطوة أخرى مغمغماً :

ـ دعيني أضع لك الصابون. . .

فقالت :

ـ أشكر لك حسن نواياك. . . لكن يدي فيهما كل الكفاية. . .

فقال راجياً :

ـ حتى ولو كان الصابون لظهرك فقط ؟. .

فقالت :

ـ هذه بلاهة. . . الناس لا يضعون الصابون على ظهورهم أبدا !. . .

وعندئذ، وبينما كانت تجفف نفسها، توسل اليها الغريب وقد امتلأت عيناه بالدموع ان تتزوجه. . . فردت عليه بلهجة مخلصة قائلة إنها لا يمكن ان تتزوج رجلا بلغت به السذاجة الى حد ان يضيع ساعة من وقته بل حتى يحرم نفسه من طعام الغذاء لمجرد أنه شاهد امرأة تستحم. . . وأخيرا، وعندما كانت تلبس جلبابها، لم يحتمل الرجل البرهان الذي رآه بعيني رأسه عما كانوا يستريبون فيه من انها لا تلبس شيئا غير الجلباب، وأحس ان كشف هذا السر كان له وقع حديد محمى في النار عليه. . . وعندئذ نزع بلاطتين أخريين من السقف لكي ينزل الى الحمام. . فقالت تحذره مروعة :

ـ السقف عال جدا !. . . ستقتل نفسك !. .

ولقد انكسر البلاط المعطوب بقصف له نذير الشؤم، ولم يمهل الرجل لإتمام صرخة الهلع التي أطلقها، اذ تهشمت جمجمته على الارض الاسمنتية ولقي مصرعه على الأثر.

كان هذا الحادث البشع، مقترناً بمصرع ضابط الحرس الشاب عند نافذة ريميديوس الجميلة، هو مصدر الاعتقاد الذي ساد على الأثر، بأن جمالها الطاغي يجلب الموت. . . ومن ثم تخلت أورسولا عن قلقها على الفتاة ورقابتها الدائمة لها وتركتها لمصيرها، خصوصا بعد مولد الحفيد الاصغر جوزيه اركاديو وما نذرته أورسولا من السهر على تربيته ليكون من رجال الدين. . . هكذا مضت ريميديوس الجميلة تهيم في بيداء وحدتها واعتزالها، تضج في احلام بغير كوابيس، وتواصل حماماتها التي لا تنتهي، وتتناول طعامها دون التزام بأي موعد، مستسلمة لصمتها الذي لا تعروه ذكريات. . الى أن جاء يوم وقفت فيه فرناندا في الحديقة تطوي ملاءتها طالبة مساعدة نساء البيت. . . وما كادت تبدأ حتى لاحظت أمارانتا أن ريميديوس الجميلة يغطيها شحوب بالغ، فسألتها :

ـ هل تشعرين بأي انحراف ؟ . .

فأجابت ريميديوس الجميلة بابتسامة راثية وهي ممسكة بطرف الملاءة :

ـ بالعكس. . . أنا في أحسن حال. . .

وما ان فاهت بهذا الرد حتى شعرت فرناندا بلفحة هواء وضياء جذبت الملاءة من يدها ودفعت وسطها الى اعلى. . . وشعرت امارانتا بدورها برفرفة خفية في اشرطة جونلتها حتى حاولت ان تشد قبضتها على طرف الملاءة لئلا تقع، في اللحظة التي بدأت فيها ريميديوس الجميلة ترتفع. . . وكانت اورسولا التي كاد بصرها يذهب تماما في ذلك الحين من الهدوء بحيث فهمت طبيعة لفحة الهواء والضياء هذه وتركت الملاءة تحت رحمتهما وهي تراقب ريميديوس الجميلة تلوح مودعة في وسط الملاءة الخفاقة التي ارتفعت معها، مخلفة وراءها بيئة الهوام والزهور، صاعدتين في الهواء الى أن غابتا عن الأنظار في أطباق الجو، الى حيث لا تدركهما حتى أطيار الذكريات . . .

ولقد فكر الخارجون عن نطاق البيت بالطبع أن ريميديوس الجميلة قد انتهت النهاية المحتومة لملكة نحل، وأن اسرتها انما حاولت بتسريب حكاية الارتفاع عن الارض تلك، انقاذ شرفها... أما فرناندا التي كانت تحترق حسداً لمنافستها في الجمال فقد تقبلت هذه المعجزة في النهاية، وظلت وقتاً طويلا وهي تبتهل وتصلي عسى أن تعاد اليها ملاءتها الثمينة !!.. وقد صدق أكثر الناس المعجزة، ومنهم من ذهبوا يضيئون الشموع تبركاً...

الفصل الثاني عشر

اصرت اورسولا بعناد شديد على أن تختص هي بتربية حفيدها الاصغر «جوزيه اركاديو» تربية دينية تؤهله للترقي في مراتب الكهنوت العليا الى ذروتها، وبذلت في هذا اقصى الجهد على الرغم من اشرافها على المائة عام وانطماس بصرها تماما، وإن كان لها من حدة حواسها الاربع الاخرى وبأسها الماضي الطويل طوع لها ان تمضي في حياتها العائلية كالمبصرين، الى حد ما... ثم جاء الوقت الذي اخذوا يستعدون فيه لإرسال «جوزيه اركاديو» الى المدرسة العليا... وفي نفس الوقت كانت اخته «ميم» الموزعة بين صرامة فرناندا وأحقاد امارانتا تستعد هي ايضاً لإرسالها الى مدرسة الدير، حيث تؤهل اثناء تعليمها للتفوق في العزف على «الكلافيكورد»...

وأما أبوهما اوريليانو الثاني فما لبث ان عاد الى حياته اللاهية العابثة، فامتلأ البيت من جديد بالسكارى يسكبون الشمبانيا بغير حساب، وبعزف «الأكورديون» يتردد صداه بلا انقطاع، حتى لم تتمالك أورسولا ان تمنت الموت لكي يريحها من أثقال هذا «البيت المجنون»، على حد تعبيرها...

ثم حل اليوم المحدد لرحيل «جوزيه اركاديو» الى المدرسة العليا، فبدا هادئا رصينا لا يذرف دمعا، وظل كذلك طوال وليمة الغداء الوداعية التي اقيمت لهذه المناسبة، وفي خلالها كانت الاسرة تتكلف السكينة والمرح، ولكن ما إن نقلت حقيبة امتعته الى الخارج حتى بدا لهم وكأن تابوتاً يحمل الى خارج البيت... وكان الوحيد الذي ابى ان يشارك في الوداع هو الكولونيل اوريليانو بوينديا المعتزل الا من العكوف في صومعة السبك على

صنع اسماكه الذهبية الصغيرة تمثلاً للوقت وزهداً في كل شيء حتى الحياة ذاتها، اذ غمغم يقول :

ـ كاهن ! . . كأن هذا هو كل ما نحتاج اليه ! . .

وبعد ثلاثة شهور صحب اوريليانو الثاني وفرناندا ابنتهما «ميم» الى المدرسة وعادا ومعهما معزف «الكلافيكورد» الذي وضعاه في مكان البيانولا . . . وحوالى هذه الفترة بدأت امارانتا تخيط قماش كفنها . . . واقترن ذلك بفتور «الحمى» التي جاءت بها شركة زراعة الموز في المنطقة، وبعد أن وجد سكان ماكوندو القدامى انفسهم محاطين بأفواج الغرباء الوافدين، مما دفعهم الى الاستمساك بمواردهم المحدودة التي كانت لهم منذ الازمان الخوالي، ولكن كان عزاؤهم على أي حال انهم استطاعوا الصمود والنجاة في خضم هذا الغرق الاكبر. . . أما في البيت الكبير فكان الضيوف ما يزالون يتوافدون لتناول الغداء، ولم يتمكن اصحابه من استعادة انماط حياتهم القديمة الا بعد رحيل شركة الموز بعد ذلك بسنوات. . . ومع ذلك فقد طرأت تغييرات أساسية على نظم الضيافة القديمة، لأن فرناندا هي التي اضطلعت الان بإقرار نظمها الجديدة. . . فإنه بتنحية اورسولا الى الخلف بعد أن طعنت في السن وفقدت البصر، وبانهماك أمارانتا في اعداد لفائف الكفن، فقد تهيأت لملكة الكرنفال الحرية في اختيار الضيوف وفرض النظم والتقاليد المنقولة عن أبويها. . . ولقد جعلت صرامتها من البيت مثابة للعادات والتقاليد القديمة في بلدة روع اهلها بالسفاهة التي كان الغرباء الوافدون يبعثرون بها أموالهم. . . وكان افاضل الناس عندها هم اولئك الذين لا صلة لهم بشركة الموز. . . وحتى جوزيه اركاديو الثاني شقيق زوجها لم يسلم من هذا التغيير، اذ اضطر الى التخلي عن هواية مصارعة الديكة مرة اخرى والالتحاق بالعمل كرئيس عمال في شركة الموز. . . وفي هذا قالت فرناندا :

- لا يصح بعد هذا ان يعود الى البيت، طالما انتقلت اليه لوثة الاغراب. . .

على هذه الصورة فرض التشدد في البيت الى حد أن اوريليانو الثاني أحس أنه أوفر راحة عند بيترا كوتيس. . . اولاً، بدعوى رفع العبء عن زوجته والتخفيف عنها، فقد نقل مقر ولائمه وحفلاته من البيت الكبير. . . وثانياً، بدعوى أن مواشيه بدأت تفقد خصوبتها ووفرتها، فقد نقل إسطبلاته وملحقاتها. . . وثالثاً، بدعوى أن حرارة الطقس اخف في بيت عشيقته، فقد نقل مكتبه الصغير الذي كان يباشر فيه أعماله. . . وعندما ادركت فرناندا انها ارملة لم يتوف زوجها بعد، كان الوقت قد فات لكي تعود الامور الى حالتها السابقة. . . واصبح اوريليانو الثاني لا يأكل في بيته الا لماما، وكانت المظاهر القليلة التي حاول ان يستر بها موقفه، مثل النوم في فراش الزوجية، من الندرة بحيث لا تقنع احدا. . . وذات ليلة طلع عليه النهار، بعامل الإهمال، وهو في مخدع بيترا كوتيس. . . بيد أن فرناندا، بعكس كل التوقيات، لم تبد أي استياء، إنما ارسلت في نفس اليوم صندوقين كبيرين مملوءين بملابسه الى دار عشيقته. . . ولقد ارسلتهما في رائعة النهار، وحرصت على أن يكون المرور بهما في وسط الشارع، حتى يستطيع كل انسان رؤيتهما، ظنا منها بان زوجها الآبق لن يقوى على احتمال هذا العار ويبادر بالعودة الى الحظيرة مطأطيء الرأس. . . ولكن هذه البادرة البطولية من جانب فرناندا كانت مجرد برهان آخر على مبلغ جهلها بطباع زوجها، الذي ابتهج بهذه الحرية التي جاءت اليه تسعى، بإقامة حفلة دامت ثلاثة أيام. . . وفي مواجهة هذه الفترة من حياة الزوجية التي التزمت فيها فرناندا بملابسها القاتمة الطويلة وحليها العتيقة وترفعها النابي عن المكان، بدت العشيقة وهي تكاد تتفجر بشباب متجدد، بملابسها الحريرية الزاهية وعينيها البارقتين بوميض الظفر والتشفي. . . وهكذا أسلم اوريليانو الثاني

نفسه اليها بعنفوان الفتوة والمراهقة. . . وكان ينحر بلا حساب عديد الأبقار والخنازير والدجاج من أجل ولائمه المتلاحقة حتى اسود الحوش ملطخاً بالدم والوحل وتكدست فيه العظام والأمعاء، الى حد انهم كانوا يفجرون الديناميت في كل وقت ابعادا للجوارح المنقضة لئلا تفقأ اعين الضيوف !. .

ولقد اصبح اوريليانو الثاني بدينا، مورد الوجه، مكورا كسلحفاة بحرية بسبب شهيته التى لا يباريه فيها أحد. . . بل إن شهرته كمضياف كبير ومبذر اكبر تجاوزت حدود اقليم المستنقعات. واجتذبت الى دار عشيقته الأكولين من الاقاليم الساحلية، فتوافد مشاهيرهم الى الدار للمساهمة في تلك الولائم الخرافية التي كانت تدور فيها المباريات بينهم، كان فيها اوريليانو الثاني الفارس المجلي والأكول الذي لا يشق له غبار. . . وظل الحال كذلك الى أن جاءت الساعة المحتومة التي اصيب فيها اوريليانو الثاني بتخمة عاتية أفقدته الوعي وبدا أنه ملاق حتفه بسببها. . . ولم يتمالك في بارقة صحو عابرة ان غمغم :

ـ خذوني الى فرناندا. . .

وهكذا حمله اصحابه الى البيت الكبير ظنا منهم بأنهم قد ساعدوه على تحقيق وعده لزوجته بألا يموت في فراش عشيقته. . . وبادرت بيترا كوتيس الى «تلميع» حذائه الفاخر الذي كان يريد لبسه في تابوته، واخذت تفكر فيمن ترسله بالحذاء، عندما جاءوها ليقولوا إنه نجا من الخطر. . . والواقع أنه ثاب من غاشية التخمة في أقل من اسبوع، وبعد اسبوعين كان يحتفل بنجاته من الموت بولائم لم يسبق لها مثيل. . . واستمر يعيش مع بيترا كوتيس، بيد أنه كان يزور فرناندا كل يوم، وكان احيانا يبقى ليأكل مع الاسرة، وكأن القدر قد عكس الموقف، وجعله زوج العشيقة، وعشيق الزوجة !. . .

كان ذلك بمثابة راحة لفرناندا. . . وفي غمرة الملل اثناء هذا الهجر، كانت تسليتها الوحيدة دروس «الكلافيكورد» وقت القيلولة والرسائل التي

كانت تكتبها لوالدها وابنتها. . . والحق ان جميع الرسائل المطولة التي كانت تبعث بها كل اسبوعين لم تتضمن سطرا واحدا يتطوي على الصدق. . . فقد حرصت على اخفاء متاعبها عن والديها. . . وكانت تهيم وحدها بين الاشباح الثلاثة الحية في البيت الكبير وشبح «جوزيه اركاديو بويندبا» مؤسس الأسرة الراحل والذي كانت اورسولا كثيرا ما تعرج على مكانه تحت شجرة الكستناء تتحدث وتناجي وتنفض متاعبها وأحزانها وكأنه لا يزال على قيد الحياة ! . .

وكان اشد ما يقلق فرناندا في سنوات الهجر تلك هو خشيتها من عودة «ميم» في إجازتها السنوية الاولى فلا تجد أباها أوريليانو الثاني في البيت. . . ولكن الوعكة التي نزلت به وضعت حدا لهذا التخوف. . . فعندما رجعت «ميم» كان الاتفاق قد تم بين الاثنين على أن يكون أوريليانو الثاني موجودا في البيت كزوج مثالي، وعلى ألا تلاحظ الصبية شيئا عن علائم الكآبة المخيمة على البيت. . . وعلى مدار شهرين من كل عام كان اوريليانو الثاني يقوم خير قيام بدور هذا الزوج المثالي، ويقيم حفلات لها تقدم فيها الحلوى ويدور فيها عزف «الكلافيكورد». . . وقد بدا جليا منذ ذلك الحين أن الصبية لم يخالطها ذلك المزاج الانطوائي الذي كان طابع الاسرة وأنها على وئام مع دنياها بغير عقد ولا اشجان، وقد تجلى هذا في عكوفها على «الكلافيكورد» في فترة القيلولة تتدرب عليه وعلى ترحيبها بصحبة الشباب الذين كان مقدمها يجيء بهم الى البيت الآمر الذي كان يوحي بأنها لم تكن بعيدة عن التطبع بطباع والدها المنبسطة السخية. . . وكانت أول علامة على هذا الميراث المحفوف بالكوارث هو قدومها الى البيت الكبير في إجازتها السنوية الثالثة برفقة اربع راهبات واربعين من زميلاتها في الدراسة اللاتي دعتهن من تلقاء نفسها الى قضاء اسبوع مع أسرتها ودون سابق اخطار ! . . .

إن فرناندا لم تتمالك ان هتفت نائحة :

ـ يا للفظاعة ! . . إن هذه الطفلة همجية مثل أبيها ! . .

ولم يكن هناك مفر من اقتراض أسرة وأراجيح نوم من الجيران. وتخصيص تسع نوبات للجلوس الى مائدة الطعام، وتحديد مواعيد للاستحمام، واقتراض اربعين مقعداً خشبياً صغيراً حتى لا تقضي الفتيات طوال نهارهن وهن يجرين من مكان الى مكان. . . كانت هذه الزيارة في الواقع فشلا ذريعا، لأن التلميذات الصاخبات كن لا يفرغن من طعام الافطار حتى تتخذ الاستعدادات لطعام الغداء، ثم للعشاء، وفي مدى الاسبوع كله لم يتسع لهن الوقت لزيارة مزارع الموز سوى مرة واحدة. . . وعند حلول الليل كانت الراهبات يغلبهن الإعياء ويعجزن عن كل أمر أو نهي، في حين تبقى الفتيات المتوثبات في الحوش يرددن الاناشيد المدرسية بنغم كله نشاز. . . وذات مرة كدن يدسن أورسولا بأقدامهن لاعتراضها الطريق وهي تظن في ظلمة بصرها أنها تخدم وتفيد. . . ومرة اخرى كادت أمارانتا ان تثير الفزع عندما دخلت احدى الراهبات عليها في المطبخ وهي تضع الملح في الحساء، وكان أول ما خطر لها أن تقوله هو السؤال عن نوع ذلك المسحوق الأبيض الذي تضعه، فردت أمارانتا بكلمة واحدة :

ـ زرنيخ ! . .

وعلى الرغم من ان بعضهن اصبن بالحمى وبلذعة البعوض، الا انهن أبدين روح الجلد الوافر وهن يقاومن اشد المصاعب. وحتى في خلال فترات الحر الملهب كن يلهون ويتواثبن في الحديقة. . . وعند رحيلهن في النهاية كانت الزهور مقطوعة، والأثاث مكسورا، والحوائط مغطاة بالرسوم والكتابة، غير أن فرناندا سامحتهن بعد ارتياحها للرحيل. . .

وفي خلال تلك الايام عاد «جوزيه اركاديو» الثاني الشقيق التوأم لرب

البيت الى الظهور فيه. . . لقد دلف في المدخل دون أن يبتدر احدا بتحية، واعتكف على الآثر مع الكولونيل اوريليانو بويندبا في مسبك المعادن. . . ولم يكن هذا التصرف مثار دهشة اورسولا عندما عرفت بحضوره من وقع خطى حذائه العمالي الثقيل، وهي التي عهدته متنائيا عن الاسرة، مختلفا عن اخيه التوأم أوريليانو الثاني على الرغم من تشابه اطوارهما في الصغر وبلبلة أفكار الاسرة والجيران بما كانا يقومان به من الخدع والاحابيل الماكرة التي يولدها هذا التشابه. . كان الان مختلفا عن اخيه تماما، ادنى الى النحول والجد والسهوم والوجوم. . . ولم يكن احد يعرف الان دقائق حياته. . . وفي فترة ما عرف انه ليس له مقر معين، وأنه يربي ديوك المصارعة في بيت بيلار تيرنيرا حيث ينام لديها احيانا. . . ولكنه كان يمضي اكثر لياليه متنقلا من مكان الى مكان، دون أن تربطه مودة بأحد، ودون ما أي هدف محدد، وكأنه نجم شارد في نظام اورسولا الكوكبي. . .

ولقد حاولت أورسولا ان تستعين بجوزيه اركاديو الثاني لحمل الكولونيل اوريليانو بويندبا على الخروج من حبسه الاختياري في المسبك، وفي هذا قالت له :

ـ اجعله يذهب الى السينما. . . وحتى اذا كان لا يحبها، فعلى الأقل سوف يتنفس بعض الهواء النقي !. .

لكنها لم تلبث ان ايقنت انه مثل الكولونيل تماما، لا يعيرها أذناً صاغية، وأن كليهما قد صيغ من معدن واحد لا تنفذ منه خوالج المودة والتآلف. . . وعلى الرغم من أنها لم تكن تعرف لا هي ولا غيرها كنه تلك الاحاديث التي يتبادلانها في المسبك، الا أنها قدرت انهما العضوان الوحيدان في الاسرة اللذان يبدو ان بينهما رابطة وثيقة. . .

وحل اليوم الحادي عشر من اكتوبر والكولونيل لا ينسى هذا اليوم

ماعاش، اذ هو اليوم الذي استيقظ فيه من نومه فوجد زوجته ريميديوس قد فارقت الحياة فجأة وتركت له مرارة الذكريات. . . ولكن «جوزيه اركاديو» الثاني لم يحضر للقائه في المسبك كعادته اخيرا، ثم تذكر انه يوم دفع الاجور في مزارع شركة الموز. . ثم بدا له ان يذهب الى الحمام، فوجد امارانتا قد سبقته اليه. . فعكف في المسبك على صنع اسماكه الذهبية، حتى اذا كانت الساعة الرابعة سمع موسيقى بعيدة صادرة عن آلات نحاسية وطبول مقترنة بصياح اطفال، ولأول مرة منذ شبابه وقع في حنين الذكريات عندما تذكر بعض ظهر ذلك اليوم الذي صحبه فيه أبوه الى مضارب «الغجر» للفرجة الى ألعابها وغرائبهم. . . وفي هذه اللحظة تركت سانتا صوفيا بيدال ما كان بيدها في المطبخ وجرت الى الباب قائلة :

ـ هذا هو السيرك ! . .

ومن عجب ان الكولونيل اوريليانو بوينديا ذهب هو ايضا الى الشارع واختلط بالمتفرجين الذين كانوا يراقبون مرور الموكب فرأى امرأة مرتدية ملابس موشاة بالذهب جالسة على رأس فيل. . . ورأى دباً في زي فتاة هولندية يواكب نغمات الموسيقى بمغرفة وإناء حساء. . . ورأى «البهلوانات» يدورون في الهواء في آخر الموكب. . ومرة اخرى ألفى نفسه في وحدته المطبقة بعد أن مر الموكب كله ولم يبق أمامه سوى الشارع المهجور الا من بعض المتفرجين المتسكعين. . . فعاد الى الداخل وقصد الى الحوش للتبول تحت شجرة الكستناء، وفي خلال ذلك حاول أن يستعيد ذكرى السيرك ولكنه لم يستطيع. . . فجلس واضعاً راسه بين كتفيه مثل كتكوت، وظل جامدا في مكانه مسندا رأسه الى جذع الشجرة. . . ولم تعثر عليه الاسرة الا في صباح اليوم التالي في الساعة الحادية عشرة، عندما خرجت سانتا صوفيا بيدال لإلقاء القمامة، فاسترعى نظرها مشهد الجوارح المحلقة فوقه. .

الفصل الثالث عشر

تصادف وقوع اجازة «ميم» الاخيرة في فترة الحداد على الكولونيل اوريليانو بوينديا، فإن البيت الموصد الابواب والنوافذ ليس بالمكان الملائم لإقامة الحفلات... كانوا يتكلمون همسا، ويأكلون سكوتا، ويرددون الصلوات والادعية ثلاث مرات يوميا... وكانت فرناندا هي التي فرضت صرامة الحداد، متأثرة بما أبدته الحكومة من تكريم لذكرى عدوها الراحل... وعاد اوريليانو الثاني للنوم في البيت الكبير اثناء اجازة ابنته، ولا بد أن فرناندا قد اوفت بمقتضيات الزوجية، اذ وجدت «ميم» في العام التالي اختاً لها وليدة تم تعميدها وتسميتها على خلاف رغبة فرناندا باسم «أمارانتا اورسولا»...

لقد أتمت «ميم» دراستها ونالت دبلوما يقرر أنها عازفة «كلافيكورد» متخصصة في حفل رسمي اقترن بانتهاء فترة الحداد، وكان ذلك ايذانا باختتام مرحلة الطفولة وانتقالها الى مرحلة الشباب... أما الحقيقة فإن «ميم» التي كانت تعاني الامرين من تزمت امها وتحكمها في كل تصرفاتها والتي كانت في دخيلتها مطبوعة على حب المرح والانطلاق، لم تختر هذا التخصص الا استرضاء للام، خصوصا وان الراهبات لم يمنعنه باعتباره ملهاة بريئة موروثة من الماضي... وفعلا كان ذلك ثمنا لحريتها المنشودة، اذ اصبحت فرناندا مزهوة ببراعة ابنتها في العزف حتى لم تعد تمانع بعد انتهاء فترة الحداد في استقدام صديقات «ميم» الى البيت وفي قضائها معهن لفترة بعد الظهر في المروج والبساتين، وفي ارتياد السينما مع ابيها اوريليانو الثاني وبعض السيدات الفضيلات طالما كان الفيلم المعروض مما يجيزه الأب

انطونيو ايزابيل. . وفي خلال فترات الاستـرواح هذه تكشفت ميـول «ميم» على حقيقتهـا. . . اذ كانت سعـادتها قـائمـة على النقيض من تـطرف أمهـا وأنظمتها الصارمة : على الحفلات الصاخبـة، والثرثـرة بأحـاديث العشاق، والخلوات الـطويلة مع صـاحبـاتهـا حيث تعلمن التـدخين، وحيث امتـدت ايـديهن الى شـراب مسكـر من عصيـر القصب أفضى بهن الى التجـرد من الملابس واستعراض اعضاء الجسد في تلك الخلوات. . .

إن «ميم» لن تنسى قط تلك الليلة التي عـادت فيها الى البيت بعـد قضاء ساعتين مشهودتين في مخدع صديقتها تضحكان بلا حساب وتذرفـان الدمع من الخوف، لتجد فرناندا وأمارانتا تتناولان طعـام العشاء دون تبـادل للكلام. . . لقد راعها مشهدهما ذاك حتى بذلت جهدا كبيرا لئلا تصارحهما بحقيقة شعورها حيالهما وتقذف في وجهيهما تزمتهما وفقر مشاعرهما وأوهام عظمتهما المصطنعة. . . والواقع ان «ميم» عـرفت منذ ثـانية اجـازة لها أن اباها يقيم في البيت الكبير ستراً للظواهر فقط. . . ولمعرفتها بأطوار امها، فقد بـدا لها ان أبـاها محق في مسلكـه. . . ولـم تتمالـك في جلستها هـذه الى المائدة ورأسها يدور مما شربته ان بدرت منها ابتسامة خبث ودهاء اذ فكرت في مـدى الفضيحة التي كـانت تحدث لـو أنهـا صـارحت الاثنتين بحقيقـة خواطرهـا. . . وإذا فرناندا التي فطنت لحالهَا تَقول لها :

ـ ماذا جرى ؟. .

فأجابت «ميم» :

ـ لا شيء. . اكتشفت الان فقط الى اي حد احبكما !. . .

إن امارانتا قد ريعت مما انطوى عليه هذا التصريح من كره دفين. . . أما فرناندا التي تـأثرت بـه فقد كـان جزعهـا هذه الليلة لا حـدود له عنـدما استيقظت «ميم» في منتصف الليل وهي تشكـو من صداع حـاد عنيف وقد

في القيء . . . فسارعت الى اعطائها زيت خروع ووضعت ت » على معدتها ومكعبات ثلج على رأسها، وألزمتها الفراش مدى يام كانت تقتصر في خلالها على الغذاء الذي وضعه الطبيب الفرنسي الوافد والذي قرر بعد الفحص مدى ساعتين انها تشكو من داء غير معهود في امراض النساء. . . ولم يكن أمام «ميم » التي انهارت كل شجاعة كانت عندها الا ان تصمد الى النهاية. . . الا اورسولا التي كانت رغم عماها المطبق محتفظة بحيويتها وشفافيتها . . فهي وحدها التي عرفت حقيقة التشخيص، اذ قالت :

ـ بقدر ما يصل اليه علمي ، فان هذا هو ما يحدث للسكارى. . .

ورغم ذلك فإنها نبذت هذه الفكرة، بل انبت نفسها للتفكير فيها. . . أما اوريليانو الثاني فقد شعر بوخز الضمير عندما رأى حالة ابنته، وأخذ على نفسه عهدا بأن يوليها رعايته في المستقبل. وهكذا كانت بداية تلك الصحبة الودودة بين الاب والابنة، تلك التي خلصته الى حين من اثقال مجونياته، وكفلت للفتاة ان تتحرر من عين فرناندا الدائمة اليقظة، ودرأت عنهم جميعا تلك الازمات العائلية التي كان محتما ان تحدث في المستقبل. . . فكان يصحبها الى السينما او السيرك، وأخرجها من غرفة نومها الكالحة التي كانت حبيسة فيها منذ أول طفولتها، وأعد لها غرفة نوم اخرى وثيرة الاثاث مزودة بكل ادوات التجميل والعطور للمرأة العصرية. . . ولقد روعت فرناندا حقا عندما شاهدت هذا المخدع، بيد أنها كانت موزعة الجهد في تلك الايام بين رعاية طفلتها الوليدة «أمارانتا اورسولا » وبين اطباء خارج ماكوندو كانت تراسلهم سرا لاستشارتهم في امور صحية تعنيها. . .

وهكذا فإنها عندما لمست هذا التواطؤ وهذا التوافق بين الاب والابنة، كان الوعد الوحيد الذي استخلصته منه هو ألا يأخذ «ميم » أبدا الى دار بيترا كوتيس. . . ولم يكن لهذا من موجب، لأن العشيقة كانت في ضيق واستياء

من هذه الصحبة بين عشيقها وابنته بحيث لم تكن تريد أن يكون لها شأن بالفتاة... ولكن لعلمها بطبيعة اوريليانو الثاني وفرط ثقتها في مبلغ سلطانها عليه، فإنها لم تنفذ ما كان يخشاه من اعادة صندوقي ملابسه المتجولين الى البيت الكبير، واستبقتهما لديها الى حين يعود اليها مستكيناً متزلفاً...

وكان بين صديقات «ميم» ثلاث فتيات امريكيات نشأت صداقة بينهن وبين فتيات ماكوندو... وكانت احداهن باتريشيا براون ابنة مستر براون من مديري شركة مزارع الموز، الذي اعرب عن امتنانه لما لقيه من كرم الضيافة في بيت اوريليانو الثاني، بدعوة «ميم» الى دارة للمشاركة في الحفلات الراقصة أيام الاحاد، وهو المكان الوحيد الذي يختلط فيه الاجانب الوافدون بالاهلين... ولكن ما أن سمعت فرناندا بهذا حتى هاجت وماجت واستنجدت بأورسولا لولا أن هذه رأت، بعكس ما كانت فرناندا تتوقع، انه لا مأخذ على «ميم» في الذهاب الى الحفلات الراقصة الخاصة هذه ومصاحبة فتيات امريكيات من سنها... بل إن «ميم» خصصت حفلاً عزفت فيه على «الكلافيكورد» فاستأثرت بأشد الاعجاب، مما هيأ للأم ان تهدأ في النهاية وتطيب خاطرا... وبعدها كانت تدعى الى حفلات السباحة ايام الاحاد وتناول الغداء مرة في الأسبوع. وقد أبدت براعة في السباحة ولعب التنس وتعلم اللغة الانجليزية، حتى أن اوريليانو الثاني ابتاع لها دائرة معارف انجليزية مصورة من ستة اجزاء كانت «ميم» تطلع عليها في وقت فراغها - الأمر الذي باعد بينها وبين الخلوات الماضية مع صاحباتها للثرثرة بأحاديث العشاق ومكاشفة بعضهن البعض بما لا يباح... بل إنها استنكرت مغامرة السكر الماضية وعدتها من قبيل الطفوليات ولم تتردد في مكاشفة والدها بها، فأغرق في الضحك وامتدح شجاعتها في الصدق، وطلب منها وعداً بأن تخبره يوم أن تقع في الحب بنفس الصراحة والصدق هذين...

هكذا رد نضج «ميم» الوئام والسكينة الى البيت الكبير، ومكن

اوريليانو الثـاني من أن يكرس وقتـا اكثر لبيتـرا كوتيس، وإن غـدا الآن اكثر اعتدالا بعد الوعكة الصحية التي ألمت به. . .

ثم قطع هذه السكينة وفاة امارانتا فجأة. . . وسرعان ما عاد الاضطراب الى البيت الكبير. . . وكانت «ميم» تعزف «الكلافيكورد» في حفل خاص خارجي عندما أبلغت النبأ، فقطعت الحفل وعادت بسرعة الى البيت، لتجد والدها اوريليانو الثاني يشق طريقه بين جمهور المعزين ليلقي نظرة على جثة العذراء العجوز بوجهها الممتقع الكالح ويدها المعصوبة بالسواد منذ مغامرتها الغرامية الفاشلة إثر انتحار بترو كريبسي، وقد سجيت في الفراش ملفوفة في الكفن الفاخر الذي تأنقت في اعداده. . .

ولم تعد اورسولا تقوم من مكانها مرة اخرى بعد أيام الحداد التسعة، وتولت سانتا صوفيا بيدال العناية بهـا. . . وكانت متعلقـة بأمـارانتا اورسـولا الصغيرة حتى علمتها القراءة. . . وفي اعتكافها هذا الذي فرضته المائة عام ونيف من عمرها، تيسر لها من الفراغ ما اصبح يمكنها من التسمع والإحاطة بكـل مـا يـدور في البيـت، حتـى كـانت أول مـن لاحظ بلوى «مـيم» الصامتة. . . فاستدعتها اليها وقالت لها :

ـ نحن الان وحدنا، فاعترفي لجدتك الكبرى العجوز بما يقلقك. . .

فتحـاشت «ميم» الحـديث بضحكـة قصيرة. . . ولم تلح عليهـا اورسـولا، ولكنها استخلصت مـا اكـد شكـوكهـا بعـد ان كفت «ميم» عن زيارتها. . . كانت تعرف أن «ميم» تستيقظ في ساعة ابكـر في الصباح من عادتها، وأنها لم تكن على استقرار وهي تنتظر ساعة الخروج المعهودة، وأنها كانت تمضي الليالي بطولها وهي تروح وتجيء في غرفة النوم المجاورة. . . وكان واضحا كل الوضوح ان «ميم» كانت منغمسة في شؤون خفية وأمـور مقلقة قبل فترةطويلة من تلك الليلة التي اقامت فيها فرناندا البيت وأقعدته بعد أن ضبطتها تقبل رجلا في السينما. . .

والواقع أن فرناندا رغم انشغالها بشؤونها الخاصة والبيتية لم تلبث هي الاخـرى ان استرعى انتبـاهها انحيـاز «ميم» الى الصمت العميق، وبـوادر الحدة الفجائيـة، واختلال المـزاج، والسلوك المتناقض من جـانب فتاتهـا، حتى قررت في النهاية ان تسهر عليها وتراقبها سرا. . وقد توسلت في هـذا بالحذر حتى لقد تركتها تمارس حريتها المحدودة في الاختلاف الى حفلات الـرقص والسباحـة لكي لا تثير ارتيـابها. . . الى أن كـانت ليلة قـالت فيهـا «ميم» انها ذاهبة الى السينما مع أبيها. . . ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى سمعت فرناندا صخب احدى الحفـلات التي درج زوجها اوريليـانو الثـاني على إقـامتها في بيت عشيقتـه بيترا كـوتيس مقترنـة بقصف الالعاب النـارية وعزف الأكورديون. . . وسرعان ما قامت فرناندا الى مـلابسها وقصـدت من فـورها الى دار السينمـا، واستطاعت في ظـلام المقاعـد ان تعرف ضحـك ابنتها. . . إن وقع المفاجأة على نفسها حال دون أن تتبين الرجل الذي كانت ابنتهـا تقبله، ولكن صوتـه المتهدج سـرى الى سمعها رغم جلبـة الضحك واللغط وهو يقول لها :

ـ أنا آسف يا حبيبتي !. .

وفي الحال انتزعت «ميم» من مكانها دون أن تقول شيئا، وعـرضتها لمهانة المرور بها في الشارع تحت انظار اصحاب الدكاكين، ثم حبستها في غرفة نومها. . .

وفي الساعة السادسة من بعد ظهر اليوم التالي عرفت فرنـاندا صـوت الرجل الذي جاء لزيارة «ميم». . . كـان شابـاً اسمر شاحـباً، تشف عينـاه السوداوان عن الاكتئاب، وتشيع في وجهه سمات حالمـة تكفي لكي تجعل أية امرأة اقل صلابة من فرناندا تفهم بـواعث ابنتها في التعلق بـه. . . وكان يرتدي بذلة رثة من التيل وحذاء لم يفلح الطلاء المتراكم في اخفاء ترقيعه، وقبعة من الخوص اشتراها منذ عهد قريب. . . وبدا أنه في كل حياته الماضية

لم يشعر بوجل ورهبة كاللذين كان يشعر بهما في هذه اللحظة، ولكن كان به من الكرامة والاعتداد ما نفى عنه المهانة، وإن نال منهما ما بدا من تلوث يديه وأظافره بآثار قدرت منها فرناندا انه ليس اكثر من ميكانيكي. . . وقد صح ظنها اذ لمحت في صدر قميصه شارة العاملين في شركة الموز. . .

ومهما يكن فإن فرناندا لم تدع له فرصة للكلام. . . بل إنها لم تدع له سبيلاً حتى للدخول من الباب الذي اصطرت بعد قليل الى اغلاقه اذ امتلأ البيت بفراش اصفر. . .

قالت له :

- اذهب ! . . . لا حق لك في الحضور وزيارة الناس الشرفاء ! . .

كان يدعى موريشيو بابيلونيا. . . ولد ونشأ في ماكوندو وعمل مساعد ميكانيكي في جراجات شركة زراعة الموز. . . وقد التقت به «ميم» مصادفة عصر يوم عندما ذهبت مع صاحبتها باتريشيا الاميركية لاستحضار سيارتها للنزهة بين البساتين. . ولما كان السائق الخاص مريضا فقد تهيأت الفرصة لميم لجلوسها الى جانب موريشيو بابيلونيا وتلقي الدرس الاول في تعليمها قيادة السيارات. . . ثم تلته دروس اخرى. . .

ويوم أن ذهبت «ميم» الى السينما مع والدها شاهدت موريشيو بابيلونيا جالسا في مقعد غير بعيد، ولاحظت انه ظل طول الوقت منصرفا عن متابعة الفيلم، متجها بكليته نحوها. . .

لقد صعقها هذا الشاب واكتسح قلبها اكتساحا. . . ولم تعبأ بوضعه المتواضع. . . وتكررت لقاءاتهما بمعزل عن أعين الرقباء. . وانما استرعى نظرها تلك الفراشات الصفراء التي كانت تحلق لدى ظهور مورشيو بابيلونيا، ولكنها قدرت أن لها ارتباطا به على نحو ما. . .

وتكررت اللقاءات، والخلوات، على مدار الايام والاسابيع، الى ان

كانت تلك الليلة التي فاجأتهما فرناندا فيها في دار السينما . . .

في أعقابها شعر اوريليانو الثاني بوقر باهظ يثقل ضميره، وزار «ميم» في غرفة نومها حيث حبستها فرناندا، واثقا أن «ميم» سوف تكاشفه بسرها على ما تعاهدا عليه . . . بيد أنها أنكرت كل شيء وأبدت من التباعد ما جعله يرى أن كل رابطة بينهما قد انتهت وأن ما حسبه صحبة ومشاركة بينهما إنما كان وهماً مضى . . . وهكذا ترك الموقف كما هو، على أمل ان احتجازها في غرفة النوم سوف يكون فيه ختام متاعبها . . . .

ولم يبدر من ناحية «ميم» ما ينم عن أي ابتئاس . . . وكان الشيء الوحيد الذي حير اورسولا بعد شهرين من العقاب هو أن «ميم» لم تعد تأخذ الحمام في الصباح مثل الباقين، بل في السابعة مساء . . . وكانت الظاهرة الغريبة هي أن الفراش الأصفر كان يجتاح البيت عند الأصيل . . . وفي كل ليلة عندما كانت «ميم» تعود من الحمام كانت ترى فرناندا في حالة حنق وهي تقتل الفراش بمبيد حشري . . . وكانت تسمعها تقول :

ـ هذا شيء فظيع ! . . . سمعتهم طول حياتي يقولون ان الفراش في الليل، يجلب الشر ! . . .

وذات ليلة دخلت فرناندا الى غرفة «ميم» بينما كانت في الحمام فوجدتها مملوءة بالفراش الى حد عجزت معه عن التنفس . . فاختطفت اقرب قطعة قماش أمامها لهش الفراش، وإذا قلبها يكاد يجمد من الرعب، اذ سرعان ما ربطت بين حمامات ابنتها المسائية وبين دواء الإجهاض الذي تدحرج من القماش على الأرض . . .

لم تنتظر فرناندا لحظة اخرى . . . وفي اليوم التالي دعت عمدة ماكوندو الجديد لتناول الغداء، وكان مثلها من اقليم المرتفعات وقد طلبت منه ان يقيم حارسا على الحوش الخلفي لشكها في وجود لصوص يسرقون

الدجاج. . . وفي نفس الليلة صرع الحارس موريشيو بابيلونيا برصاصة وهو يرفع البلاط للتسلل الى الحمام حيث كانت «ميم» تنتظره على أحر من الجمر غير عابئة بالعقارب والفراش، كما كانت تفعل كل ليلة طوال الاشهر القليلة الماضية. . . ان الرصاصة التي استقرت في عموده الفقري اقعدته الفراش بقية حياته. . . وقد مات بالشيخوخة في عزلته دون أن يبوح بشيء، تعذبه الذكريات والفراش الاصفر، مدموغا بأنه لص دجاج. . .

الفصل الرابع عشر

إن الأحداث التي كان مقدراً أن توجه الى ماكوندو ضربة قاصمة لم تلبث أن بدت بواكيرها حينما جيء بمولود « ميم بويندیا » الى البيت الكبير . . .

كان الموقف الشعبي مزعزعاً الى حد أن الناس لم يكن لديهم الاستعداد الكافي للزج بأنفسهم في فضائح شخصية، وهكذا استطاعت فرناندا أن تعتمد على جو عام مكنها من ابقاء الطفل مخفياً عن العيان وكأنه لم يوجد قط. . . ولقد اضطرت الى قبوله لأن الظروف التي جيء به فيها جعلت رفضه أمراً مستحيلاً. . . ولم يكن أمامها مناص من احتماله ضد ارادتها طوال حياتها، إذ أعوزتها الشجاعة في اللحظة الفاصلة لتنفيذ ما اعتزمته من اغراق الطفل في صهريج الحمام. . . وكذلك أغلقت عليه الباب في مسبك الكولونيل أوريليانو بويندیا. . وقد أفلحت في إقناع سانتا صوفيا بيدال بأنها وجدته في سلة طافية في النهر. . . ولسوف تموت أورسولا قبل أن تعرف منشأه. . وصدقت « أمارانتا اورسولا » الصغيرة التي دخلت عليها المسبك وهي تطعم الطفل هي أيضاً حكاية السلة الطافية . . . ولم يعرف أوريليانو الثاني الذي انفصل عن زوجته نهائياً بوجود حفيده إلا بعد ثلاث سنوات من المجيء به الى البيت الكبير، إثر فرار الطفل من الأسر نتيجة سهو من جانب فرناندا، حين ظهر في مدخل البيت الكبير مدى لحظة خاطفة عاري الجسد ملبد الشعر كمخلوق متوحش. . . وما كان لفرناندا أن تغالط نفسها وهي تعلم ان الطفل يمثل عاراً حسبت أنها تخلصت منه الى الأبد اذ اقصت ابنتها عن البيت . . .

فعندما حملوا موريشيو بابيلونيا من البيت وقد تحطم عموده الفقري، وضعت فرناندا خطة رتبت تفاصيلها بكل دقة مستهدفة ازالة كل اثر لتلك الكارثة. . ودون ما استشارة لزوجها حزمت حقائبها ووضعت لإبنتها الملابس الضرورية في حقيبة صغيرة وذهبت اليها في غرفة نومها قبل وصول القطار بنصف ساعة وقالت لها :

ـ هيا بنا . . .

لم تبادرها بأي بيان أو تفسير. . . ومن ناحية « ميم » فإنها لم تتوقع غير هذا. . . انها فقط لم تعرف الى أين تذهبان، بل كان سياناً لديها لو كانوا سيذهبون بها الى المجزر. . إنها لم تفه بكلمة واحدة ولن تفوه بكلام مدى حياتها، منذ اللحْظة التي سمعت فيها صوت العيار الناري في الحوش وصيحة الألم التي اقترنت بها صادرة من موريشيو بابيلونيا. . . وعندما أمرتها أمها بالخروج من غرفة نومها لم تمشط شعرها ولم تغسل وجهها، ودلفت معها الى القطار وهي تمشي كمن يمشي في نومه، ولم تلاحظ حتى الفراش الأصفر الذي ما فتىء يصاحبها. . . ولم تعرف فرناندا قط ولا حاولت ان تعرف إن كان ذلك الصمت المطبق وليد تصميم جازم أو ان الفتاة قد أصيبت بالخرس من وطأة الفاجعة. . . وظل ذلك حالها اثناء الرحلة الطويلة في القطار وفي السفينة النهرية التي اقلتهما الى تلك المدينة البعيدة القائمة وراء التلال. . . وغداة وصولهما صحبتها فرناندا الى مبنى قاتم عرفت فيه « ميم » الدير الذي ربيت فيه لكي تصبح ملكة، وعندها فقط أدركت انهما وصلتا الى خاتمة المطاف. . وبينما كانت فرناندا مجتمعة بشخص في المكتب المجاور، وقفت « ميم » تنتظر في بهو الاستقبال وهي لا تكف عن التفكير في موريشيو بابيلونيا، الى أن أقبلت راهبة مبتدئة موفورة الحسن من غرفة المكتب وبيدها حقيبة ملابسها الصغيرة، فأخذت بيدها دون توقف قائلة :

ـ تعالي معي. . .

وكانت آخر مرة رأتها فيها فرناندا وهي تمشي الى جانب الراهبة عندما أغلق الباب الكبير خلفها. . . وفي كل ذلك لم تكف « ميم » لحظة عن التفكير في موريشيو بابيلونيا وهالة الفراش التي تلاحقه، ولن تكف عن هذا التفكير طوال حياتها. .حتى ذلك اليوم البعيد من أيام الخريف عندما توفيت بالشيخوخة وقد تغير اسمها وحلق شعرها ودون ما كلمة واحدة فاهت بها. .في مستشفى قاتم بمدينة كراكاو. . .

وعادت فرناندا الى ماكوندو في قطار يحرسه جنود البوليس المسلحون. . . ولاحظت أثناء الرحلة جو التأزم الذي كان يسود الركاب، والاستعدادات العسكرية في البلدان القائمة على طول الطريق، مما استشفت منه قرب وقوع أحداث خطيرة. . بيد أنها لم تعرف حقيقة الموقف إلا عند وصولها الى ماكوندو، حيث علمت ان جوزيه اركاديو الثاني شقيق زوجها التوأم يقوم بتحريض عمال شركة زراعة الموز على الإضراب. . . فلم تتمالك فرناندا ان قالت لنفسها :

ـ هذا ما كان ينقصنا. . فوضوي في العائلة !. .

والواقع ان جوزيه اركاديو الثاني كان بعد المصادمات الأولى بين الشركة الأجنبية وبين العمال المطالبين بتحسين اوضاعهم الاجتماعية قد استقال منها منضماً الى جانب العمال. . . وعلى الأثر اتهم بأنه عميل لمؤامرة دولية ضد الأمن القومي. . وذات ليلة في اسبوع اتسم بالشائعات المبلبلة للأفكار نجا بمعجزة من اربع رصاصات اطلقها عليه مجهول وهو يغادر احد الاجتماعات السرية. . وكان الجو السائد طيلة الشهور التالية بالغ التأزم الى حد أن أورسولا احست به حتى وهي في ركنها المظلم بالبيت الكبير، ويبدا لها أنها تعيش مرة اخرى في حياة المخاطر عندما سلك ابنها الكولونيل أوريليانو بويندبا مثل هذه المسالك المهلكة. . . وقد حاولت ان تكلم جوزيه اركاديو الثاني ناصحة « محذرة » ، غير ان اوريليانو الثاني أخبرها ان احداً اصبح لا

يعرف مكانه منذ الليلة التي تعرض فيها للاعتداء على حياته. . . فما كان من أورسولا إلا أن هتفت قائلة :

ـ مثل أوريليانو تماما!. . كأن التاريخ يعيد نفسه!. .

أما فرناندا فكانت معرضة عن أحداث تلك الأيام. . . فلم يكن لها أي اتصال بالعالم الخارجي منذ تلك المشادة العنيفة التي حدثت بينها وبين زوجها بعد ان قررت وحدها مصير ابنتها بإدخالها الدير. . . وكان أوريليانو الثاني على استعداد لإنقاذ ابنته بمساعدة البوليس اذا لزم الأمر، بيد ان فرناندا أطلعته على أوراق تثبت ان « ميم » دخلت الدير بمحض ارادتها الحرة. . . والواقع ان « ميم » وقعت مرة على وثيقة تتضمن هذا المعنى، وقد فعلت هذا بنفس اللامبالاة التي كانت منها عندما اقتيدت الى هذا المصير. . . ومع أن أوريليانو الثاني لم يؤمن بمصداقية هذا الإجراء وشرعيته، إلا أنه وجد فيه ما يريح ضميره، لكي يعود دون ما وخز من ضمير الى حظيرة بيترا كوتيس والى لياليه وحفلاته الصاخبة الماجنة. . . وأما فرناندا التي اعارت أذناً غير صاغية لقلاقل البلدة وتنبؤات أورسولا المتوجسة، فلم تلبث أن مضت في خطتها الشاملة الى النهاية، اذ كتبت الى ابنها « جوزيه أركاديو » البعيد في المدرسة العليا والذي كان يوشك على التخرج في دراساته اللاهوتية تبلغه فيها ان اخته « ميم » قد توفيت الى رحمة الله نتيجة لعدوى وبائية. . . ثم عهدت بابنتها الصغيرة « أمارانتا أورسولا » الى رعاية سانتا صوفيا بيدال جدتها. . . وبعد ذلك تفرغت لمراسلاتها مع اطبائها الخصوصيين طالبة تحديد موعد لإجراء عملية استئصال لذلك الورم الذي شخصوه في الرحم. . غير انهم ردوا عليها مستصوبين ارجاء العملية بالنظر الى حالة الاضطرابات المشتدة في ماكوندو. . . ولكنها عادت تخبرهم في رسالة جديدة أن الموقف ليس بالخطورة التي تصوروها، وأن كل ما يحدث هو نتيجة تهوس من جانب شقيق لزوجها تورط في هذه الأعمال بعد أن

كان يضيع وقته في مصارعة الديوك وما الى ذلك من العبث . . .

وظلت الشهور تمضي وفرناندا في هذا التعارض بينها وبين الأطباء الى أن جاء ذلك الاربعاء الحار الذي أقبلت فيه راهبة مسنة تطرق الباب ومعها سلة صغيرة. . . وعندما فتحت سانتا صوفيا بيدال الباب حسبت القادمة تحمل هدية وحاولت ان تأخذ منها السلة الصغيرة التي كانت مغطاة بمفرش مطرز جميل. . . غير أن الراهبة حالت دونها قائلة إن عندها تعليمات دقيقة بأن تعطي السلة شخصياً وبصورة سرية الى « الدونا فرناندا ديل كاربيو دي بويندیا » . . كان في السلة ابن « ميم » المولود. . . وقد أبلغتها رئيسة الدير ومربيتها الروحية السابقة في رسالة خاصة أنه ولد منذ شهرين، وأنهم تصرفوا من تلقاء أنفسهم فسموه أوريليانو، باسم جده، نظراً لأن أمه لم تفتح فمها لتخبرهم برغبتها في هذا الشأن. . . ولقد ثارت فرناندا في دخيلتها ضد هذه الخدعة القدرية، بيد أنها سيطرت على أعصابها لإخفاء شعورها عن الراهبة، وقالت لها باسمة :

ـ سنقول لهم إننا وجدناه في سلة طافية في النهر. . .

فقالت الراهبة :

ـ لن يصدق احد هذا. . .

فردت فرناندا قائلة :

ـ اذا كانوا قد صدقوه في الماضي، فلم لا يصدقونه الان ؟!. .

وتناولت الراهبة طعام الغداء في البيت انتظاراً لعودة القطار. وعملاً بالتوجيهات التي صدرت اليها، لم تذكر شيئاً عن الطفل، ولكن فرناندا عدتها شاهداً غير مرغوب فيه على عارها، وتحسرت على انقراض تلك العادة التي كانت متبعة في العصور الوسطى، من شنق الرسول الذي يحمل انباء مشؤومة!. . وعند هذا الحد قررت ان تغرق الطفل في الصهريج حالما ترحل الراهبة، غير أن قلبها لم يكن بهذه القوة، وآثرت ان تنتظر صابرة الى

أن تسنح لها الفرصة المواتية للخلاص منه . . .

وكان أوريليانو الصغير قد أتم العام الأول من عمره عندما اشتدت الأزمة بين العمال وبين شركة زراعة الموز الى حد اعلان الإضراب الذي تطور الى أعمال للعنف وإتلاف للمزارع . . . وبقي الموقف على تأزمه حتى أصدرت السلطات المحلية بيانا دعت فيه العمال الى الاجتماع في ماكوندو للاستماع الى القائد العسكري والمدني للاقليم الذي سيصل في اليوم التالي للتوسط في الخلاف الناشب ووضع حد له بما يرضي الفريقين . . .

وكان جوزيه اركاديو الثاني بين الجماهير التي احتشدت في ميدان المحطة والتي قدر عددها بما لا يقل عن ثلاثة آلاف. . . ولاحظ أن القوات قد حاصرت المكان مزودة بمدافع رشاشة. . . وما أن انتصف النهار حتى سرت شائعات تقول ان القائد قد اجل حضوره الى اليوم التالي . . . وبعدها اعتلى قائد القوة المنصة وأعلن في الميكروفون نص الأمر الصادر من الحاكم العسكري يصف المضربين بأنهم مجموعة من المشاغبين وأنه خول القوات اطلاق النار عليهم اذا لم يبادروا بالتفرق . . .

وفي غمار الهياج والهرج الذي ساد على الأثر لم يستطع احد ان يعرف على وجه التحديد كيف بدأ اطلاق النار وكيف اصبح الميدان كله ساحة اختلط فيها الحابل بالنابل وتدافع الناس في كل مكان يلتمسون النجاة بأنفسهم من وابل الرصاص . . .

وبعدها استمر تعقب زعماء الإضراب واقتناصهم واحداً بعد الآخر. . .

وكان جوزيه أركاديو الثاني إثر افلاته مختبئاً في غرفة مالكويداس عندما طرق الباب ليلاً بكعوب البنادق ودخل ستة جنود بقيادة ضابط لتفتيش البيت بحثاً عن الهارب والمطر يقطر من ملابسهم في إبان عاصفة مطيرة استمرت

أياماً وليالي بعد جفاف طويل. . وكان أوريليانو الثاني موجوداً بعد ان عاقه المطر الغزير عن الانتقال الى بيت عشيقته. . . ودون ما كلمة اخذوا يفتشون البيت غرفة غرفة من قاعة الاستقبال الى المطبخ. . . وقد استيقظت أورسولا عندما سلطوا الضوء عليها، فلم تكد تتنفس اثناء عملية التفتيش، وجعلت اصابعها على شكل صليب أخذت توجهه الى حيث كانوا يوالون تفتيش بقية الغرف. . . وفي خلال ذلك استطاعت سانتا صوفيا بيدال تحذير ابنها جوزيه اركاديو الثاني حيث كان نائماً في غرفة مالكويداس، بيد أنه رأى أنها جاءت بعد فوات الأوان وأنه يستحيل عليه الهرب. . . وبعد أن أغلقت عليه الباب بالقفل لبس قميصه وحذاءه وجلس على حافة السرير الصغير منتظراً حضورهم. . وفي تلك اللحظة كانوا يفتشون غرفة المسبك. . . فقد أمر الضابط جنوده برفع القفل وسلط ضوء مصباحه بحركة شاملة في أرجاء الغرفة، ولما رأى الدواليب الزجاجية وزجاجات الأحماض سأل أوريليانو الثاني ان كان يشتغل بسبك المعادن، فأجاب أن هذا مسبك الكولونيل أوريليانو بويندبا. . . فهز الضابط رأسه هزة العارف وتناول اناء كان به مجموعة من الاسماك الذهبية الصغيرة، وبعد ان فحصها ملياً قال وقد هزته عاطفة انسانية :

ـ بودي ان آخذ واحدة منها اذا أمكن. . . في وقت ما كانت هذه الأسماك رمزاً للعمل السري، أما الآن فهي شيء تذكاري. .

فأعطاه اوريليانو الثاني ما طلب. . . ووضع الضابط السمكة في جيب قميصه قائلاً :

ـ هذا تذكار جميل. . . ان الكولونيل أوريليانو بويندبا كان واحداً من عظماء رجالنا . . .

ومع ذلك فإن هذه البادرة الانسانية لم تغير من سلوكه الوظيفي وعند

باب غرفة مالكويداس التي أعيد اغلاقها بالقفل حاولت سانتا صوفيا بيدال التعلق بأمل أخير، فقالت :

ـ لم يسكن أحد في هذه الغرفة منذ عشرات السنين . . .

ولكن الضابط امر بفتحها، وسلط ضوء مصباحه عليها. . وأبصر أوريليانو الثاني وأمه عيني أخيه جوزيه أركاديو الثاني في اللحظة التي مر فيها شعاع الضوء على وجهه، وشعرا بأن النهاية قد حانت. . . بيد ان الضابط استمر في فحص الغرفة بالمصباح ولم يبد منه اهتمام بأي شيء. . . وكان جوزيه أركاديو الثاني جالساً على حافة الفراش على إستعداد للذهاب وقد اشتدت على وجهه علائم الرصانة والسهوم. . . ووقف الضابط برهة موجهاً نظره الى الفراغ الذي كانت فيه الأم وابنها يبصران فيه جوزيه اركاديو الثاني وقد أدركا ان الضابط كان ينظر ايضاً دون ان يبصره. . . وما لبث الضابط ان أطفأ المصباح وأغلق الباب، ثم قال لرجاله :

ـ من الواضح ان احداً لم يكن في هذه الغرفة منذ مائة سنة على الأقل. . ولا بد ان فيها ثعابين ايضاً . . .

منذ هذه اللحظة زاد جوزيه اركاديو الثاني اقتناعاً بأن غرفة مالكويداس هي حصنه الحصين وملاذه من الخوف في العالم الخارجي المضطرب بالقلاقل والحروب، ففي جوها الخارق عمي الضابط عن رؤيته، وفي رحابها بات يشعر بالسكينة والراحة النفسية التي طالما افتقدهما طوال حياته الماضية. . وهكذا كرس جوزيه اركاديو الثاني نفسه للاطلاع على مخطوطات مالكويداس ومحاولة اكتشاف رموزها. . ولقد اصبح صوت سقوط المطر معهوداً في سمعه، وكان الشيء الوحيد الذي يقلق عزلته هو تردد أمه سانتا صوفيا بيدال عليه بالطعام، فطلب منها ان تضعه على حافة النافذة وتغلق الباب بالقفل. . . ثم نسيته العائلة، بما فيها فرناندا التي لم

تمانع في تركه هناك بعد ان وجدت ان الجنود رأوه دون أن يبصروه. . . وبعد ستة أشهر رفع أوريليانو الثاني القفل عن الباب طلباً لشخص يتحدث اليه الى ان ينقطع هطول المطر المتواصل. . . وما كاد يفتح الباب حتى صدمته الروائح المنبعثة من الغرفة ووجد أخاه جوزيه أركاديو الثاني الذي عراه الصلع ما يزال عاكفاً على قراءة المخطوطات ومحاولاً فك طلاسمها في وهج خفي نوراني يتخللها . . . ولم يكد يرفع عينيه حتى سمع صوت فتح الباب، بيد ان تلك النظرة كانت كافية لكي يعرف فيه اوريليانو الثاني مصير جده الأكبر الذي كان ذلك مآله . . .

كان جوزيه أركاديو الثاني لا يفتأ يردد هذه العبارة :

ـ كانوا اكثر من ثلاثة آلاف في ميدان المحطة. . . لقد حصدهم الرصاص حصداً، ونقلت جثثهم في القطار حيث ألقي بهم ليلاً في البحر ! . .

الفصل الخامس عشر

انهمرت الأمطار في ماكوندو. . . وظلت تنهمر مدى أربع سنوات، وأحد عشر شهراً، وثلاثة أيام . . .

وكانت تحدث فترات يقل فيها انهمار المطر الى رذاذ، فكان الناس يخرجون من بيوتهم احتفاء به، ثم لا يلبثون ان يجدوها فترة صحو عابرة يتضاعف بعدها انهمار المطر. . .

وكانت السماء ترسل عليهم عواصف مدمرة، ومن الجانب الشمالي كانت تهب اعاصير تنتزع السقوف وتقوض الجدران وتستأصل زراعات الموز من منابتها. . . وفي البيت الكبير اضطروا الى حفر قنوات لتسريب مياه الأمطار الى الخارج والعمل على تجفيف الأرضيات تخلصاً من الضفادع والقواقع المتخلفة، والأسماك أحياناً . . .

وفي خلال ذلك احتبس اوريليانو الثاني في البيت بعد ان كان قد عرج عليه لبعض شأنه، مؤملاً ان يتحسن الطقس ليعود الى بيت عشيقته بيترا كوتيس . . .

ومضى عام على هذه الحال تشاغل خلاله بالانهماك في اصلاح ما أفسده المطر من أبواب ونوافذ البيت وسائر أثاثه دون ان يتوقف انهمار الأمطار . . .

وفي خلال هذه الفترة وقع ذلك التهاون الذي كان من جرائه ظهور اوريليانو الصغير في مدخل البيت وما أدى اليه من تصرف جده اوريليانو

الثاني على هويته. . . فقص شعره، وكساه بعد عري، وعلمه ألا يخاف من الناس. وبعد فترة وجيزة بدا واضحاً أنه من سلالة بوينديا بما لا يدع مجالاً لأي شك : بعظام الخدين العالية، وسمات الانطواء والعزلة. . . وكان ذلك مبعث ارتياح فرناندا. . فلو كانت تعلم ان اوريليانو الثاني سيسلك هذا المسلك وسيسر بصيرورته جداً، لما عرضت نفسها لكل ما تعرضت له من عناء وكرب. . . وأما « أمارانتا أورسولا » الصغيرة التي بدلت أسنانها فقد وجدت في ابن اختها لعبة تلهو بها في مواجهة متاعب الامطار. . . ولم يلبث اوريليانو الثاني ان تذكر دائرة المعارف الانجليزية المصورة التي بقيت سالمة في غرفة « ميم » القديمة. . . فبدأ يطلع الطفلين على الصور، خصوصاً صور الحيوانات، وانتقل من ذلك الى الخرائط وصور الأقطار البعيدة ومشاهير الناس. . . ولما كان لا يعرف اللغة الانجليزية ولم يكن بوسعه ان يتعرف الا على المدائن المشهورة وأبرز زعمائها، فقد كان يخترع الأسماء والأساطير اختراعاً لإشباع فضول الطفلين الذي لا يرتوي .

وكانت فرناندا تعلم يقيناً أن زوجها ينتظر تحسن الأحوال الجوية لكي يعود الى معشوقته بيترا كوتيس. . . ومع ذلك لم تتضايق لأن علتها التي كانت تخفيها عن كل انسان وهي تورم الرحم والتي كانت تراسل بسببها اطباءها الخصوصيين البعيدين عنها، أصبحت حائلاً بينها وبين زوجها. . والآن وقد أدى استمرار هطول الأمطار الى قطع كل سبل التراسل والاتصال، فلم يكن أمامها سوى الاعتصام بالصبر والانتظار. . .

وزادت الأحوال الجوية سوءاً حتى لم يعد أحد يخرج الى الشارع. . . وبلغ من تشاؤم أورسولا ان قالت إنها لا تنتظر سوى انقطاع الأمطار لكي تقضي نحبها وتستريح . . .

والواقع أن حالة الشوارع ازعجت اوريليانو الثاني، وتزايد انزعاجه

بشأن مواشيه، حتى اضطر أخيراً أن يغطي رأسه بمشمع ويذهب الى بيت بيترا كوتيس. . . فوجدها في الحوش غارقة في المياه الى وسطها وهي تحاول تعويم جثة حصان. . . فساعدها بواسطة رافعة حتى أمكن دفع الجثة الى تيار الوحل المتدفق ليحملها بعيداً . . وكان هم بيترا كوتيس منذ بدأت الامطار هو تطهير الحوش من الحيوانات الميتة. . وخلال الأسابيع الأولى كانت تبعث برسائل الى أوريليانو الثاني لاتخاذ الاجراءات العاجلة التي يقتضيها الموقف بعد ان زاد تفاقماً، فكان يرد عليها بأنه لا لزوم للعجلة، وان الوقت سيكون متسعاً للتفكير في ما يجب عمّله بعد ان ينكشف الجو. .وكان مما قالته ان مراعي الخيل قد غمرتها المياه، وان المواشي تهرب الى المناطق المرتفعة حيث لا يوجد ما تاكله وحيث تكون تحت رحمة الوحوش والامراض. . . والواقع ان بيترا كوتيس كانت ترى الحيوانات تنفق جماعات، وكانت تعمد الى ذبح بعضها وهي غارقة في الوحول. . . بل رأت وهي عاجزة عن أي فعل ان الفيضان كان يستأصل بكل قسوة ثروة كانت معدودة في وقت من الأوقات اضخم ثروة في ماكوندو، ثم ذهبت بدداً. . . وعندما قرر أوريليانو الثاني في النهاية أن يذهب اليها ليرى ما هو حادث، لم يجد سوى جثة حصان وبغل قذر في الإسطبل. . . ولما رأته بيترا كوتيس تلقته بنظرة لا هي نظرة دهشة أو فرحة أو استياء، وابتسمت سخرية قائلة :

ـ جئت في وقتك ! . .

لقد تقدمت بها السن، وبدت كتلة عظام وجلد، وغدت عيناها الوحشيتان مستأنستين مكتئبتين بطول النظر الى الامطار. . . ولبث اوريليانو الثاني في بيتها أكثر من ثلاثة أشهر، لا لأن المقام فيه كان أفضل من بيت اسرته، ولكن لأنه احتاج الى كل هذه المدة لكي يحزم امره ويضع قطعة الشمع الواقية فوق رأسه مرة اخرى ! . . . وخلال الاسبوع الأول من اقامته اعتاد ما فعلته الأمطار والزمن بمحاسن عشيقته، وشيئاً فشيئاً غدا يراها كما

كانت تبدو له في ماضي ايامها المليئة بالمغريات، ولكنها صدته عنها برفق، مذكرة اياه بما فعلت بهما الأيام والسنون، مما لا يدع مجالاً لأي عبث أو فتون . . .

وعاد أوريليانو الثاني الى البيت الكبير مع حقائب ملابسه وقد اقتنع بأنه ليست فقط أورسولا هي التي كانت تنتظر انقطاع الأمطار لكي تموت، بل كل سكان ماكوندو. . . فقد أبصرهم في الطرقات جاثمين في ردهات بيوتهم بأذرع مشبكة وأعين محدقة في الأمطار التي لا تنقطع، حتى ما عاد لتعاقب الأيام والأسابيع والشهور حساب عندهم. . . ولكن الطفلين تلقيا عودته بالاحتفال والفرح، ومرة اخرى كان يصحبهما الى غرفة « ميم » ليريهما دائرة المعارف الانجليزية المصورة ويلاعبهما باللعب المتخلفة في الغرفة. . . وظلت الأيام تمضي على هذه الوتيرة الى ان جاء يوم قالت له فيه زوجته فرناندا إنه لم يبق في « الكرار » من القوت إلا ثلاثة أرطال من اللحم المقدد وكيس أرز واحد. . . فقال لها :

ـ وماذا تريدين مني أن أفعل من أجل هذا ؟ . .

فردت فرناندا قائلة :

ـ لا أعرف. . هذا اختصاص الرجال. . .

فقال أوريليانو الثاني :

ـ لا بأس. . . سنفعل ما يمكن عندما يتكشف الجو. . .

كان اوريليانو الثاني اكثر اهتماماً بدائرة المعارف المصورة منه بالشؤون المعيشية، حتى عندما راض نفسه على الاكتفاء بمزقة لحم وقليل من الأرز في طعام الغداء. . وكان يقول لزوجته :

ـ لا يمكن ان تستمر الأمطار الى آخر حياتنا. . . أما الآن فيستحيل عمل أي شيء ! . .

وبقدر ما كان رصيد « الكرار » يتناقص ويتضاءل، كان اهتياج فرناندا يشتد ويتزايد، الى ان تفجرت غضبتها المكظومة حتى صارت كالسيل الدافق، اذ بدأت ثورتها العارمة في الصباح وامتدت طيلة النهار وهي تدور في أرجاء البيت شاكية انهم ربوها في بيت أبويها كملكة لكي تصبح في النهاية خادمة في بيت مجانين مخبولين، مع زوج كسول عربيد يستلقي على ظهره انتظاراً لخبز ينزل عليه من السماء، بينما تكد هي وتكدح طول النهار لتدبير شؤون بيت مفكك الأوصال لا صلاح لأمره. . .

أما اوريليانو الثاني فقد ظل يستمع الى هديرها الساعات وهو جامد الملامح وكأنه أصم. . . ولم يرد عليها ولم يقاطعها حتى كاد النهار ان ينصرم، وعندها لم يطق صبراً، قال لها :

ـ أرجوك أن تسكتي! . .

ولكن فرناندا بالعكس زاد صوتها ارتفاعا قائلة :

ـ لا سبب يدعوني الى السكوت! . . من لا يريد ان يسمعني فليذهب الى أي مكان آخر! . . .

عندئذ فقد أوريليانو الثاني كل سيطرة على اعصابه، وفي سورة الاحتدام التي تملكته راح يحطم أصص الزهور والأطباق والكؤوس وكل ما يمكن تحطيمه، حتى تناثر الحطام في كل مكان. . . بل امتدت سورته الى الصور الزيتية المعلقة فمزقها تمزيقاً، والى أواني المطبخ فهشمها تهشيماً. . . ثم غسل يديه، وألقى قطعة المشمع الواقي على رأسه وخرج. . . وقبل منتصف الليل عاد ومعه مزق من اللحم المقدد، وبعض أكياس الأرز والقمح، وعنقود موز أعجف. . وبعدها لم يعد البيت يشكو نقصاً في القوت . . .

وفي خلال ذلك كان الصغيران امارانتا أورسولا وأوريليانو يتذكران

الأمطار كشيء جالب للبهجة . . وعلى الرغم من صرامة فرناندا فإنهما كانا يلهوان بفقاقيع المياه في الحوش ويقتنصان السحالى ويقومان بتشريحها بدعوى أنها تعمل على تسميم الحساء بالغبار الذي تنثره اجنحة الفراش، وذلك في غفلة من فرناندا وسانتا صوفيا بيدال . .

وكانت أورسولا هي لعبتهما المفضلة . . . كانا ينظران اليها على انها « عروس » كبيرة مكسورة ينقلانها من مكان الى آخر . . . وكادا مرة أن يفقأا عينيها بمقص تقليم الزهور كما كانا يفعلان بالضفادع . . وما كان لشيء ان يستهويهما ويمتعهما سوى شطحات شرود العقل التي كانت تلم بها في العام الثالث من تساقط الأمطار المستمر، وفيها كانت تفقد الإحساس بالواقع وتخلط الزمن الحاضر بعهود حياتها الماضية، اذ يمضي الوقت وهي تبكي أقرباء لها ماتوا منذ أزمان غابرة، وتحسب الحفيدين أبناءها المغيبين تحت الثرى . . ثم كانت تعود الى الصحو والرشد فتذكر رجلاً جاء الى البيت الكبير بتمثال للقديس يوسف طالباً حفظه الى أن ينقطع المطر فيعود لاسترداده . . فكان من جراء ذلك ان تذكر اوريليانو الثاني الثروة المدفونة في مكان لا يعرفه سوى آورسولا ، ولكن كل ما توسل به من الاسئلة والمناورات لم يفلح في استدراجها الى البوح بالسر، اذ إنها برغم خبالها قد بقيت لها بارقة تعقل جعلتها تحرص على الاحتفاظ بالسر الا للرجل الذي يقدم الدليل على أنه هو صاحب الكنز الذهبي الدفين . . . بل لقد بلغ من فكرها وتدقيقها أنه عندما لقن اوريليانو الثاني واحداً من بطانة مباذله ومجونه للتقدم الى العجوز على أنه هو صاحب الثروة، لم تزل اورسولا بهذا الدعي تستجوبه وتضيق الخناق عليه بأسئلتها الماكرة حتى تخلى اوريليانو الثاني في النهاية عن المحاولة . . .

وكما ان لكل شيء بدايته، فلكل شيء في الحياة نهايته . . . فذات يوم من أيام شهر يونيو بعد تلك السنوات المطيرة الطوال، بدأت الأمطار تقل،

والسحب تنقشع، ويبدا واضحاً بين لحظة وأخرى ان الجو يوشك ان يتكشف... وهذا ما حدث.. ففي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة اضاءت السماء بأشعة قرمزية لشمس مترنحة، وبعدها لم يسقط المطر مرة أخرى مدى عشر سنوات ..

وكانت ماكوندو قد استحالت الى خرائب... ففي الشوارع تناثرت بقايا الأثاث المحطم وهياكل الحيوانات.. وغدت البيوت التي بنيت على عجل للعاملين في زراعات الموز قاعاً صفصافاً بعد أن فر منها سكانها، وقوضت شركة زراعة الموز ذاتها منشآتها ومرافقها.. أما الناجون من الكارثة من سكان ماكوندو الأصليين فقد وجدهم أوريليانو الثاني عند خروجه أخيراً لتفقد الأحوال جالسين في وسط الشوارع يستمتعون بدفء الشمس، فرحين باستعادة البلدة التي ولدوا فيها رغم الدمار الذي حل بها...

وكانت بيترا كوتيس هي أكثر سكان البلدة تجلداً... فقد شاهدت الدمار الشامل لإسطبلاتها، واكتساح العاصفة لمخازن حبوبها، بيد أنها أفلحت في استبقاء بيتها قائما... ولما رأت تقاعس أوريليانو الثاني عن نجدتها عندما استغاثت به أكثر من مرة، أقسمت على ان تعمل لاستعادة الثروة التي بعثرها عشيقها ثم أتى عليها الفيضان... ولقد كان عزمها في هذا القرار راسخاً الى حد أنه عندما زارها أوريليانو الثاني بعد ثمانية أشهر من رسالتها الأخيرة اليه، ألفاها ممتقعة غائرة العينين، ولكنها كانت تكتب ارقاماً في قطع صغيرة من الورق لاستئناف عملية يانصيب « الكارتيلا » السالفة... لقد دهش أوريليانو الثاني حقا، أما هي فقد بدا لها لفرط ما رأته من علائم التشعث في مظهره ان القادم ليس عشيقها، بل شقيقه التوأم... وقال يعبر لها عن دهشته :

ـ أنت مجنونة... إلا اذا كنت ستعرضين في الكارتيلا... العظام!..

وعندئذ طلبت منه أن ينظر في غـرفة النـوم. . فرأى أوريليـانو الثـاني بغلاً. . كان جلده ملتصقاً بعظامه مثل صاحبته، بيد أنه كان حياً ومتمـاسكاً مثلها أيضاً. . لقد اطعمته بيترا كوتيس من غضبها، وعندما لم يبق لديها قمح ولا عليقة ولا جذور، آوته في غرفة نومها، وجعلت تطعمه قماش الشيت، ثم السجاد، ثم الستائر المخملية، ثم مظلة السريـر الموشـاة بخيوط الذهب. . وكلها من مخلفات غرفة النوم الفاخرة التي افتتن أوريليانو الثاني في تأثيثها بها عندما كان في أوج النشوة والافتتان . .

الفصل السادس عشر

كان على أورسولا ان تبذل جهد كبيراً لكي تفي بنبوءتها أن تموت بعد انقطاع الأمطار. . . فإن موجات الصحو والشفافية التي كانت تلم بها نادراً إبان فصل الأمطار، غدت كثيرة بعد ان بدأت الرياح الجافة تهب على البلدة وترد اليها بعض الذاكرة. . . ولقد بكت أورسولا الى حد العويل والندب عندما اكتشفت ان الطفلين أوريليانو وأمارانتا أورسولا جعلا منها العوبة يتقاذفانها على مدار ثلاث سنوات ونيف. . . ولأول مرة منذ وفاة ابنتها أمارانتا قامت من الفراش بغير مساعدة من أحد لكي تشترك في حياة الأسرة من جديد، وكان لها من روح العزم في قلبها الذي لا يقهر ما جعلها تدرج في أرجاء البيت رغم عماها مستهدية بحواسها الأخرى. . . ومنذ قومتها تلك لم تسمح لنفسها بلحظة راحة، بل جعلت كل افراد الأسرة يشاركونها في تنظيف البيت وإصلاح ما أفسدته الأمطار من متاع وأثاث. . الى أن وصل بها المطاف الى غرفة مالكويداس المغلقة بالقفل من الخارج تنفيذاً لمطلب جوزيه اركاديو الثاني من أمه سانتا صوفيا بيدال ألا تفتحها إلا بعد وفاته. . . فقد أصرت على أن يفتحوا لها الغرفة خصوصاً وقد تذكرت انه في احدى الليالي المطيرة. . جاءت شلة من الجنود وفتشت البيت بحثاً عن جوزيه أركاديو الثاني ولم تستطع اكتشاف وجوده. . . ولما نزلوا على اصرارها كادت تسقط في المدخل من فساد الهواء لولا ان تعلقت بالباب، هاتفة وكأنها رأت ما بالداخل :

ـ الرحمة يا ربي ! . . علمتك طول حياتي النظافة يا بني، فإذا بك تنتهي مثل خنزير ! . . .

كـان جـوزيـه أركـاديـو الثـاني لا يـزال عـاكفـاً على فـك طـلاسـم المخطوطات. . . وكان الشيء البادي منه هو الشعر القليل المتناثر في رأسه وأسنانه المخضرة وعيناه الجامدتان. . . وعندما سمع صـوت جدتـه الكبرى ادار رأسه نحو الباب وحاول الابتسام، ولم يسعفه من الكـلام سوى العبـارة التي طالما سمع اورسولا ترددها :

ـ وماذا نتوقع ؟. . الزمن يمر. . .

لكنها لم تبال بقوله، وراحت توبخه كأنه طفل، وأصرت على أن يأخذ حماماً ويحلق ويمد يده للمساعدة في اصلاح ما حل بالبيت. . . والواقع ان فكرة خروجه من الغرفة التي أعطته الامان والسكينـة قد أفـزعته، حتى لقـد صاح بأنه لا توجد قوة بشرية يمكن ان تحمله على الخروج لأنه لا يريد أن يرى القطار المحمل بالموتى الذي غادر ماكوندو ليلاً متجها الى البحـر. . . وعنـدئذ فقط أدركت أورسـولا انه يعيش في عـالم من الخيـالات اكثف من عالمها وأشد عزلة من عالم جده الأكبر « جوزيه اركاديو بوينديا » عندما أطبق عليه الجنون. . . وهكذا تركته في الغرفـة، ولكنها اصـرت على ان يرفعـوا القفل عن الباب وأن يجعلوه نظيفاً لائقـاً مثلما كـان حال جـده الأكبر تحت شجرة الكستناء. . . وأول الأمر فسرت فرناندا تلك الجلبة كنـوبة من خيـال الشيخوخة، وكان من الصعب ان تكتم سخطها. . . ولكن حدث في ذلـك الوقت ان ولدها جوزيه اركاديو بعث اليها برسالة قال فيها إنه ينوي القدوم الى ماكوندو من روما قبل ان يرسم في منصبه الديني بصورة نهائية، فكان في هذا النبأ ما أفعم نفسها حماسة حتى راحت تروي الزهور أربع مرات في اليوم، لكيلا ينطبع في نفس ولدها اثر سيىء عن البيت . .

وكان أوريليانو الثاني الذي اعاد صناديق ملابسه المتجولة الى دار بيترا كوتيس يجاهد ما وسعه الجهد لكيلا تتضور أسرته جوعا. . . فقد استطاع هو وبيترا كوتيس بعد عرض البغـل في يانصيب « الكـارتيلا » أن يشتـريا بعض

حيوانات اخرى، مما مكنهما من ادارة عملية يانصيب جديدة كان اوريليانو خلالها يطوف بالبيوت لبيع التذاكر، وإن نال ذلك من صحته حتى ذهبت عنه البدانة والتورد وغدا أقرب الى النحول والضعف، ولكنهما كانا يقتران على نفسيهما لتوفير أسباب المعيشة الضرورية لأهل البيت الكبير. . .

وقد أدى انهماك اوريليانو الثاني في عمليات اليانصيب هذه الى اهمال رعاية الطفلين. . فعمدت فرناندا الى إلحاق ابنتها « امارانتا اورسولا » بمدرسة خاصة صغيرة لا يجاوز عدد تلميذاتها ست بنات، ولكنها رفضت السماح لحفيدها أوريليانو الصغير « ابن ميم » بالذهاب الى مدرسة عامة. . . فقد اعتبرت انها تسامحت أكثر من اللازم اذ تركته يبارح الغرفة. . وفضلاً عن ذلك فإن المدارس في ذلك العهد لم تكن تقبل سوى الابناء الشرعيين، في حين قد ورد في شهادة ميلاده التي جاءت معه من الدير أنه لقيط. . . وهكذا بقي أوريليانو الصغير معزولاً تحت رحمة سانتا صوفيا بيدال الطيبة ونزوات اورسولا المتقلبة بين الصحو والخيال، لا يتعلم في دائرة البيت الضيقة سوى ما يتلقاه من جدتيه. . . كان في الحق مخلوقا نحيلا رقيقا شديد حب الاستطلاع الى حد يضايق الكبار، لا تكف عيناه عن الاختلاج. . . وفي حين كانت « أمارانتا أورسولا » في روضة الأطفال، كان هو يصيد الديدان ويعذب الحشرات في الحديقة. . . ولكن عندما ضبطته فرنانـدا يومـاً يضع بعض العقارب في علبة لدسها في فراش أورسولا، حبسته في غرفة « ميم » القديمة حيث اصبح يمضي ساعات العزلة في تصفح صور دائرة المعارف. . وعندما وجدته اورسولا في هذه الغرفة عصر ذات يوم، وعلى الرغم من أنها كانت معه مراراً، فإنها سألته من يكون، فأجابها :

ـ انا أوريليانو بوينديا . . .

فردت عليه قائلة :

ـ تمام. . . والآن جاء الوقت لكي تتعلم سبك المعادن . . .

لقد خلطت بينه وبين ابنها الكولونيل أوريليانو بوينديا في صغره، فإن الرياح الحارة التي جاءت في أعقاب الفيضان وكانت تجلب لها فترات الصحو والإدراك قد ولت. . . ولم تسترد عقلها بعد ذلك قط. . . وأصبحت تجلس في فراشها تكلم نفسها وتبتعث سير الموتى من أقربائها ومعارفها وتخلط الماضي بالحاضر على نحو مثير للرثاء. . وغدت تزيد انكماشاً وضآلة بمرور الأيام حتى اصبحت في الشهور الأخيرة مثل ثمرة ذابلة في فراغ جلبابها. . . وذات يوم ظلت جامدة عدة أيام حتى راحت سانتا صوفيا بيدال تهزها لكي تقتنع بأنها على قيد الحياة، ثم أجلستها في حجرها وسقتها بضع ملاعق من ماء محلى بالسكر. . ومرة أخرى أخفاها أوريليانو وأمارانتا أورسولا في دولاب في الكرار، حيث كان يمكن ان تنهشها الفئران . . .

ثم وجدوها ميتة صباح يوم الجمعة الحزينة. . . وكانت آخر مرة سألوها ان تقدر عمرها التقريبي ايام وجود شركة زراعة الموز، قدرته في ما يتراوح بين مائة وخمس عشرة سنة وبين مائة واثنتين وعشرين. . . وقد دفنوها في تابوت لا يزيد حجمه عن حجم السلة التي جاء فيها اوريليانو الصغير، ولم يشهد جنازتها الا نفر معدود من الناس، ومرجع ذلك الى قلة من يتذكرونها من أهل البلدة، ثم الى شدة القيظ في ذلك اليوم الى حد ان الطيور في اضطرابها كانت تترامى على جدران البيوت وتشق ستائر النوافذ لكي تموت افواجاً في غرف النوم . . .

وبوفاة أورسولا ارتد البيت الكبير مرة اخرى الى حالة من الإهمال لا يمكن انقاذه منها حتى بعزيمة قوية مثل عزيمة « امارانتا أورسولا ». . تلك التي تهيأ لها بعد تعاقب اعوام كثيرة وبعد ان اصبحت امرأة عصرية سعيدة خالية من العقد، ان تفتح ابواب البيت ونوافذه على مصاريعها لكي تطرد عنه الدمار وتعيد للحديقة نضارتها وتستأصل النمال التي اصبحت تسعى في

المدخل في وضح النهار، وإن حاولت عبثاً ان تبعث في البيت روح الضيافة الذاهبة . . . .

كانت تلك كلها هي الصورة بعد الامطار والفيضان. . . وفي خلال ذلك كانت فرناندا مشغولة بمرضها الذي لم تكاشف احدا من اهل البيت بحقيقته ترفعاً واستعلاء، وإن كان الباقون منهم على قيد الحياة لا يعيرونها اهتماماً. . . فإن سانتا صوفيا بيدال كانت تمضي ايام شيخوختها الهادئة في طهي الطعام القليل الذي يأكلونه، متفرغة أكثر الوقت لرعاية ابنها جوزيه اركاديو الثاني. . . وكانت « امارانتا اورسولا » التي ورثت بعض محاسن ريميديوس الجميلة تقضي وقتها الذي كانت تضيعه من قبل في تعذيب اورسولا في استذكار دروسها وقد ابدت في هذا من التقدم والتفاني ما جعل أوريليانو الثاني يعد بإيفادها الى مدينة بروكسل لإتمام تعليمها. . . وكانت المرات القليلة التي زار فيها البيت الكبير، من اجل « امارانتا اورسولا ». . فقد اصبح بمضي الوقت غريباً عن زوجته فرناندا، وغدا أوريليانو الصغير اكثر انطواء وهو يقترب من دور المراهقة. . . وكان أوريليانو الثاني يؤمل ان يلين قلب فرناندا بتقدمها في السن حتى يتهيأ للطفل ان يندمج في حياة بلدة اصبح اهلها لا يتشددون في شيء مثل الاهتمام بمنبته. . . بيد ان اوريليانو الصغير ذاته كان يفضل العزلة ولا يبدي اقل رغبة في معرفة العالم الذي يبدأ من باب الشارع في البيت الكبير. . . وعندما عملت اورسولا على فتح باب غرفة مالكويداس اخذ اوريليانو الصغير يتلصص بنظره الى داخلها، ولم يعرف احد في اية لحظة توثقت الصلة بينه وبين جوزيه اركاديو الثاني حتى استحالت الى مودة مشتركة. . . وقد اكتشف اوريليانو الثاني هذه المودة بعد وقت طويل من بدئها، حين وجد الصبي يردد ما كان يقوله جوزيه اركاديو الثاني عن مذبحة القتل في ميدان محطة سكة الحديد ونقل القتلى بالقطار الليلي لإلقائهم في البحر. . . لقد ردد الصبي هذا الكلام اثناء الجلوس الى

المائلة بين افراد الأسرة بلهجة إنســان ناضـج، مؤكداً ان هـذا من تدبيـر شركة الموز خلاصاً من الاستجابة لمطالب العمال. . . ولما كـانت فرنـاندا مقتنعة بما جاء في البيانات الرسمية من دحض لهذه الدعوى، فقد بدا لها ان الصبي ورث الآراء المتطرفة عن الكولونيل اوريليانو بويندیا، وانتهـرته لكي يصمت. . . اما أوريليانو الثاني فقد عرف في كـلام الصبي تـأثيـر اخيه التوأم. . . وعلى الرغم من ان الجميع كانوا يعدون جوزيه اركاديو الثاني من المجانين، فإنه كان اكثـر اهل البيت تعقـلاً اذ ذاك. . . فقد علم اوريليـانو الصغير القراءة والكتابة، وكان يشركه في محاولة فك طلاسم المخطوطـات ويعمل على توسيع دائرة معلوماته . . .

وتتعاقب الأيام والشهور على هذا النحو، الى أن يأتي يوم يستيقظ فيه أوريليانو الثاني في منتصف الليل وهو يشعر باختناق شديد في حلقه وكأنمـا انشب فيه سرطان بحري مخالبه. . . وكانت هذه اول بادرة أحس فيها بقرب دنو أجله. . . لكنه لم يخبر أحدا. . كان يعذبه في ذلك الحين ان يموت قبل ان يحقق وعده بإرسال « أمارانتا اورسولا » الى بروكسل لإتمام تعليمها. . . وهكذا راح يجهد نفسه في العمل بما لم يفعل مثله في كل حياته الماضية. . وبدلاً من السعي الى توزيع يانصيب كارتيلا واحدة في الاسبوع، اتجه الى توزيع ثلاث كارتيلات. . . فكان يبـدأ في ساعـة مبكرة من الصبـاح طوافـه بالبلدة الى ساعة متأخرة من الليل ملحاً على الناس لشراء تذاكر اليانصيب، وهو في ذلك يتعرض لنوبات الألم الفتاكة في حلقه الى حد يقعده في حالة يرثى لها في الطريق. . . وكثيرا ما غدا يتعرض لسخرية الناس واستهـزائهم لفرط ما كان يبدي من إلحاح وترغيب في الشراء. . . وبعد وقت بـدا له ان عملية عرض الخنازير والمعز وما اليها في يانصيب الكارتيلا لن تكفي لإرسال ابنته الى بروكسل. . . وهكذا هداه طول التفكير الى عرض الاراضي البـور التي أتلفها الفيضان في هذا اليانصيب. . . وعندما عرض هذه الفكـرة على

عمدة البلدة رحب بها، وتكونت على الأثر روابط لشراء تذاكر بقيمة مائة جنيه للتذكرة الواحدة بيعت كلها في أقل من أسبوع.. وفي ليلة السحب اقام الفائزون حفلاً كبيراً عزف فيه اوريليانو الثاني على الأكورديون.. لآخر مرة...

ولم ينقض شهران حتى ذهبت «امارانتا اورسولا» الى بروكسل... وقد اعطاها أوريليانو الثاني كل النقود التي جمعها من يانصيب الاراضي، مضافاً اليها ما ادخره في الماضي، مما عده كافيا للوفاء بنفقات الدراسة والمعيشة... وكانت فرناندا في أول الأمر ضد الرحلة بعد ان روعها رحيل ابنتها الى بروكسل القريبة من باريس مدينة اللهو والمفاتن، لولا ان الأب انجيل الكاهن الجديد زود الفتاة بتوصية الى دار للإقامة مخصصة للفتيات تشرف عليها راهبات.. وقد اعدت لها فرناندا مع الملابس والمتاع الضروري حزاما من القنب تحفظ فيه نقودها وشددت عليها ألا تخلعه حتى في نومها... وبعد اشهر معدودة، عندما حانت ساعة اوريليانو الثاني الأخيرة وهو على فراش الموت، لم تبرح ذاكرته صورة فتاته وهي تطل من نافذة القطار ملوحة لوالديها على رصيف المحطة وقد تجلت رشاقتها ونضوجها ولكن دون دموع ولا ضعف، مما دل على قوة عزم مبكر... وظلا واقفين على الرصيف يلوحان مودعين وقد تأبطا ذراعيهما لأول مرة منذ الزواج، الى ان غاب القطار عن الانظار..

وفي التاسع من شهر اغسطس، قبل ورود الرسالة الاولى من بروكسل، كان اوريليانو الصغير يتحدث مع جوزيه أركاديو الثاني في غرفة مالكويداس، ودون سابق تمهيد قال له هذا:

- تذكر دائما انهم كانوا اكثر من ثلاثة آلاف رجل، وأنهم إلقي بجثثهم في البحر..

وعلى الأثر وقع جوزيه اركاديو الثاني على ظهره فوق المخطوطات

وفاضت روحه وهو مفتوح العينين. . . وفي اللحظة نفسها تقريبا، وفي فراش فرنانـدا، كانت نهـاية أخيـه التوأم اوريليـانو الثـاني، بعد المـرض الطويـل المفترس الذي اكل حلقه وغيب صـوته تمـاما في الأسـابيع الأخيـرة وحبس انفاسه او كاد. .وفاء بما وعد من ان يكون موته بجانب زوجته. . .وكانت بيترا كوتيس قد عاونته في الفترة الأخيرة في جمع ملابسه وودعته قبـل رحيله من دارها دون ان تذرف دمعة واحدة، ولكنها نسيت ان تعطيه الحذاء الفاخر الذي كان يريـد لبسه في تـابوتـه. . . وهكذا مـا ان سمعت بوفـاته حتى اتشحت بالسواد ولفت الحذاء في جريدة وطلبت الإذن من فرناندا لإلقاء نظرة أخيـرة على الجثة. . . فلم تسمح لها فرناندا بأن تطأ قدمها عتبة البيت، فقالت بيترا كوتيس مستعطفة :

ـ ضعي نفسـك مكاني. . . تصـوري مقدار حبي لـه بحضوري اليـك والتعرض لهذه المهانة. . .

فردت عليها فرناندا قائلة :

ـ ليست هنـاك مهانـة لا تستحقها عشيقـة. . . ولك ان تنتـظري حتى يموت واحد آخر من عشاقك الكثيرين لكي تلبسيه الحذاء !. . .

وعملاً بوصية جوزيه اركاديو الثاني الذي طالما خشي ان يدفن حياً بعد موته ـ متأثراً بما رآه في صغره مرة من دفن المحكوم بـإعدامهم وعيـونهم لا نزال مفتوحة ـ فقد تولت أمه سانتا صوفيا بيدال حز رقبته بسكين المطبخ. . . وقد وضعت جثتا الأخوين التوأمين في تـابوتين متمـاثلين، وهكذا تحقق في الموت عودة التماثل بينهما كما كانا حتى عهد المراهقة. . . وجاء أصحاب اوريليانو الثاني في اللهو لوداعه الأخير ومعهم إكليل زهـور محفوف بشـريط وردي كتبت عليـه عبارة كـانت شعارهم في مجـونهم : « تمتـع، فـالحيـاة قصيرة » . . . بيد ان فرناندا التي أسخطها هذا الاجتراء على حرمـة الموتى

رفعت الإكليل وألقته في القمامة... وفي ثنايا الهرج الذي ساد في اللحظة الاخيرة، خلط السكارى المحزونون التابوتين وهم يحملونهما، وهكذا دفن التوأمان في القبرين المغلوطين...

الفصل السابع عشر

لم يفارق اوريليانو الصغير غرفة مالكويداس زمناً طويلاً. . . لقد لفظ عن ظهر قلب الأساطير الخرافية التي تضمنتها تلك الكتب العنيفة، من مذكرات عن علوم الجن والشياطين، ومفاتيح الوصول الى حجر الفلاسفة، وحوليات نوسترا داموس وأبحاثه. . الى غير ذلك مما جعله يبلغ سن المراهقة دون ان يعرف شيئاً عن الزمن الذي يعيش فيه، مزوداً فقط بالمعرفة الأساسية لانسان من العصور الوسطى. . . وكلما دخلت عليه جدته سانتا صوفيا بيدال وجدته مستغرقاً في القراءة. . . وكانت تأتيه عند الفجر بإبريق القهوة بغير سكر، وعند الظهر بطبق أرز وشرائح الموز المقلي، وهو الطعام الوحيد الذي كان يؤكل في البيت منذ وفاة أوريليانو الثاني. . وكانت تعمل على قص شعره، وإلباسه الملابس القديمة التي تعثر عليها بعد جعلها على مقاسه. . . وعندما نبت شاربه جاءته بموسى الكولونيل اوريليانو بوينديا والإناء الصغير الذي كان يستخدمه في حلق ذقنه. . وكان يبدو لها احياناً انه يكلم نفسه. . . اما الواقع فإنه كان يكلم طيف مالكويداس. . . فقد حدث ظهر يوم متقد الحر بعد وفاة الأخوين التوأمين ان أبصر منعكساً من وهج النافذة طيف مالكويداس كما كان يتصوره. . . وقد سأله مالكويداس بعد ان رآه يراجع الحروف الأبجدية للمخطوطات كما تلقاها عن جوزيه اركاديو الثاني، عما اذا كان قد اكتشف اللغة التي كتبت بها المخطوطات، فاجاب اوريليانو :

ـ اللغة السنسكريتية . .

فبين له طيف مالكويداس ان ظروف عودته الى هذه الغرفة محدودة لأنه عائد في سلام الى رحاب الموت الكلي، ومن ثم سيجد اوريليانو الوقت

متسعاً لتعلم اللغة السنسكريتية خلال السنوات الباقية على بلوغ عمر المخطوطات مائة عام، وعندها سيحين أوان فك رموزها. . وكان هو الذي دل أوريليانو على أنه يوجد في الشارع الضيق المؤدي الى النهر رجل حكيم من ابناء قطالونيا عنده مكتبة بها مفتاح اللغة السنسكريتية في كتاب مزخرف سيأتي عليه العث في مدى ست سنوات اذا لم يبادر بشرائه . . . وشد ما كانت دهشة سانتا صوفيا بيدال التي لا يدهشها شيء عندما طلب منها اوريليانو ان تجيئه بالكتاب الذي يمكن العثور عليه بين مجلدي « تاريخ أورشليم » و« أشعار ميلتون » في أقصى الجانب الأيمن للرف الثاني من رفوف المكتبة . . . واذا كانت لا تعرف القراءة فإنها وعت هذا في ذاكرتها ودبرت مبلغا من بيع الاسماك الذهبية الصغيرة السبعة عشر الباقية في المسبك، والتي لم يكن احد غيرها هي وأورسولا يعرف مكانها منذ الليلة التي فتش الجنود فيها البيت . .

وتقدم اوريليانو في دراسة اللغة السنسكريتية فيما كانت زيارات طيف مالكويداس تتناقص ويزيد الطيف شحوبا في ضوء الظهيرة الشديد. . وآخر مرة شعر اوريليانو بوجود الطيف عندما همس في سمعه كيان غير منظور بهذه العبارة : « لقد توفيت بالحمى في رمال سنغافورة » . . . وبعدها لم تعد الغرفة في منعة من الأتربة والحرارة وحشرات الترميت والنمل والعث، وهي كفيلة بإحالة المخطوطات الى نشارة . . .

ولم يعد البيت يعاني من نقص القوت. . . فغداة يوم وفاة اوريليانو الثاني، جاء رجل من بطانة السكر الذين احضروا الاكليل غير المحتشم ليدفع الى فرناندا نقودا كانت دينا عليه لأوريليانو الثاني. . . وبعد هذا كان يأتي كل يوم اربعاء صبي ومعه سلة طعام كانت تكفي قوت أسبوع . . ولم يعرف احد قط ان هذه المؤونة كانت ترسلها بيترا كوتيس، وفي ضميرها ان هذا الاحسان المستمر هو طريقة لإذلال فرناندا التي أذلتها. . . غير أن هذه

الضغينة ما لبثت ان تلاشت بمرور الايام، وبعدها استمرت في ارسال القوت من قبيل التكبر، ثم في النهاية من قبيل الرحمة... وكثيرا ما كانت بيترا كوتيس - بعد أن كانت لا تجد حيوانات لليانصيب وبعد فقد الناس الاهتمام بذلك - كثيرا ما كانت هي تبقى دون طعام، لكي تجد فرناندا ما تأكله، وظلت وفية لعهدها هذا الى ان رأت جنازة فرناندا تمر في الشارع...

وفي خلال ذلك كانت سانتا صوفيا بيدال دائبة في خدمة البيت وتنظيفه من الأتربة والعناكب والحشرات القارضة، فلا تمضي ساعات حتى يعود كل هذا إلى سيرته الأولى، الى أن شعرت في النهاية ان شيخوختها وعظامها المكدودة لن تحتمل هذا الجهد الشاق، واذا هي تحزم ما بقي لها من متاع قليل وتتأهب للرحيل عن البيت... وعندما سألها اوريليانو الى أين هي ذاهبة اجابته بلهجة غامضة أن لها أقرباء في بلدة ريوهاشا ستقيم عندهم، وان موهت عليه في ذلك. فأعطاها أوريليانو اربعة عشر من الاسماك الذهبية بعد أن وجدها مصرة على الذهاب بما معها وهو لا يجاوز بيزو واحدا وبضعة سنتات... وبعد رحيلها لم يسمع شيء عنها بعد ذلك...

وعندما سمعت فرناندا برحيلها هاجت وماجت يوما بطوله... وقد اصيبت بحروق في أصابعها وهي تحاول ايقاد النار لأول مرة في حياتها، واضطرت ان ترجو اوريليانو ليريها كيف تعمل القهوة... وبمضي الوقت كان اوريليانو هو الذي يباشر شؤون المطبخ... فكانت فرناندا تجد افطارها معدا عندما تقوم من النوم، وكانت تبرح غرفتها مرة ثانية لتجد طعامها فوق الموقد مجهزا، فتحمله الى المائدة لتجلس على رأسها في مواجهة خمسة عشر مكانا خاويا، فوق مفرش من التيل وبين الثريات...

لقد كانت فرناندا تعيش في عالم خاص بها ولا شاغل لها سوى مكاتبة ولديها وتلقي رسائلهما، حتى لم يعد يعنيها شيء من مرور الزمن انتظارا

لعودتهما. . وعلى سبيل المثال لم تتضايق عندما أخبرها ابنها جوزيه اركاديو ـ بعد مضي سنوات من اعلان قرب تخرجه النهائي ـ انه سينتظر لإتمام دراساته في علوم اللاهوت المتقدمة، فقد سرت بهذا التأخير وسعدت به وهي تعرف الطريق الشاق الى المناصب الكهنوتية العليا. . كما كان سرورها وسعادتها بالمثل عندما اخبرتها ابنتها «أمارانتا أورسولا» أن دراساتها سوف تطول اكثر من المقدر لها لأن تفوقها في الدرجات قد هيأ لها مزايا لم تكن في الحسبان عندما قدر والدها موقفها الدراسي. . .

وانقضت ثلاثة اعوام ونيف منذ أن احضرت سانتا صوفيا بيدال الى أوريليانو كتاب القواعد الذي مكنه من ترجمة الصفحة الاولى. . ولم يكن هذا جهدا ضائعا، ولكنه كان خطوة اولى في طريق لم يمكن التنبوء بطوله، لأن النص الاسباني لم يفصح عن أي شيء، اذ كان مكتوبا بشفرة خاصة تعذر على أوريليانو ان يحلها. . . غير أنه لما كان مالكويداس قد اخبره ان الكتب التي يحتاج اليها للتوصل الى اعماق المخطوطات موجودة في مكتبة القطالوني، فقد قرر أن يكلم فرناندا لكي تسمح له بالذهاب. . ولهذا قص شعره الذي طال وحلق ذقنه ولبس بنطلونا قصيرا وقميصا بياقة صناعية ورثهما ممن لا يدري، ثم جلس في المطبخ ينتظر حضورها لأخذ طعام الافطار. . لكن المرأة التي عهدها كل يوم والتي كانت ترفع رأسها شموخا وتعاليا لم تصل، وإنما جاءت امرأة عجوز ذات جمال خارق تتشح بحرملة من الفرو الثمين وتاج من الورق المقوى المذهب، وتبدو عليها علائم انسان كان يبكي لنفسه ليلا. . . والواقع ان فرناندا منذ أن عثرت على زيها كملكة في امتعة زوجها أوريليانو الثاني راحت ترتديه مرارا رغم ما أكل منه العث. . . ولو قدر لأحد أن يراها وهي تختال أمام المرآة بهذا الزي الزائف لظنها مجنونة. . . لكنها لم تكن. . . وإنما كانت تفعل ما فعلت للذكرى، وحيناً الى الماضي المولى، وتسرية لنفسها عن سوء حالها الراهن. . .

هكذا عدل أوريليانو مشفقا عن طلب الاذن منها بالخروج اذ كان مفتاح البيت لديها، وان كان بوسعه ان يتسلل خارجا وعائدا دون ان تفطن اليه، لولا أن طول سجنه في البيت وخوفه من مواجهة الناس والعالم الخارجي واعتياده طاعة الاوامر، كل ذلك قضى على روح التمرد في نفسه وفرض عليه عزلته الغريبة. . . وكذلك عاد الى محبسه عاكفا على قراءة المخطوطات مرارا وتكرارا، متسمعا في الليل صوت فرناندا وهي تنتحب في غرفة نومها. . . الى أن ذهب الى المطبخ ذات صباح لإيقاد النار كالمعتاد، فوجد الطعام الذي تركه لفرناندا بالامس لم تمسه يد. . . وعندئذ نظر في غرفة نومها، فرآها ممددة فوق الفراش مغطاة بحرملة الفراء وهي اوفر جمالاً مما عهد وقد استحالت بشرتها الى لون العاج. . . ولما عاد ابنها جوزيه اركاديو بعد اربعة اشهر، وجدها على نفس تلك الصورة. .

كان من المستحيل أن يتصور احد شابا اكثر منه مشابهة لأمه. . . كان يرتدي بذلة من الحرير وقميصا بياقة صلبة مستديرة وشريطا حريريا في مكان ربطة العنق. . . وكان مليء الوجه مورده، واقرب الى الاسترخاء والترهل. . . وكان شعره الاسود اللامع الناعم مفروقا من وسط الرأس. . . وكان يتختم في يديه الناصعتي البياض بخاتم ذهبي مرصع بحجر من العقيق حول سبابة يده اليسرى. . وعندما فتح باب الشارع لم يحتج اوريليانو الفتى الى من يدله على أنه جاء من سفر بعيد. . . وما أن خطا بضع خطوات في البيت حتى فاحت منه رائحة العطر الذي طالما نثرته اورسولا عليه وهو طفل لكي تستدل من الرائحة على مكانه بعد أن كف بصرها. . وقد تقدم جوزيه اركاديو من فوره الى مخدع أمه، حيث كان اوريليانو قد تولى غلي زئبق مدى اربعة اشهر كاملة لحفظ الجثة طبقا لتعاليم مالكويداس المتوارثة. . ولم يبادره جوزيه اركاديو بأي سؤال. . . وانما قبل الجثة فوق الجبين، ثم جذب من ثنايا ملابسها مفتاح دولاب صاحبتها الخاص، ولما فتحه اخرج منه علبة

صغيرة كان بداخلها الرسالة المطلوبة التي باحت فيها فرناندا بكافة الحقائق التي كانت حريصة دائما على إخفائها عنه في رسائلها اليه. . . فعكف على قراءتها واقفا بلهفة ولكن دون قلق، وما أن وصل الى الصفحة الثالثة حتى توقف وتفرس في أوريليانو بنظرة تعرف بعد النظرة الأولى العابرة، وقال له بصوت كحد الموسى :

- إذن. . أنت ابن الحرام ! . . .

- أنا أوريليانو بويندیا. . .

فقال جوزيه اركاديو :

- إذهب الى غرفتك ! . . .

فذهب اوريليانو، ولم يخرج ثانية حتى من باب الفضول عندما سمع صوت موكب الجنازة المحدود. . . وأحياناً كان يرى من المطبخ جوزيه اركاديو وهو يتنقل في البيت، ويسمع خطواته في غرفة النوم المهجورة بعد منتصف الليل، بيد أنه لم يسمع صوته مدى شهور كثيرة، لا لأن جوزيه اركاديو لم يتجه اليه أبدا بكلام، بل كذلك لأن أوريليانو نفسه لم يرد أن يحدث هذا ولم يحن الوقت ليفكر في أي شيء آخر غير المخطوطات. . . فعقب وفاة فرناندا حمل سمكة ذهبية وذهب الى مكتبة القطالوني الحكيم بحثاً عن الكتب التي يحتاج اليها. . . فوجده عاكفا على منضدة مستطيلة بين أكداس الكتب العتيقة البالية فوق الرفوف وفي الاركان وهو مستغرق في الكتابة بأحرف حمراء في كراسة مدرسية مفككة الصحائف، وبدا له أبيض الشعر أزرق العينين تلوح عليه مخائل انسان مهذب قرأ كل الكتب. . . ولم يرفع الرجل رأسه ليرى من القادم، غير أن اوريليانو لم يجد صعوبة في استخلاص الكتب الخمسة التي جاء يبحث عنها في الفوضى الضاربة أطنابها حوله، لأنه عثر عليها في الموضع الذي أرشده اليه طيف مالكويداس. . .

ودون كلمة واحدة وضع اوريليانو الكتب والسمكة الـذهبية أمـام القطالـوني الذي ما أن نظر حتى ضاقت عيناه قائلا :

ـ لا بد أنك مجنون ! . . .

بيد أنه هز منكبيه ورد اليه الكتب والسمكة الذهبية قائلا :

ـ لك أن تأخذها . . . ان آخر رجل قرأ هذه الكتب اصيب بالعمى . . . وإذن فلتتدبر جيدا ما أنت فاعل . . . .

وأمـا جوزيه اركاديـو فقـد اصلح غـرفـة نـوم اختـه «ميم» وحـوض الاستحمام الاسمنتي . . . وكان ينام حتى الحادية عشرة صباحا او ما بعدها، فيذهب الى الحمام حيث يعطر الحوض بأملاح جاء بها، ويمكث فيه ساعتين طافيا على ظهره مستمتعا بالطراوة . . . وبعد أيام قلائل من وصوله وضع جانبا بذلته الحريرية وهي الوحيدة التي جاء بها، واستبدل بها بنطلونا ضيقا وقميصا حريريا نقش فوق مكان القلب منه الحرفان الاولان من اسمه . . . ومرتان في الاسبوع كان يغسل هذا اللباس ويرتدي روب الحمام الى أن يجف، اذ لم تكن لديه ملابس غيرها . . . ولم يكن يأكل في البيت قط . . . كان يخـرج بعـد أن تخف وقدة القيلولـة ولا يعود الا في وقت متـأخـر ليـلا . . . كـانت الخدعة الكبرى التي أجازها على الجميع هي دراسته للاهوت. أما الحقيقة فهي أنه لم يكد يستقر في روما حتى هجر المعهد واستمر يغذي برسائله هذه الخرافة لكي لا يخاطر بذلك الميراث الكبير الذي كان ينتـظره من أمه على نحو ما كانت تمنيه به اختلاقاً هي الاخرى طبقا لطبيعتها التي كانت تجـانب الحقيقة في كل شيء وتتعلق بعالم الاوهام . . . كان تفكيره منحصرا في ذلك الميراث الوهمي الذي يخلصه من البؤس وشظف العيش مع صاحبين له في غرفة على السـطح . . . وعندما تلقى رسالة فرناندا الاخيرة التي أملاها عليها إحساسها بدنو الأجل، جمع ما تبقى من العز الزائف في حقيبة صغيرة عبر بها المحيط في سفينة مع مهاجرين تكدسوا فيهـا مثل مـاشية في مجـزر يأكلون

المعكرونة الباردة والجبن بالديدان. . . وقبل أن يقرأ وصية فرناندا في رسالتها المطولة، وهي لم تكن أكثر من اعتراف تفصيلي ومتأخر بحقيقة الحال والبلايا الماثلة، كان أثاث البيت المحطم والحشائش البرية النامية لدى المدخل برهاناً صارخاً على أنه قد وقع في فخ لا مهرب له فيه. . .

وبعد عام من عودته المهيضة تلك، والتي اضطر فيها أن يبيع الثريات الفضية وغيرها مما بقيت له قيمة لكي يأكل، كانت سلواه الوحيدة في عزلته هي فتح ابواب البيت لصبية الحي لكي يلعبوا في البيت ويؤنسوا وحشته. . فكانوا يثبون فوق الحبل في الحديقة ويغنون لدى المدخل ويقومون بألعاب بهلوانية بين أثاث حجرة المعيشة الى وقت متأخر من الليل، حتى صار البيت أشبه بمدرسة داخلية مجردة من كل نظام. . . ولم ينزعج أوريليانو من هذا الغزو طالما كانوا لا يعملون على مضايقته في غرفة مالكويداس. . . ثم حدث ذات صباح أن دفع أحد الصبية باب الغرفة، فروعهم مشهد رجل متسخ أشعر كان لا يزال عاكفا على محاولة فك طلاسم المخطوطات فوق المنضدة. . . ولم يتجاسروا على دخول الغرفة، ولكنهم ما برحوا يراقبونها. . . ومرة ألقوا فيها حيوانات حية من فوق عارضة الباب. . . وفي مناسبة اخرى سمروا الباب والنافذة حتى امضى أوريليانو نصف نهار في رفع المسامير وفتحهما. . . ولما اشجعهم عدم تعرضهم للعقاب في كل هذا، دخلوا الغرفة ذات صباح بينما كان أوريليانو في المطبخ وهموا بإتلاف المخطوطات. . . غير أنهم ما كادوا يضعون ايديهم على الصحائف المصفرة حتى شعروا بقوة خفية تكاد ترفعهم عن الارض، الى أن عاد أوريليانو وانتزع المخطوطات من أيديهم. . . وبعدها لم يعملوا على مضايقته. . .

وكان اربعة منهم في سن المراهقة مثل جوزيه اركاديو يشاطرونه الاستحمام في الحوض، وقد توثقت بينه وبين احدهم وهو أجرأهم أواصر الصداقة حتى كان يشاطره المبيت في البيت بعض الليالي، حيث يقضيان

الساعات في السمر والطواف بالغرف الخاوية . . . وذات ليلة استرعى نظرهما في غرفة أورسولا وهج أصفر منبعث من بين شقوق الارضية المتآكلة وكأن شمسا تحت الارض قد غيرت ارض الغرفة الى لوح من الزجاج . . . ولم تكن بهما حاجة الى اضاءة النور . . . كان يكفي أن يرفعا البلاط المكسور في الركن الذي كانت تنام فيه أورسولا والذي كان ينبعث منه الوهج على أشده، لكي يعثرا على الكنز السري المليء بالذهب في أكياسه الثلاثة والذي كان يتوهج مثل جمرات في الظلام . . .

كان اكتشاف هذا الكنز الذهبي مفاجأة مذهلة . . . وبدلا من أن يعود جوزيه أركاديو الى روما بالكنز الذي هبط عليه من حيث لا يحتسب، فإنه احال البيت الى فردوس . . . اذ اعاد تأثيث غرفة النوم بأفخر مما كانت عليه، وكسا ارضية الحمام وحوائطه بالبلاط، وملأ دولاب قاعة الطعام باللحم المقدد وعلب الفاكهة المحفوظة والمشهيات وفتح غرفة «الكرار» من جديد لتخزين الانبذة والمشروبات الكحولية التي كان يستجلبها من محطة سكة الحديد في لفائف معنونة باسمه . . وذات ليلة أولم مع الفتيان الاربعة وليمة دامت حتى الفجر . . . وعند الساعة السادسة صباحا قاموا بتصفية حوض الحمام من المياه وملأوه بالشمبانيا، ثم تواثبوا فيه وراحوا يسبحون مثل طيور سابحة في سماء مذهبة بفقاقيع يفوح شذاها العطر . . وقد تخلف عنهم جوزيه اركاديو عندما خرجوا من الحوض وبقي طافيا على ظهره في المياه مستغرقا في التفكير . . وعندما لحق بهم في النهاية ألفاهم قد اتلفوا غرفة النوم حتى اصبحت حطاما . . فاشتد سخطه عليهم حتى طردهم من البيت وهو يشبعهم ضربا . . وبقي وحده ثلاثة أيام يعاني من ازمة ربو مستحكمة . . . ولما اشتدت عليه الازمة ذهب الى غرفة أوريليانو ورجاه ان يشتري له مسحوقا خاصا للاستنشاق من صيدلية قريبة . . . وكانت هي المرة الثانية التي خرج فيها أوريليانو من البيت، ولما وصل الى الصيدلية قابلته فتاة لها جمال

الافعى وأعطته الدواء الذي عاد به الى جوزيه اركاديو الذي قدر منه هذا الصنيع، حتى أنه بعد أيام قليلة أخل بعهده لأمه وترك أوريليانو حرا يخرج من البيت كما يشاء. . . ومن عجب ان أوريليانو رد عليه قائلا :

ـ ليس لي ما أفعله في الخارج. . .

وبقي حبيسا في البيت، منهمكا في فك طلاسم المخطوطات ومحاولة فهم مضامينها التي ظلت رغم ذلك مستغلقة عليه. . وكان جوزيه اركاديو يجيئه ببعض اللحم المقدد والفاكهة المحفوظة، وشيء من النبيذ في مناسبتين. . . لكنه لم يهتم بالمخطوطات التي عدها من ترهات الماضي، ولكن اهتمامه غدا منحصرا في ابن اخته هذا الذي ألفاه غزير المعلومات واسع المعرفة على نحو غريب، إذ وجده يفهم اللغة الانجليزية، الى جانب إلمامه بكل ما جاء في دائرة المعارف المصورة التي قرأ أجزاءها الستة من أول صفحة الى آخر صفحة كما يقرأ احدى الروايات. . . ومهما يكن فقد توطدت الاواصر بين هاتين الشخصيتين المنعزلتين اللتين يسري فيهما دم واحد، وهي إن لم تكن صداقة بمعنى الكلمة، فقد كانت صحبة اعانتهما على احتمال حياتهما الغريبة هذه. . .

وكان جوزيه اركاديو منذ ان طرد الفتيان من البيت ينتظر اخبار باخرة من عابرات المحيط ينوي الارتحال فيها الى نابولي قبل عيد الميلاد. . . وقد اخبر اوريليانو بهذا، بل فكر في خطة لإلحاقه بعمل لكسب قوته، اذ أن سلال الطعام قد انقطع ورودها الى البيت بعد دفن فرناندا. . .

وفي صباح يوم من سبتمبر بعد أن فرغ جوزيه اركاديو من شرب القهوة مع أوريليانو في المطبخ وكان على وشك الانتهاء من حمامه اليومي، إذ اندفع الى الحمام الفتيان الاربعة الذين طردهم من البيت، من خلال البلاط المكسور. . . وقبل أن يجد فرصة للدفاع عن نفسه قفزوا الى الحوض بكامل

ملابسهم وجذبوه من شعره وأغرقوا رأسه في المياه ممسكين بها هكذا الى أن توقفت من سطح المياه فقاقيع حشرجة الموت، وغاصت جثته الشاحبة الى قاع الحوض المعطر... وبعد ذلك اخرجوا اكياس الذهب من المخبأ الذي لم يكن معروفا لهم وللضحية... وكانت في الواقع عملية خاطفة ووحشية ومدبرة بعناية حتى كانت أشبه بعملية حربية... ولم يشعر أوريليانو بأي شيء وبابه مغلق عليه في غرفته... وعندما افتقده في المطبخ بعد ظهر هذا اليوم، ذهب يبحث عنه في كل انحاء البيت، الى أن عثر عليه طافيا فوق صفحة مياه الحوض المعطرة وقد انتفخت وتضخمت جثته... وعندئذ فقط ادرك اوريليانو الى أي حد كان قد بدأ يتعلق به ....

الفصل الثامن عشر

عادت « أمارانتا أورسولا » في أوائل شهر ديسمبر ـ وهي تقود زوجها بحبل من حرير مربوط حول رقبته . . .

ظهرت في البيت الكبير دون سابق اخطار، مرتدية فستانا في لون العاج، وعقداً من اللآلىء يكاد يتدلى الى ركبتيها، وخواتم من الزمرد والعقيق، وشعرها الطويل معقود خلف اذنيها. . . وكان الرجل الذي تزوجته منذ ستة شهور هولنديا نحيلا يكبرها سنا. . . وما كان عليها إلا أن تدفع الباب الى البهو لكي تدرك أن غيابها كان أطول وأحفل بالدمار مما كانت تتصور، حتى هتفت بلهجة كانت اكثر مرحا منها انزعاجا :

ـ يا الهي ! . . من الواضح أنه لا توجد امرأة في هذا البيت ! . .

وكانت الامتعة التي جاءت بها اكثر من ان يسعها المدخل. . ففضلا عن الصندوق الكبير الذي ذهبت به الى المدرسة، جاءت بست حقائب بين الكبيرة والصغيرة، وثماني علب قبعات، وصندوق خاص به دراجة زوجها ذات العجلة الامامية الاكبر، مفككة. . . بل إنها لم تخلد الى الراحة يوما واحدا بعد رحلتها الطويلة، فقد اشتملت برداء قديم وبدأت على الفور تنظيف وتجديد البيت : فطردت النمل الاحمر الذي كان قد سيطر على المدخل. واستأصلت الحشائش الطويلة، وغرست الزهور في الأصص، واستعانت بفريق من النجارين والحدادين والبنائين لإصلاح الاثاث والابواب والنوافذ وسد الشقوق وطلاء الجدران، وهكذا لم تمض ثلاثة اشهر على وصولها حتى كان الانسان يتنفس من جديد جو الشباب والانتعاش الذي كان

يسود البيت الكبير في أيام العز الماضية.. والحق انها كانت ذات روح متحررة وعصرية الى حد أن أوريليانو «إبن اختها ميم» لم يعرف كيف يداري هيأته لدى مقدمها... أما هي فقد هتفت بلهجة السعادة وقد فتحت ذراعيها :

ـ مدهش !.. مدهش !.. انظروا كيف كبر «متوحشنا» العزيز !..

وقبل أن يجد فرصة لرد الفعل، كانت قد وضعت اسطوانة فوق الفونوغراف المتنقل الذي جاءت به معها واخذت تحاول تعليمه احدث خطوات الرقص.. ثم إنها حملته على تغيير بنطلونه المتسخ الذي ورثه عن الكولونيل أوريليانو بويندیا، وأعطته بعض القمصان الشبابية وحذاء بلونين، وكانت تدفعه الى الشارع دفعا عندما كان يمضي في غرفة مالكويداس وقتا أطول مما ينبغي...

كانت عصرية مائة في المائة، حتى كان من غير المفهوم ان تعود مثلها الى بلدة ميتة مثقلة بالاتربة والحر القائظ، ومع زوج كان عنده من المال ما يكفي للعيش في أي مكان في العالم وهو يحبها حبا جما جعله يرتضي ان يقاد بطوق حريري حول رقبته !..

وبعد عام من عودتها، وعلى الرغم من أنها لم تفلح في اتخاذ أي اصدقاء او اقامة اية حفلات، فإن امارانتا اورسولا، ظلت على اعتقادها بأن في الامكان إنقاذ هذه البيئة التي انفردت بالعزلة وبما تعاقب عليها من كوارث... وقد حرص زوجها جاستون على عدم معارضتها، وإن كان منذ ان نزل من القطار قد أيقن أن زوجته تعلقت بسراب خادع... ولما ألفاها منهمكة في عمليات الاصلاح والتجديد، ما لبث ان تفرغ بدوره للطواف بدراجته في المنطقة لاقتناص كل ما استطاع من الحشرات المحلية،وإرسالها معلبة الى استاذه السابق في التاريخ الطبيعي بجامعة ليبج، حيث كان له نشاط متقدم في علم الحشرات، وإن كانت مهنته الاساسية هي قيادة

الطائرات. . وعلى الرغم من أنه كان يكبر زوجته بخمسة عشر عاما على الاقل، الا أن عزمه الراسخ على توفير أسباب السعادة لها في حياتهما الزوجية هذه قد عوضها عن فارق السن. . وكان لقاؤهما قبل عامين من زواجهما، عندما اختل توازن الطائرة الصغيرة ذات الجناحين التي كان يستقلها فوق المدرسة التي كانت تتعلم فيها «أمارانتا أورسولا» إثر ارتطامها ببعض الاسلاك الكهربائية العالية، مما أدى الى إصابته برضوض غير خطيرة لحسن حظه. . . ومن وقتها درج على اصطحاب «أمارانتا أ. رسولا» أيام العطلات من بيت الراهبات الذي كانت تقيم به، الى حيث يقضيان وقتا طيبا في ناديه الخاص. . وقد نبت الحب في قلبيهما وهما يحلقان بالطائرة أيام الاحد على ارتفاع ألف وخمسمائة قدم فوق البراري والمروج. . . وكانت تحدثه عن مسقط رأسها في ماكوندو مؤكدة انها اجمل بلدة في الدنيا. . . وقد فهم جاستون انها لن تتزوجه الا اذا صحبها للإقامة في ماكوندو. . . فقبل عن طيب خاطر، كما قبل وضع الطوق الحريري في رقبته، معتقدا انها نزوة عابرة ستتكفل الايام بالتغلب عليها. . . غير أنه بعد مضي عامين في ماكوندو، وبعدما رأى أن «أمارانتا أورسولا» ظلت هانئة سعيدة كأول يوم لوصولها، دب القلق الى نفسه، خصوصاً وقد تعقب جميع انواع الحشرات في ماكوندو واستوفى ارسال النماذج التي يريدها. . ورغبة منه في ملء وقت فراغه الطويل، فإنه درج على تمضية ساعات الصباح في غرفة مالكويداس مع أوريليانو الخجول. . . وقد أعجبه منه اطلاعه الواسع، ومعرفته لا باللغة السنسكريتية فقط، بل كذلك بالانجليزية والفرنسية، وقليل من اللاتينية واليونانية القديمة. . . ولما صار اوريليانو يخرج من البيت عصر كل يوم في العهد الاخير وكانت «أمارانتا أورسولا» تعطيه مبلغا من النقود كل اسبوع لمصروفه الشخصي، فإن غرفته قد تحولت الى ما يشبه فرعاً لمكتبة القطالوني. .كان يقرأ بشراهة حتى وقت متأخر من الليل، ولكن أكثر ما كان يستغرق اهتمامه هو التركيز على المخطوطات، التي كان يخصص لها معظم

ساعات الصباح. . . وكان بـود جاستـون و «أمارانتـا أورسولا »
الحياة العائلية، بيد أن أوريليانو كان زاهدا، تحف به سحابـة م
والخفاء كانت تزداد كثافة مع الايام. . . وعندما فشل جاستون ف
لمصـادقة أوريليانو، لم يلبث ان تحول عنه لالتماس سبل اخرى
قضاء وقته الطويل. . . ومن هنا جاءت فكرته لإنشاء خط جوي ير
بالعالم الخارجي. . .

وفي الحق إن هذا المشروع لم يكن بالجديد عند جاستون
مختمرا في ذهنه عندما التقى بأمارانتا اورسولا، فيما عدا ان التفك
الخط الجوي لم يكن في ماكوندو، بل في الكونغو البلجيكي،
لأسرته استثمارات قائمـة. . وقد أدى زواجـه وما تقـرر أول الا
شهور معدودة في ماكوندو الى ارجاء تنفيذ الفكرة. . وعندما تبي
مصرة على التوطن في البلدة والعمل على تحسين أحوالها، لم ي
إلا أن يعيد الاتصال بشركائه في بلجيكا لتعديل المشروع وإنشاء ا
في منطقة الكاريبي بدلاً من أفريقيا. . . وهكذا قام برحلات متتالية
الاقليم والتقى بالجهات المسؤولة حيث حصل على التراخيص
العقود الخاصة بإنشاء الخط الجوي، ولم يبق الا وصول الطائر
على الخط الجوي. . .

لقد احدثت عودة «أمارانتا اورسولا» الى البيت الكبير ت
حياة أوريليانو، وان لم تلاحظ هي ذلك. . كان لا يزال على ا
عندما عانقته كأخت وتركتـه لاهث الانفاس. . . وفي كـل مرة
وخاصة عندما كانت تريه الرقصات الجديدة، كان يلابسه ذلـك
الغامر الذي لابس جده الاكبر عندما اخذته بيلار تيرنيرا الى غر
بدعوى قراءة طالعه من واقع اوراق اللعب. . ولكي يخمد ما كان
عذاب فقد انكب بكل قوته على المخطوطات هرباً من مداعبات

الفتية التي رغم براءتها كانت تسمم لياليه وتقض مضجعه... ولكن كان كلما تحاشى لقاءها، اشتد به القلق والاضطراب وهو يسمع ضحكاتها الطروبة السعيدة تتردد ليلا في ارجاء البيت وهي تسامر زوجها الى وقت متاخر.. لم يكن فقط يبيت ليله ساهرا مسهدا حليف الضنى، ولكنه كان ايضا يمضي نهاره التالي محموما منتحبا من الحنق والاحتلام.. وكان يهيم على وجهه في الطرقات شارد الفكر مضطرم الجوانح، فإذا عاد الى البيت وقت الغروب، دخل من الباب كغريب دون أن يسلم على «أمارانتا أورسولا» او جاستون وهما يتناولان طعام العشاء في مثل هذا الموعد عادة، فيغلق على نفسه باب الغرفة، عاجزا عن القراءة او الكتابة او حتى التفكير، مضطربا من تلك الضحكات الدافئة والهمسات المثيرة التي كانت تؤجج مشاعره..

لقد ظل على هذه الحال من المعاناة والضنى الى أن جاء ذلك اليوم الذي شعرت فيه «أمارانتا أورسولا» بالضجر من وحدتها لانهماك جاستون في مشروع الطيران، فجاءت الى أوريليانو في غرفته...

قالت له :

ـ سلاماً يا متوحش!.. أما زلت ملازماً كهفك؟..

كانت ذات اغراء لا يقاوم، وكانت مرتدية فستانا جذابا وعقودا متراكبة صنعتها جميعا بيديها... وكانت قد توقفت عن استخدام الطوق لزوجها بعد أن اقتنعت بإخلاصه ولأول مرة منذ عودتها الى البيت الكبير بدت وهي تنعم بالصفاء والدعة... ولم يكن أوريليانو بحاجة الى رؤيتها رأي العين ليعرف انها قد جاءت.. ولم تلبث ان وضعت مرفقيها على المنضدة بقرب كبير من مكانه حتى لقد سمع أوريليانو طقطقة عظامها، وأبدت اهتمامها بالمخطوطات... وفي محاولة من أوريليانو للتغلب على اضطرابه، جاهد لاستبقاء صوته الذي كاد يخونه، وأنشأ يحدثها عن قداسة اللغة السنسكريتية

والاحتمالات العلمية للتنبؤ بالمستقبل وضـرورة المواظبـة على محاولـة فك رمـوز المخطوطـات للكشف عن مضامينهـا الخفية التي استهـدفها حكمـاء القرون الماضية. . . ثم فجأة، ودون أن يقطع أوريليانو الحديث وضـع يده على يدها استجابة لرغبة كامنة في أعماقه، ظنا بأن هذا القرار النهائي سيضع حداً لهواجسه. . . وإذا هي تمسك بأصبعه السبابة بتلك المودة البريئة التي كانت تبدي مثلها أيام الطفولة، وظلت ممسكة به وهو يتابع الرد على اسئلتها واستفساراتها. . . وظلا متماسكين بالإصبع على هذا النحو الذي لم ينضح بأي احساس الى أن أفاقت من حلمها العارض ولطمت جبينها بيدها هاتفة :

ـ النمل ! . .

وهنا نسيت كل شيء عن المخـطوطات، واتجهت الى البـاب بخطوة راقصة ، ومن هنا طوحت الى أوريليانو بقبلة على أطراف اصابعها. . تلك التي وجهتها الى أبيها عصر ذلك اليوم الذي ارتحلت فيه الى بروكسل. . وقالت له :

ـ يمكنك ان تحكي لي في ما بعد. . .نسيت ان اليوم هو موعـد رش الجير على جحور النمل ! . .

ولقد استمرت تعرج على غرفة أوريليانو بين فينة وأخرى كلما اقتضت الاحوال ان تفعل شيئا في ذلك الجناح من البيت، فتمكث دقائق معـدودة، بينما يكون زوجها منهمكا في دراسة مشروعاته. . ولما تشجع أوريليانو بهذا التغيير أصبح يتناول الطعام مع الاسرة كما لم يفعل ذلك منذ عودة «أمارانتا أورسولا » الى البيت، وهو ما ادخل السرور على نفس جاستون. . . وخلال الحديث الذي كان يدور بينهم بعد الطعام، كان جـاستون يشكـو من بعض التعقيدات التي عاقت تنفيذ مشروع الخط الجوي في الموعد المقدر، حتى لقد اعرب عن رأيه ذات مرة في القيام برحلة قصيـرة الى بروكسـل لتسويـة

الموقف شخصياً والعودة مع الطائرة المنتظرة ذاتها. . . بيد أن هذه الفكرة لم تلبث ان تبخرت حالما كررت «أمارانتا أورسولا » عزمها على ألا تبرح ماكوندو حتى ولو فقدت زوجها. .

وفي الايام الاولى من وصول الزوجين الى ماكوندو كان أوريليانو يشارك في الاعتقاد العام بأن جاستون شخصية بلهاء تركب دراجة كبيرة العجلة الأمامية، مما أثار في نفسه احساسا غامضا قوامه الرثاء. . ولكنه لم يلبث بعد أن درس أطواره عن كثب أن قدر أن طبعه الحقيقي هو بعكس مسلكه الخاضع المستكين، وقام في نفسه شك خبيث بأن انتظار وصول الطائرة ليس الا من قبيل الافتعال والتمويه. . وعندئذ بدا له أن جاستون ليس بالبلاهة التي يصور نفسه بها، بل هو بالعكس رجل في تمام القدرة والصبر، رسم لنفسه أن يقهر زوجته بأن يضجرها بموافقته الدائمة على كل شيء، وبعدم رفضه لأي رأي لها، حتى يجيء اليوم الذي لا تعود فيه تطيق هذا المسلك، فتبادر بحزم حقائبها عائدة الى أوروبا. . . وهكذا استحال رثاء أوريليانو الى نفور عنيف. . . ولم يتمالك أن اجترأ على تحذير «أمارانتا أورسولا » من هذا الاسلوب. . . فإذا هي تستخف بشكوكه، دون أن تفطن الى ما كان يعتمل في نفسه من ضرام الحب والحسد. . . بل لم يخطر ببالها قط أنها تذكي فيه شيئا اكثر من المودة الاخوية، الى أن جرحت أصابعها ذات مرة وهي تحاول فتح معلبة للخوخ، وسرعان ما اندفع اليها يمتص الدم بشراهة وتفان أرسلا قشعريرة في ظهرها. . ثم ضحكت في شيء من القلق، قائلة :

ـ أوريليانو ! . . من يراك يظن انك خفاش مصاص للدماء ! . . .

وعندئذ انهار أوريليانو تماما. . . فأهوى بقبلات متلاحقة على راحة كفها الجريح ، وكشف عن جوانحه المضطرمة في سيل متدفق من الاعترافات

قال فيها انه طالما استيقظ من نومه في صميم الليالي يبكي من الوحدة كلما سمع ضحكاتها الطروبة الدافئة، وطالما تسلل الى مخدعها في غيابها ليلقي نظرة محسورة على ملابسها، وطالما سطا على زجاجات عطرها متطيبا بها لكي تبقى ماثلة في دنياه اطول امد ممكن. . . والحق ان أمارانتا أورسولا قد فزعت من هذه الفورة العاطفية الى حد جعلها تطبق يدها بعنف وتقول له بلهجة كانت أقرب الى بصقة :

ـ يا أحمق ! . . أنا مسافرة على أول باخرة تتجه الى بروكسل !.

وفي بلواه المتعاظمة هذه لم يجد ملاذا الا في حمى جدته الكبرى بيلار تيرنيرا، وإن لم يعرف نسبه اليها. . .

لقد سمع في جولاته الاخيرة في ماكوندو انها تقرأ الطالع وتواسي المحزون وتطيب القلوب الجريحة. .

كانت جالسة في مقعدها الهزاز لا تحفل بمر الزمن بعد أن جاوزت المائة والعشرين من عمرها ولم يبق لها الا أن تجتر الذكريات حلوها ومرها. . وما أن رأت أوريليانو حتى أيقنت من بروز عظمتي وجنتيه وملامح الانطواء البادية عليه أنه من سلالة بويندیا. . وكان على استعداد للتدفق بالكلام حتى يجد التعاطف الذي يذيب عقدة الكرب التي كانت تخنقه، بيد أنه لم يفلح الا في بكاء مرير هز كيانه من الاعماق. . فتركته يسترسل حتى جفت دموعه وهي تخدش رأسه بأطراف أصابعها، ودون أن يكشف لها أنه يبكي من ضنى الحب فقد عرفت هي من فورها علة هذا البكاء، وقالت له مواسية :

ـ كل شيء بخير يا طفلي . . . والآن قل لي : من هي ؟. .

وعندما أخبرها أوريليانو اطلقت ضحكة عريضة تفيض بالحنان، فهي تعرف ان قلوب افراد اسرة بويندیا لا تخفي عليها فيها خافية وقد علمتها

التجربة وتداول اوراق الطالع طوال قرن من الزمان ان تاريخ الاسرة هو بمثابة آلـة تتكرر دوراتهـا عبر الـزمن متشابهـة متماثلة. . . وفي النهـاية قـالت لـه باسمة :

- لا تقلق. . . حيثما تكون هي الان، فستجدها في انتظارك!! . .

وكانت الساعة هي الرابعة والنصف عندما خرجت «أمارانتا أورسولا» من الحمام. . . ورآها أوريليانو تمر قرب غرفته بروب الحمام وقد لفت رأسها بمنشفة. . فتبعها على أطـراف أصابعـه وهو يتعثـر من سكرتـه، ودلف الى مخـدعها في اللحـظة التي فتحت فيها الـروب ثم أطبقته مـرة ثانيـة فـزعـة مروعة. . . فاشارت صامتة شطر باب الغرفة المجاورة التي كان بابها مواربا والتي كان اوريليانو يعرف ان جاستون جالس فيها يهم بكتابة رسالته. .

قالت له بلا صوت :

- اذهب ! . .

ابتسم اوريليانو. . وطـوقها بقـوة. . فدافعت عن نفسهـا دفاعـا عنيفا أسالت فيه دم وجهه بأظافرها. . وفي غمرة هذا الصراع الرهيب لم تستطع ان تفتـح فمها بصـراخ جزعـاً من الفضيحـة المؤكـدة. . ولـم تلبث أن خـارت قواها. . .

الفصل التاسع عشر

على الرغم من ان ماكوندو اصبحت بلدة شبه مهجورة تكسوها الاتربة ويشوبها القيظ اللافح، فإن اوريليانو و «أمارانتا اورسولا» كانا المخلوقين الوحيدين السعيدين فيها، بل أسعد من في الارض جميعا. . .

لقد عاد جاستون الى بروكسل. . فعندما مل انتظار الطائرة قام ذات يوم وجمع ضرورياته في حقيبة صغيرة وأخذ ملف اوراقه ومراسلاته وارتحل وفي النية أن يعود بالطائرة، «قبل ان يعلم آخر المطاف أن الشركة التي كان يفاوضها قد حولت الاتفاق الى جماعة من الطيارين الألمان عرضوا على الجهات المختصة مشروعا اكثر طموحا من مشروعه». . وهكذا خلا الجو لأوريليانو و «أمارانتا اورسولا» لكي يطلقا العنان لغرامهما، حتى لم يحفلا بالنمل وهو يجتاح البيت اجتياحا، كما هجر اوريليانو المخطوطات ولم يعد يفارق البيت. . .

وفي فترات الصحو من حمى غرامهما العنيف كانت «أمارانتا اورسولا» ترد على رسائل جاستون وقد بدا لها بعيدا عنها بعداً سحيقاً وغارقاً في مشروعاته الى حد خالت معه أن عودته غدت مستحيلة. . .

وفجأة، ومثل صاعقة تنقض من السماء تلقت «أمارانتا أورسولا» في غفلة النشوة نبأ قرب عودة جاستون بعد فشل مشروعه. . . لقد فتحت هي وأوريليانو اعينهما بعد زوال الغشاوة، وغاصا في أعمق أعماق نفسيهما، وتطلعا الى الرسالة وأيديهما على قلبيهما، وأيقنا انهما لصيقان احدهما بالآخر الى حد يؤثران معه الموت على الافتراق. . وهكذا سطرت لزوجها

رسالة كانت هي النقائض بعينها، كررت فيها الإعراب عن حبها له وشـوقها لرؤياه من جديد، ولكن في نفس الوقت اعترفت اعتـرافا قـدريا بـاستحالـة العيش بغير أوريليانو. . . وعلى عكس ما كـانا يتـوقعانـه، فقد بعث اليهمـا جاستون برد هادىء شبه «أبوي »، أفرد فيه نحو صفحتين كاملتين كانتا بمثابة تحذير من تقلبات العاطفة، مع فقرة اخيرة اعرب فيها عن أصدق تمنياته لهما بسعادة تماثل سعادته في فترة زواجه القصيرة. . والحق أن هذا المسلك كان أبعد ما يكون عن تصور «أمارانتا أورسولا » الى حد أنها شعرت بالمهانة اذ رأت أنها أعطت زوجها الذريعة التي كان يريدها لكي يهجرها لمصيرهـا. . أما اوريليانو فقد راح يسري عنها ويبذل الجهد ليبين لها أنه يستطيع أن يكون في مرتبة الزوج في الضراء كما في السراء، حتى أن المطالب اليوميـة التي حاصرتهما بعد أن نفدت البقية الباقية من نقود جاستون خلقت بينهما لونا من التضـامن إن لم يكن في قوة الغـرام المتقد الا أنـه لم ينـل من عـاطفتهمـا المشبوبة. . .

واصبحـا ينتظران مـولودا. . . وخـلال فترة الحمـل حاولت «أمـارانتا أورسولا » التكسب من صنع عقود للزينة من عظام الاسماك. . ولكن باستثناء فتاة الصيدلية المجاورة التي ابتـاعت عددا محـدودا منها، لـم تستـطع ايجاد زبـائن آخرين. وأدرك اوريليـانو لأول مـرة ان حذقـه في اللغات، ومعـرفته الواسعة التي اكتسبها من دائرة المعـارف المصورة، وبـراعته في الإحـاطة بالوقائع والاماكن البعيدة دون أن تتوافر له رؤيتها. . كـل ذلـك كـان غير ذى جدوى، مثل علبة المجوهرات الحقيقية الخاصة بـزوجته، والتي لا بـد أن قيمتهـا كانت تسـاوي اكثر من كـل ما يملكـه سكـان مـاكـونـدو السـابقـون جميعا. . .

لقـد استطاعـا البقـاء بين الاحيـاء بمعجـزة. . . وعلى الـرغم من أن «أمارانتا أورسولا » لـم تفقد بهجتها وبشاشتها، فقد اعتادت اخيرا أن تجلس

في مدخل البيت بعد الغداء في لون من القيلولة تشوبه اليقظة والسهوم . . . وكان اوريليانو يصاحبها في هذه الجلسات . . . وكانا احيانا يبقيان هكذا صامتين حتى حلول الليل ، متقابلين ، بأعين تتبادل النظرات ، متحابين بتلك الفورة التي كانت لهما في أول العهد بالغرام الفاضح ، فلا يملكان ازاء الشك في المستقبل الا أن يديرا قلبيهما الى الماضي . . . وفي هذا الماضي كانا يستعيدان صور الطفولة السعيدة عندما كانا يخوضان في مياه الامطار ويعبثان بالفقاقيع ، وعندما كانا يقتلان السحالي بوضعها حول رقبة أورسولا العجوز الكفيفة ، وعندما يممت «أمارانتا أورسولا » شطر المسبك عصر ذات يوم وأخبرتها أمها فرناندا أن أوريليانو الصغير ليس له أب معروف لأنهم عثروا عليه في سلة طافية في النهر . . . وكل ما استطاعا التوصل اليه بعد دراسة كافة الاحتمالات هو أن فرناندا لم تكن أم أوريليانو ، ومالت «أمارانتا أورسولا » الى الاعتقاد بأنه ابن بيترا كوتيس ، تلك التي لم تذكر من أمرها سوى الحكايات الشائنة عنها ، وما لبث هذا الافتراض أن ولد في قلبها شيئا من الهلع . . .

وعندما تعذب أوريليانو بما بدا له من أنه أخ لزوجته ، فقد هرع الى الابرشية للبحث في سجلاتها العطنة التي أكلها العث عن اثر يرشده الى أبويه . . ولما طال بحثه دون جدوى نظر اليه القس الكهل المقعد في مكانه بسبب الروماتزم وسأله بإشفاق عن اسمه ، فأجاب :

ـ أوريليانو بويندیا . . .

فقال له القس بلهجة قاطعة :

ـ اذن لا تتعب نفسك في البحث . . . منذ سنوات بعيدة كان هنا شارع بهذا الاسم ، وفي تلك الايام كان من عادة الناس أن يسموا مواليدهم بأسماء الشوارع . .

فقال أوريليانو وهو يرتجف حنقاً :

ـ هكذا ؟ . . أنت ايضا لا تصدق ؟ ! . .

ـ أصدق ماذا ؟ . .

فرد أوريليانو بقوله :

ـ . . . إن الكولونيل أوريليانو بويندبا خاض اثنتين وثلاثين حربا أهلية وخسرها جميعاً، وإن رجال الحكومة قتلوا بالرصاص ثلاثة آلاف رجل في ميدان المحطة وحملوهم بالقطار وألقوا جثثهم في البحر ؟ . .

فتفرس فيه القس بنظرة رثاء وتنهد قائلاً :

ـ آه يا ولدي ! . . يكفيني أن أتأكد أنك وأنا موجودان في هذه اللحظة . . .

وهكذا تقبل أوريليانو و «أمارانتا أورسولا» قصة السلة الطافية، لا لأنهما صدقاها، بل لأنها وفرت عليهما الهلع . . وبتقدم عهد الحمل ازداد ارتباطهما واندماجهما في العزلة المطبقة على البيت، ذلك البيت الذي لم يكن يحتاج إلا الى نفخة واحدة اخيرة لكي يتداعى ويتقوض . . . وقد اقتصر وجودهما على جانب محدود فيه هو الذي يبدأ من مخدع فرناندا حتى بداية المدخل، حيث كانت «أمارانتا أورسولا» تجلس لكي تخيط ثياب المولود المنتظر . أما باقي المنزل فقد أصبح نهبا للدمار بفعل النمل وسائر الحشرات، حتى اضطر الاثنان الى تحصين منطقتهما بعوازل من الجير ضد جحافل النمال . . . وكان من جراء شعرها الطويل المهمل، والبقع التي بدأت تظهر على وجهها، وتورم ساقيها، وتشوه قوامها اللدن . . كان من جراء هذا كله ان تغيرت «أمارانتا أورسولا» تماما، فلم تعد ذلك المخلوق الذي كان ينضح شبابا عند وصولها الى البيت لأول مرة مع زوجها الاسير بالطوق حول رقبته . . . ولكن ذلك لم يغير من حيويتها وروحها الوثابة، اذ قالت مرة ضاحكة :

ـ من كان يصدق أن الامر سينتهي بنا الى أن نعيش كالمتوحشين !.

ومع هذا فقد أمضى أوريليانو و «أمارانتا أورسولا» الشهور الاخيرة وأيديهما متشابكة، وانتهى بهما الحب الى الولاء للطفل الذي جاءت بذرته في سعار الحرام... فإذا كان الليل وهما متعانقان ماكانا ليفزعا من تلك الطقطقة التي يحدثها النمل والعث، وذلك الحفيف لنماء الحشائش في الغرف المجاورة.. وكثيرا ما أيقظهما مسرى أشباح الموتى في الظلام. .كان يخيل اليهما أنهما يسمعان أورسولا العجوز وهي تغالب قوانين الخليقة للحفاظ على تسلسل الأسرة، وجوزيه اركاديو بوينديا الكبير وهو دائب في سعيه وراء المخترعات، وفرناندا في صلواتها، والكولونيل أوريليانو بوينديا وهو يخادع نفسه بالحروب وصنع الاسماك الذهبية الصغيرة، وأوريليانو الثاني وهو يقضي نحبه وحيدا في غمار مجونه وفتونه. وعندئذ يبدو لهما أن هذا التحول الشبحي قادر على الانتصار على الموت، فكان يسعدهما أن يمضيا في حبهما في كينونتهما الطيفية هذه الى أبد الآبدين...

ثم جاء عصر يوم الاحد الذي شعرت فيه «أمارانتا أورسولا» بآلام المخاض... ولما جاءت القابلة مددتها على مائدة الطعام وجعلتها تقوم بحركات عنيفة الى أن غطت صيحاتها صراخ المولود الذكر الضخم الذي بزغ الى نور الوجود... ومن خلال دموعها رأت «أمارانتا أورسولا» أنه سيكون واحدا من سلالة بوينديا الجبابرة بقوته ومخائل عزمه البادية عليه مثل جوزيه اركاديو الفحل، وبعينيه المفتوحتين العرافتين مثل أعين من تسموا بإسم أوريليانو. . وكأنه نبوءة لبداية تسلسل الأسرة من جديد وتطهيرها من دنس الفواحش والفسوق وأثقال العزلة والوحدة...

وفي هذا لم تتمالك «أمارانتا أورسولا» أن قالت :

ـ هو متوحش حقيقي... سنسميه رودريجو.

ولكن زوجها عارضها قائلا :

ـ لا . . سنسميه أوريليانو، وسوف ينتصر في الحروب الثانية والثلاثين . .

وبعد قطع الحبل السري بدأت القابلة تمسح بخرقة ما علق بجسد الطفل في ضوء المصباح الذي رفعه أوريليانو. . وعندئذ لم يروا الا بعد أن أداروا الطفل على بطنه أن به شيئا أكثر مما في سائر الذكور. . . فلما انحنوا فوقه لفحصه، اذا هو ذيل خنزير. . .

لم ينزعج كلاهما. . . فإن أوريليانو و «أمارانتا أورسولا» لم يكونا عارفين بما كان في سوابق الاسرة، ولا تذكرا تلك المحاذير المروعة التي قالتها أورسولا العجوز عما ينجم من تزاوج الاقارب ابناء الاسرة الواحدة، كما أن القابلة سكنت روعهما بقولها إن الذيل يمكن قطعه بعد أن يصل الطفل الى مرحلة «التسنين». . . ثم حدث ما أنساهما حالة الطفل، فقد أصيبت «أمارانتا أورسولا» بنزف حاد عجز عن وقفه كل تطبيب القابلة. . . وخلال الساعات الاولى حاولت «أمارانتا أورسولا» الاحتفاظ بمرحها ودعابتها، حتى أمسكت بيد أوريليانو المرتاع ورجته ألا يقلق، لأن من كانت مثلها لا تموت ضد ارادتها، هكذا قالت، وانفجرت ضاحكة سخرية من محاولات القابلة. . . ولكن عندما بدأ اوريليانو يفقد الامل، اخذت بنيتها تتضاءل، الى أن انتابها خدر النعاس. . . وبعد جهود أربع وعشرين مضنية استعانوا فيها بكل ما قدروا عليه حتى الرقى والتعاويذ والابتهالات، توقف النزف فجأة دون مزيد من الاسعاف، واستحال محياها الى النحول، وزالت البقع من وجهها مخلفة هالة من المرمر، وعادت اليها البسمة . .

كانت داهية لم يمن أوريليانو بأشد منها في حياته. . . وفي غمرات بلواه وضع الوليد في السلة التي أعدتها له أمه سلفا، وغطى وجه الجثة

بملاءة، وغادر البيت هائما على وجهه في البلدة... كان يبحث عن أحد ما يبثه مصابه، ولما قادته قدماه إلى مكتبة القطالوني وجده قد ارتحل عائدا الى بلاده... فلم يستطع ان يغالب دموعه التي تفجرت لطول ما حبسها في مآقيه أمام فراش «أمارانتا أورسولا» وهي في دور الاحتضار.. وراح يلطم الجدار بقبضتي يديه حتى ادماهما... وفي النهاية تذكر الطفل، فقفل عائدا الى البيت..

لم يعثر على السلة...

تملكته أول الامر فرحة غامرة. فقد ظن أن «أمارانتا أورسولا» قد استيقظت من الموت لكي ترعى الطفل... لكن جثتها كانت كوما من العظام تحت الملاءة... وعندما فطن الى أنه عندما وصل ألفى باب غرفة النوم مفتوحا، لم يلبث أن يمم شطر غرفة الطعام ونظر فيها.. كانت الآثار والبقايا المتخلفة عن الولادة لا تزال كما هي...

فقد بدا له أن القابلة ربما عادت في وقت ما من اجل الطفل، ووجد في هذا الخاطر وقفة للراحة والتفكير... فجلس في المقعد الهزاز وهو نفس المقعد الذي جلست فيه من قبل أمارانتا وهي تلاعب الكولونيل جيريلدو ماركيز الشطرنج، والذي جلست فيه بعد ذلك «أمارانتا أورسولا» لتخيط ملابس الطفل قبل أن يولد، وفي لحظة الذكرى الخاطفة شعر بأنه عاجز عن احتمال وقر ذلك الماضي في قرارة روحه، فإذا أضيفت اليه اثقال الحاضر كان الوقر ابهظ من أن يحتمله انسان... وفي خلال ذلك راعه اصرار العناكب وهي تعمل دائبة بين شجيرات الورود الميتة، وحفيف الهواء وهو لا يكل ولا يتوقف.. وعند هذا الحد وقع نظره على الطفل..

كان كيسا يابسا منتفخا من الجلد، التفت حوله نمال الدنيا كلها تسحبه شطر جحورها على امتداد الممشى الحجري في الحديقة...

لقد عجز اوريليانو عن الحركة. . لا لأنه شل من الهلع، بل لأنه تذكر في هذه اللحظة الرهيبة المروعة تلك العبارة التي قرأها في مخطوطات مالكويداس والتي تقول : «إن أول السلالة سيربط في شجرة، وآخرها سوف تأكله النمال». . .

لم يكن أوريليانو في كل حياته الماضية اصفى ذهنا مما كان الان وهو يسمر ابواب البيت ونوافذه بالعوارض المتصالبة المتخلفة من عهد فرناندا، حتى لا تستدرجه أية مغريات من العالم الخارجي، اذ قد عرف الان أن مصيره مكتوب في مخطوطات مالكويداس. . .

وجدها سالمة من أي سوء. . . وراح يفك طلاسمها صابرا مستعينا بمفاتيح الشفرة التي وفق اليها في دراساته الطويلة الماضية والتي أدت تطورات حياته الاخيرة الى انقطاعه عن اتمامها. . . لقد حشد مالكويداس وقائع تاريخ الاسرة على مدار قرن من الزمان. وإن ركزها في مدى واحد سبق به الزمن. . . وكان أوريليانو في لهفة بالغة لمعرفة منشئه، فجعل يتخطى الصفحات متعجلا في الوقت الدي بدأت الريح تهب فيه حارة مليئة بأصوات الماضي وحفيف الزهور الذابلة، بيد أنه لم يحفل بها لأنه ما لبث ان اكتشف بواكير وجوده في ذلك الجد الماجن الذي سعى عبر الجبال للفوز بامرأة جميلة لم يجد عندها السعادة التي كان ينشدها. . . عرف فيهما «أوريليانو الثاني وفرناندا». . . وأسرع يتابع خفايا منبته الى أن اطلع على واقعة حمل أمه «ميم» له بين العقارب والفراش الاصفر في حمام وقت الغروب، حيث أطفأ شاب ميكانيكي سورة عاطفته بين ذراعي امرأة منحته نفسها تمردا على كافة القيم. . . ولقد بلغ من شدة استغراق أوريليانو أنه لم يشعر بالريح وهي تعنف وتستحيل الى عاصفة خلعت الابواب والنوافذ وأطاحت بسقف الجناح الشرقي وخلخلت دعائم البيت. . فعندئذ فقط اكتشف ان «أمارانتا أورسولا» لم تكن اخته، بل كانت خالته، وكان ثمرة خطيئتهما ذلك المولود

الاسطوري الذي كتب عليه أن يكون آخر سلالة الأسرة. . .

عند هذا الحد كانت ماكوندو إعصاراً مروعا من الاتربة والانقاض المتطايرة، ولكن أوريليانو مضى يقلب الصفحات ليجاوز وقائع حياته الراهنة ويطلع على الفقرات التي تتنبأ بتاريخ وظروف وفاته. . وقبل ان يصل الى الصفحة الاخيرة كان قد أدرك مسبقا أنه قد كتب عليه ألا يبرح هذه الغرفة قط، اذ خط في لوح القدر أن بلدة السراب هذه ستمحوها الرياح من على ظهر الأرض محوا وتزول ذكراها من الاذهان لحظة أن يفرغ أوريليانو بابيلونيا من فك طلاسم المخطوطات، وأن كل ماورد بها لن يتكرر في مسار الزمان الى الأبد، لأن السلالة التي قضى عليها بأن تعيش مائة عام من العزلة لن تتاح لها فرصة اخرى لامتداد البقاء على وجه الأرض.

تمت